المُسِنّ

رواية

رضا سليمان

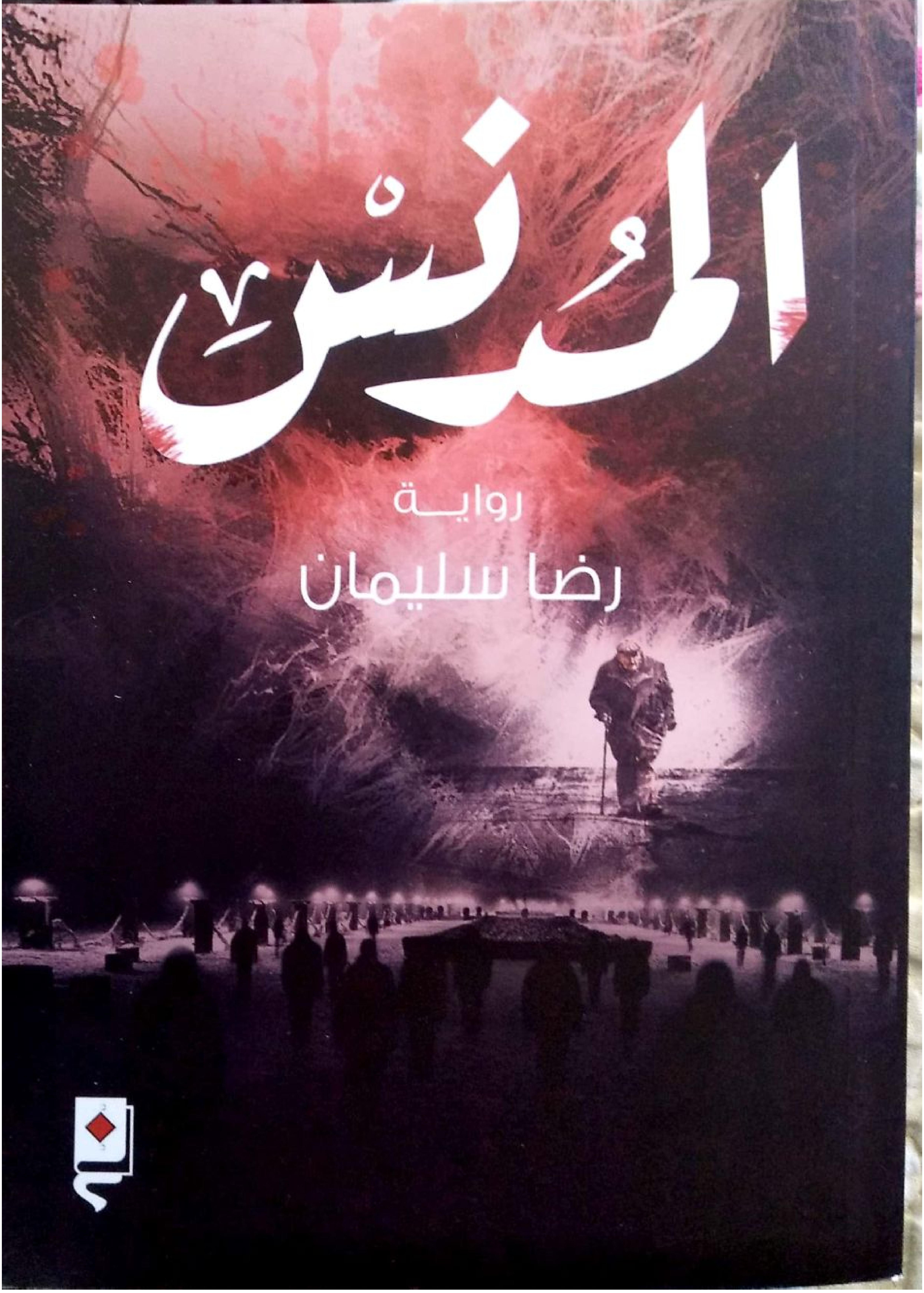

Scanned by CamScanner

المُدنَّس

(اللعنة العَشرية)

رواية

رضا سُليمان

Scanned by CamScanner

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ ـ ٢٠١٨م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٨/٠٠٠٠٠

بطاقة فهرسة

سليمان ، رضا

المدنس: أدب رحلات/ رضا سليمان، ط١ - القاهرة:

دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٨

٤٠٠ صفحة؛ ١٤ X ٢٠ سم

تدمك: ٩٧٨-٩٧٧-٧٨٦-؟؟؟-؟

١ - الرحلات في الأدب العربي

أ - العنوان

٨١٣,٩٠٣١

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

؟؟؟

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

Scanned by CamScanner

اعْتَرِفوا وتَطَهَّروا

فلكم في الاعتراف حياة يا أولي الألباب

ولا تنسوا أن هناك طائرًا رهيبًا يرفرف بجناحيه فوق

الجميع كي يلتقط منهم بمخالبه العملاقة

ما يشاء .. وقتما يشاء ..

إنه الموت ..

Scanned by CamScanner

عندما تحل الكوارث وينتشر الفزع و يسيطر الرعب،

تتشابه ردود الأفعال، تتوحد الأفكار ..

وفي بيئة الرعب ينتشر التخاطر.

***

التخاطر

أهم فروع الباراسيكولوجي

Scanned by CamScanner

الرواية الملعونة

لهذه الرواية - وهي رواية ملعونة كما أُطلق عليها بشكل شخصي- بداية رهيبة، في أول الأمر كان مجرد حديث مع طبيب صديق حول الباراسيكولوجي جعلني أبحث عن أحد أهم فروعه وهو «التخاطر». فهل التخاطر أمر بشري صرف مرتبط بالنفس وما تحويه من بحور لم يسبر غورها العلماء حتى اليوم، أم أن ثمة تدخلًا من قوى خفية. الجان مثلًا؟!

مثل أي شخص كتبتُ كلمة «التخاطر» على مؤشر بحث جوجل كي أقرأ عنه وأستقى المزيد. و .. قرأتُ.. يمر اليوم الأول بسلام.

في اليوم التالي تتزايد أحلامي بشكل غريب وتأخذ اتجاها غير ما اعتدتُه، كانت أحلامي غالبًا مشتتة بين أحداث اجتماعية وأحداث أسرية، أصحو من نومي لا أتذكر معظمها، لكنها تحولت. منذ هذا اليوم يغلب عليها طابع العنف والدماء.

Scanned by CamScanner

أشاهدُ في أحلامي (التي أشعر بها وكأنها واقع ملموس يحتوي على الكثير من التفاصيل الدقيقة) خلالها شخوص وكأني أعرفهم من زمن، حتى إني أتألم بعنف عندما يُصاب أحدهم بأذى، الغريب في الأمر أن معظمهم كان له نفس صفات أصدقاء أو زملاء أو جيران أعرفهم بشكل مباشر، تمر عدة أيام ولم أهتم بهذا التغيير كثيرًا، لكن حينما استيقظتُ في أحد الأيام مفزوعًا بعد كابوس رهيب يتم فيه تمزيق شخص ما إلى أشلاء بيد مجموعة تحمل أسلحة بيضاء وكأنهم مساعدو جزار يعملون بآلية في عجل ذُبح منذ لحظات. صفات هذا الشخص الغريب كانت تنطبق تمامًا على جاري الأستاذ " وجدي ". في هذا اليوم بالتحديد بحثتُ عن الأستاذ وجدي، مررتُ من أمامه وأنا أدقق النظر في تفاصيل جسده وأتخيله تحت أيدي صبية الجزار وهم يُعملون فيه أدواتهم. حاولتُ أن أتناسى هذا الكابوس وأنا أشاهد ابتسامة الرجل الذي لم يُخفِ دهشته من نظراتي نحوه، ألقيت التحية عليه ورحلتُ.

لكن ساعات قليلة وكانت المصيبة الكبرى حينما أتى خبر مقتل الأستاذ «وجدى»، حادث مروع أصاب سكان المنطقة كلهم بحالة من الحزن الشديد، تتزايد حالة السخط العام مع انتشار مقطع مصور للحظات ذبحه أمام محله على مواقع التواصل، فقد كان يجلس في هدوء و دعة و لم يشعر بالقاتل يقترب حتى يقف خلفه ويمسك بشعر رأسه ليجذبه بقوة إلى الخلف

Scanned by CamScanner

بينما يده الأخرى التي تحمل سكينًا حادًا تقطع رقبته لتفصل رأسه عن جسده، تفارق الروح الجسد بينما تُرسم على الوجه علامات الدهشة والفزع، لم تفارقني نظرته الصباحية نحوي و لا نظرته الفزعة التي سجلتها كاميرات المراقبة المثبتة على واجهة المحل، كنتُ أشعر بأنه ما يزال ينظر نحوي و يود لو يعلم لِمَ قُتِل؟!

هنا بدأتُ أشعر بأن هناك أمرًا غريبًا يحدث لي، لم أتحدث مع أحد عن أحلامي، إنما أصبحتُ أنتظر وأراقب، أنتظر ما أشاهده ليلًا وأراقب ما سيحدث نهارًا، بنسبة كبيرة كان ثمة تطابق بين كوابيسي الليلية وأحداثهم النهارية. أناس أعرفهم وآخرون أجهلهم. وحينما أشاهد صورهم أتذكر كوابيسي. قررتُ أن أبحث عن آخرين يحدث معهم مثل ما يحدث معي، فهل هي حالة فردية أم ذاك يحدث مع غيري؟!

كتبتُ على صفحتي على فيسبوك عن التخاطر. أو تطابق الأحلام مع الواقع. أو رؤية بعض أحداث المستقبل. وهل تعرض أحد الأصدقاء إلى تجربة ما. لأن الأمر لم يعد مجرد حدث يمر كما غيره من تفاصيل الحياة، لقد تغلغل بداخلي بشكل جعلني أقرر الخوض في كتابة عمل أدبي يكون هذا محوره.

Scanned by CamScanner

كنتُ أعلم أن ما أمر به ليس تخاطر بشكل حقيقي وإنما هو جزء منه، فلستُ ممن يتحدثون إلى آخرين عبر الأحلام ولكني لم أكن أمتلك الجرأة على التصريح بتفاصيل حالتي، ففي مجتمعنا يتم نبذ شخص مثلي في لحظات تحت مسميات عدة.

كانت هناك عدة تعليقات على ما كتبته من الأصدقاء ولكنها لا تزيد عن مجرد كلمات هلامية وساخرة. لكن بعد مرور عدة أيام وصلتني رسالة على الخاص، صاحب الصفحة أو صاحبتها أطلق على نفسه، أو أطلقت على نفسها «قلب غراب أبيض". اسم غريب يلفت الأنظار، لكنه لم يستوقفني كثيرًا، لأتأمل مغزى اختياره، لأنني أسرعتُ أقرأ الكلمات وقد تملكتني حيرة وفزع شديدان.

يعرفني الكثير من خلال أعمالي الأدبية، ومَن يفتح صفحتي على فيسبوك سوف يشاهد على هامش الصفحة كل التفاصيل الخاصة بي وبأعمالي، لذا كانت رسالة «قلب غراب أبيض» تدور حول هذه الجزئية. الرسالة الأولى كانت رسالة مقتضبة، نعم الأولى لأن هناك عشرات من الرسائل والمقابلات الشخصية مع صاحبة «قلب غراب أبيض». نعم. كانت فتاة. فتاة رائعة الحسن سوف أُطلق عليها اسمًا من اختياري «كرمة». فكل الشخصيات خلال الصفحات القادمة تم تغيير أسمائها، وكانت رسالتها الأولى كما يلي:

«إن كنتَ تبحث في كتابة عمل أدبي عما يطلقون عليه التخاطر فلن تجد أكثر رعبًا وإثارة مما مرت به عائلتي، لكني في البداية يجب أن أخبرك بأن ما سأرويه لك يحمل في طياته لعنات لا نهاية لها. أخبرني إن رغبتَ».

ما سوف ترويه يحمل اللعنات! وليكن ..

سيطرت الرواية المنتظرة على تفكيري ولم أهتم على الإطلاق بتلك اللعنات التي حُذِرت منها. لكني مستقبلًا وعندما أشرع في كتابة الرواية سوف أصاب بكمٍّ هائل من هذه اللعنات. ذلك ما سيجعلني كما ذكرتُ في البداية أُطلق عليها اسم الرواية الملعونة.

من تلك اللعنات التي حلت عليَّ بمجرد الانطلاق في الكتابة حالات وفاة مفاجئة في عائلتي. مرض أقرب الأشخاص إليَّ بأمراض خطيرة، وأمراض أصابتني أنا بشكل مباشر، تدهور في الكثير من صفقات العمل والعلاقات الاجتماعية.

ما سبق يمكن أن يأتي بشكل طبيعي ولا علاقة له بتلك الرواية، لكن الغريب أن كل موقف من تلك المواقف كان يحدث مباشرة عند إمساكي بقلمي وأوراقي وكتابة أحد فصول الرواية.

Scanned by CamScanner

كنت ألتقي كرمة لتحكي لي ما يعادل فصلًا من فصول الرواية، تحكي بقلب دامٍ وعينين مشتعلين تنزفان. أترك الأحداث بداخلي يومًا أو أكثر كي تجد لها المخرج الأدبي المناسب للرواية، وعندما أشعر برغبة في الكتابة أجلس لأبدأ. فتحدث مصيبة ما.

كنتُ قد وصلت تقريبًا إلى منتصف الرواية حينها أدركتُ ارتباط تلك الأحداث الرهيبة التي أمر بها بكتابتي فصل جديد في الرواية، ففي البداية لم يذهب عقلي إلى هذا الربط. لكن مع التكرار. مع الترابط المباشر. أدركتُ ذلك.

طالت مدة كتابة الرواية حتى تخطت الحد المعقول بسنوات، أخبرتُ كرمة بما يحدث وكانت إجابتها أنها تعلم وأنها أخبرتني من البداية وأنا مَن صممتُ على خوض التجربة.

من ضمن ما أخبرتني به في اللقاءات الأولى أن لعنة ما. تركها «المدنس». لعنة تصيب كل مَن له علاقة أو على اطلاع بهذه الأحداث، ما بالنا وأنا أصوغها في رواية! لكن ذلك العناد المتولِّد بداخلي مع رغبة في التحدي جعلاني أواصل العمل عليها حتى نهايتها.

Scanned by CamScanner

قبل أن أبدأ في سرد تفاصيل الرواية الملعونة. رواية المدنس. ثمة أمر أخير يتحتم عليَّ تنفيذه. فقد أُمرتُ به. وهو أن أخبرك صديقي القارئ بأنك ستكون ممن تصيبهم لعنة المدنس هذا. فإن كنتَ تبتغي السلامة. فنصيحتي لك ألا تقرأها. أما إن كنت تحمل قلب مغامر حقيقي. فلتقرأ. ولتتحمل النتائج، لكن لا تُلقي عليَّ بأية لائمة .. لأنني ببساطة حذرتك ألا تقرأ تلك الرواية الملعونة .. رواية المدنس.

Scanned by CamScanner

(١)

الثالثة فجرًا .. اليوم الأول من سبتمبر عام (........)

نزلة شرموخ . المنيا.

يعتدل فجأة ليجلس فوق فراشه، الغرفة تغرق في بحر مظلم، لا يرى حتى أصابع يديه، يبتسم مثل ثعلب عجوز، إنه يعشق الظلام، تعتدل حالته النفسية مع هبوط الليل، كائن ليلي بلا نزاع، الخفاش حيوانه المفضل، عصبي صباحًا رائق المزاج ليلًا.

بالرغم من سنوات عمره التي أشرفت على السبعين لم يعانِ أحد أمراض الشيخوخة مثل أقرانه، فقط جسده النحيف منذ وعى بدأ ينحني قليلًا عند منتصف الظهر مما جعله يتوكأ على عصا منذ عدة سنوات.

Scanned by CamScanner

في ظلام الغرفة، يشعر بأنفاس زوجته المنتظمة غارقة في النوم، يُدلي قدميه باحثًا بأطراف أصابعه عن حذائه المغربي «البلغة» التي يشعر براحة كبرى حال لبسها وقد اختارها سوداء اللون رغم أن أشهر ألوانها في موطنها الأصلي، المغرب، أو في مصر منذ أن أتتها، هو اللون الأبيض.

هو اليوم، وفق الموعد المضروب ليلة أمس، ينتظر «خلاباش» زعيم إحدى قبائل الجن، يتذكر تفاصيل الليلة الماضية وكم كانت أحداثها مثيرة، ورغم ما كان فيها من رعب وإثارة فقد اقتربت به من تحقيق مراده وحلمه الذي يسيطر عليه ليل نهار.

لقد أوشك أن يهلك أمس لولا تماسكه الشديد أمام ذلك الكائن الناري ابن الزعيم «خلاباش». عَلِم بالأمس أن الزعيم سيأتيه الليلة كي يحقق له ما يريد وهو أمر عظيم، سوف تظل أحداث ليلة أمس وما سيحدث الليلة من أسراره العظيمة. لكنه لم يكن يعلم أن هناك عينًا راقبته بالأمس وسوف تراقبه اليوم، عين لن تذكر ما شاهدته إلا بعد سنوات.

يمد يده كي يلتقط عصاه، مثل كفيف يعرف أماكن الأشياء جيدًا يحمل عصاه، يتوجه ناحية باب الغرفة، يمسك مقبض الباب مباشرة، يفتحه فيتسلل الضوء الشاحب من الصالة، يلتفت بحركة لا إرادية يستطلع فيها

Scanned by CamScanner

حال زوجته، ما تزال تغط في نومها، وحتى لو استيقظت على حركته لم تكن تمتلك القدرة على سؤاله عما يفعل.

«الجندي عبد الحميد شرموخ»

ذلك الرجل السبعيني، ابن قرية نزلة شرموخ المسماة على اسم جده الأكبر، أول مَن سكن هذه الأرض. ينزوي مثل دودة في شرنقة تاركًا تفاصيل الحياة منذ عشرين عامًا، أمور عائلته كافة في يد زوجته الغارقة في نومها، يتدبرون أمرهم من ريع أرض ورثوها عن الأجداد.

يعيش الرجل في عالمه الخاص، غرفته التي يتوجه إليها في هذا التوقيت من كل ليلة هي ملجؤه وملاذه، منذ أن أغلقها خلفه ذات يوم من سنوات طويلة ونجح فيما كان يصبو إليه، وهو يلجأ إليها كلما رَغِبَ في الانطلاق عبر فضاء الكون.

يصل باب حجرته، يمد يده بالمفتاح ويديره في هدوء شديد، يسمع صوت تكة المفتاح الدالة على فتح أقفاله، قبل أن يدير أكرة الباب يدقُّه دقات خفيفة يستأذن في الدخول، لم يَصدُر صوتٌ من الداخل يسمح له بالدخول لكنه يشعر بشيء ما يسري في جسده وكأنه صوت حفيف أشجار، يبتسم ويفتح الباب.

Scanned by CamScanner

يدخل غرفته ويغلق بابها خلفه، يضغط الباب بشدة كي يتأكد من إغلاقه ثم يدير أقفاله السبعة، لقد أُمر بإغلاق الباب بهذه الأقفال السبعة من الداخل، في البداية أطاع بدون مناقشة معرفة السبب لكنه مع الوقت، وقد غلبه فضوله، سأل عن السبب حتى عَلِم، فعلى كل قفل حارس خاص يسمى باسمه. غرفته عالمه الخاص ولا بد أن يكون عليها حراس سبعة، يقرر في داخله أنه سيأتي يوم يقيم فيه مبنى خاص خارج نزلة شرموخ، يتخيل ذلك المبنى وله سبعة أبواب تماثل أبواب السماء السبعة.

الغرفة مظلمة تمامًا، يتحرك ثلاث خطوات، ثم ينحرف يسارًا متفاديًا طست الماء الذي يتوسط الغرفة، يمد يده الخاوية نحو مجسم له ستة أضلع، يحفظ مكانه جيدًا، بمجرد أن يمسه حتى يشتعل المجسم فيضيء الحجرة، لا يخفي ابتسامة العظمة قبل أن ينحني ليلتقط قنينة صغيرة من فوق رفٍّ جانبي، يدير الغطاء بهدوء، يرفع القنينة إلى فيه ليرتشف منها قطرات، يغلق قنينته ويعيدها إلى مكانها.

تنتشر ابتسامته المملوءة بالفخر والعظمة حتى غطت جسده كله، يشعر بالسائل الذي ارتشفه يسري في جسده، تنتفخ أوداجه، تتكور عضلات جسده، يعتدل جسده ويتلاشى انحناء الظهر، يترك عصاه في جانب، يتوجه إلى المقعد الوحيد الذي يتوسط الغرفة، يجلس وقد بدأ ينطق بعبارات مبهمة، تتضح بعض كلماتها تدريجيًّا مع ارتفاع صوته، يعلم جيدًا أنه مهما ارتفع صوته

Scanned by CamScanner

فلن يغادر هذه الغرفة، يرفع يديه إلى أعلى و كأنه يحتوي والكون ويتلقى السماء على راحتيه، تحمر عيناه و تكسوهما الدماء حينما يصل إلى منتصف تعويذته الدموية، ما إن يتأكد أن كلماته قد وصل مداها إلى عالمه الخاص، عالم الجن، حتى يبدأ في النداء بصوته الجهوري الذي لا يتناسب مع جسده أو سنوات عمره، يكشر عن أنيابه كي يُلقي في قلوب مستمعيه الرعب:

« ...خلاباش شيفاك ملاك سحلوم ..

قاهر الظلمات معتلي النجوم ..

اليوم الموعد .. والساعة أوشكت.

هلم يا مليكي لتحقق ما انتظرتُه عشرين عامًا ..

هلم يا قاهر الظلام بأمرٍ مني ولا آلام ..

أمرتك بعهدي معك وبقدرتي على حرق من يعصيني ..

....

..................................»(*) .

(*) لم يتم ذكر أول التعويذة وجزء كبير في نهايتها لخطورة استخدامها، ولا ننصح بقراءة أية تعاويذ ولو على سبيل التجربة، فكم من مجرب فارق الحياة بشكل دموي.

Scanned by CamScanner

لحظات ويتحقق له حلم العمر، طالت سنوات انتظاره، حصل على ألف وعد بأن يتحقق له ما يريد في هذه الساعة، سعادته تكفي أهل نزلة شرموخ لمدة ألف عام، لِمَ لا وقد قرر هو ومعاونوه بذل كل ما يملكون من قوة وسحر أسود كي يخترقوا أحد أبواب السماء السبعة وبعدها يتحقق ما عجزت عنه البشرية منذ هبوط آدم إلى الأرض وحتى اليوم، لقد حاول خَدَمُه أمس ولكنهم فشلوا فحصل على الوعد بتحقيقه اليوم.

يرهف السمع. ينتظر إجابة أو أي علامة تدل على وصول «خلاباش» زعيم أحد قبائل الجن لبدء تنفيذ الاتفاق.. فجأة تهتز الأرض. ينتفض الكرسي الذي يجلس عليه، ليس زلزالًا أصاب الكون. الغرفة ثابتة بجدرانها السوداء. فقط كرسيه ينتفض بشدة، تتملكه الدهشة. أتلك مقدمة تسبق وصول «خلاباش»؟! لكن أحدًا لم يخبره بذلك. يفقد القدرة على التفكير وجسده يعلو في الهواء حتى يصطدم بسقف الغرفة ثم يسقط بعنف فوق مقعده وكأنه مُلقى من فوق ناطحة سحاب، تتكسر عظامه وتهترئ أسنانه. تتفجر الدماء في أكثر من مكان من جسده، يحتويه رعب لم يتخيله يومًا، كان يشاهد، وقد عجز لسانه عن الحركة، ألف جني يمزقون جسده، يعذبونه بكل ما أوتوا من قوة، على وجوههم أمارات حزن وفزع لم يشهدها من قبل،

Scanned by CamScanner

تمنى لو يستطيع النطق ليسألهم عن خبرهم. لماذا يفعلون به ذلك وقد أفنى عمره في طاعتهم، يحاول أن يجذب كتابًا مُلقًى بالقرب من يمينه. فإن وضع يده عليه ونطق بتعويذة الحماية لدفَعَهم بعيدًا عنه، فجأة يحترق الكتاب في مكانه حتى لا يبقى منه غير ذرات سوداء، باقي كتبه على رفٍّ بجانب الغرفة لا تصل إليها يداه، ينتفض أكثر وصراخه يشقُّ فضاء الكون، يلقي جسده فجأة ليتنزعه من بين أيديهم. يسقط بوجهه فوق طست الماء الموجود أمام الكرسي الضخم، طست كان يستخدمه في أعمال سحره الأسود، ينكب بوجهه في قلب الماء، لا يستطيع حتى أن يلتفت يمنة أو يسرة، يتخلل الماء أنفه محل الهواء. دقيقتان. تخمد حركته وتتلاشى علامات الحياة. مات غريقًا. ولا يعلم ماذا حدث.

(٢)

بعد ثلاثين عامًا

الثالثة فجرًا. اليوم الأول من سبتمبر عام (.......)

(مدينة السادس من أكتوبر. الجيزة)

«چو»

يستيقظ جمال مصطفى الجندي الشهير بـ «چو» فجأة وقد احمرت عيناه وارتعشت يداه، يتنفس بصعوبة شديدة، الدماء تتحرك في عروقه مثل أشواك تدميها، يجف حلقه، تتسارع أنفاسه، يحاول أن يرفع يديه ليتحسس صدره الذي يشعر فيه بضيقٍ شديد إلا أنه يفزع حينما يجد صعوبة بالغة في تحريك يديه، ينظر مذهولًا إلى يديه، كيف لا يستطيع تحريكهما؟! يشعر بألم مُضاعَفٍ وكأن سلاسل ضخمة تُسلسِل يديه، يتألم. يصرخ من هول الألم لكن صوته لا يغادر صدره، تُطبع على ملامحه علامات رعب حقيقية.

Scanned by CamScanner

لا يستطيع تحريك يديه وكأنهما مشلولتان، والآن صوته محبوس بداخله ولا يستطيع الصراخ؟! ماذا يحدث؟ هل هذه هي اللحظات التي تسبق الموت؟! لا يعلم. لم يترك لنا مَن فارقوا الحياة شرحًا لما عاشوه في اللحظات الأخيرة التي تسبق انتقالهم إلى العالم الآخر.

يتماسك لحظة واحدة، يُدرِكُ أن له عقلًا يجب أن يفكر به، شيء مريب يحدث، تلك أفعال شيطانية، كثيرًا ما قرأ عن تفاصيل مشابهة، لن يمتلك القدرة على مواجهة شياطين تمكنت منه في هذا الوقت من الليل، ولم يكن يمتلك - من الأصل - قدرة للمواجهة في أي وقت مضى، قبل أن يسقط في بئر الاستسلام يتوجه عقله إلى ملاذ العاجز، إلى الدعاء، في وعيه لم يكن ليفعل ذلك، تفكيره المتمرد ينأى به عنه الاستسلام مهما تكن قسوة التفاصيل، الآن يُردِّد في عقله بعض الأدعية. لم يكن يحفظ دعاء مُحدَّدًا، أي كلمات تأتي على خاطره.

بالتدريج يتحرك لسانه الثقيل بكلمات يتقرب بها إلى الله. تخفُّ القيود حول يديه، يبدأ بتحريكهما شاعرًا بآلام رهيبة، يُشعل المصباح المجاور له، يبحث عن لعابه يروى به جفاف حلقه، لا يجد. تمتد يده لتأتي بكوب الماء، لكنها تتوقف معلقة في منتصف الطريق، فقد وقعت عيناه على صورته في المرآة المواجهة، في هذه المرة يصرخ. يخرج صوته ليشق صمت الليل.

Scanned by CamScanner

لم يشاهد «جو» صورته في المرآة. بل شاهد جسد بشع الخلقة، أعين دموية، نتوءات جلدية مثل قطع حجرية صغيرة سوداء اللون، بقع حمراء تنتشر على رأسه، شعره مبعثر في عدة اتجاهات، مغطى بأتربة مثل جسد عظمي عليه بقايا لحمٍ مهترئ خارجٍ من مقبرة.

يتردد صدى صراخه في أرجاء الغرفة، يرتد إلى الخلف فَزِعًا، الجسد الذي يشاهده في المرآة يتحرك مثله تمامًا، وكأنه هو. يرتد إلى الخلف مثله. يرفع يديه ليخبئ وجهه مثله، يصرخ مثله. يصرخ أكثر. فتصرخ المرآة أكثر.

– جمال.. جمال. بسم الله .. بسم الله.. جمال .. استيقظ يا حبيبي..

تهزه بهدوء كي توقظه. في اللحظة التي يفتح فيها عينيه تمدُّ أمه يدها كي تُشعل المصباح المجاور لسريره. لا يفيق، ما تزال علامات الرعب مطبوعة على ملامحه وهو يتأمل والدته والمكان من حوله، دهشته تتزايد، للمرة الأولى في حياته يمر بما مر به الآن، ماذا يطلق عليه؟ ليس حلمًا. وليس كابوسًا كما يقال. لقد كان يعيش أحداثًا حقيقية، لكن كيف وها هو الآن فوق سريره وأمه بجواره تناوله كوب ماء، تمسح على رأسه بيدٍ حانية؟!

يتذكر المرآة فجأة. ينظر إليها. يشاهد انعكاس صورته وجزء من أمه التي تجلس بجواره، كل شيء طبيعي. ماذا حدث؟

– لا أعلم.

Scanned by CamScanner

العلامات على وجهه كانت أكثر ألف مرة من تلك الكلمات المقتضبة التي تحدث بها إلى والدته، لم يمتلك القدرة على ذكر ما شاهده، كيف يذكره مرة أخرى. حتى هذه اللحظة لم يكن قد تحرك من مكانه، يتذكر يديه الثقيلتين، يحاول تحريكهما كي يتأكد أنه لم يُصَب بالشلل كما كان منذ لحظات، يحركهما. لكنه يتألم. يتألم بشدة. ينظر ناحية أمه مفزوعًا. يداه تؤلمانه إلى حد رهيب.

ضحكة رهيبة تتردد في المكان، الصوت يأتي عبر المرآة .. ضحكة هيستيرية صاخبة ساخرة. يرتعد «آو» وهو يتشبث بذراعي أمه التي تحتضنه وقد ظهرت علامات الفزع على وجهها، لم تكن تعلم ماذا يحدث. لا تسمع أو تشاهد أي شيء. إنما كان فزعها مما تشاهده من علامات وآلام على ابنها جمال.

تتزايد الضحكات. صوت مثل فحيح الأفاعي ينتشر في الغرفة، تتزايد كثافته حول أذني «چو» فيمسك بجانبي أمه بشدة ليغوص في صدرها. فجأة يشعر بيدين ضخمتين تمسكان به من جانبيه، مفزوعًا يدفع الأيدي الخفية بيد بينما يُمسك أكثر بأمه بيده الأخرى، يرتفع صراخه أكثر وأكثر. تنهار الأم باكية وهي تضمُّه ولا تعلم ماذا يحدث لابنها ولا ماذا تفعل. وكأنها أُصيبت بشلل هي أيضًا!

Scanned by CamScanner

في اللحظة التالية يهدأ «جو» تمامًا، تتراخى قبضته الممسكة بثوب أمه، يخف ضغط رأسه على صدرها، تهدأ الأم لحظة واحدة تشعر فيها بأن ابنها قد استفاق أخيرًا من هذا الكابوس اللعين، تعود بجذعها إلى الخلف لتواجهه. لكنها تفزع. تنطلق منها صرخة تفوق صرخة ابنها التي أطلقها منذ لحظات.

تشاهد رأس ابنها يسقط على كتفه كمن فارق الحياة، قبل أن تفيق من فزع لحظتها، تشاهد دماء تسيل من عينيه كالدموع ودماء سوداء تسيل من أنفه. تصرخ أكثر وأكثر وقد هربت الدماء من وجهها الذي أصبح يحاكي الموتى.

«جمال مصطفى الجندي»

«جو» .. ، شاب في الثانية والعشرين من عمره، تعثُّره في الدراسة الجامعية جعله ما يزال في السنة الثانية بكلية التجارة، من أهم أسباب هذا التأخر في الدراسة اهتماماته الخاصة بمظهره بشكل يفوق الطبيعي، اهتمامه بعلاقاته الغرامية، أو هكذا يسميها، يستغل وسامته المميزة ببشرته البيضاء و شعره الأسود الفاحم يطلق له العنان، يربطه من الخلف، سلسلة فضية حول رقبته مع عدة أساور مختلفة الأشكال والتصاميم حول معصميه، أغلبها من الجلد الطبيعي، في أيام كثيرة يرتدي Scarve الذي يميزه، يمتلك منه الكثير، يرتدي ما يتناسب مع لون ثيابه.

Scanned by CamScanner

جسده المتناسق مع وسامته سبب حقيقيّ في انجذاب الكثير من الفتيات نحوه، بالإضافة إلى أن «چو» يمتلك رأيًا خاصًّا بل فلسفة خاصة جعلته صاحب شخصية مستقلة كشخصية قائد ينطلق خلفه قطيع ممن يظنون أن وجودهم إلى جواره أصدقاء وليسوا تابعين. جمال دائم التمرد والرفض. يشاهد ما يشاهده الآخرون ولكن من زاوية أخرى مغايرة تمامًا لما يتقبله العقل، كلمات الرفض تجري على لسانه بشكل مستمر مع بدايات الجمل. حتى إن وافق رأي أحد من الأصدقاء فإنه يبدأ موافقته بكلمات رفض ثم يتحول تدريجيًا إلى الموافقة، لكنه سيتغير خلال الأيام التالية، الصمت والشرود سيكونان أهم سماته، عقله يكاد يتوقف عن التفكير بسبب ما يمر به الآن ومستقبلًا، لا يجد تفسيرًا مناسبًا وتعجز قدراته الكلامية عن تفنيد أي حديث مناسب فيؤثر الصمت.

ترك والده مصطفى الجندي هذه الڤيلا التي بناها منذ فترة طويلة، بالتحديد في بداية الاتجاه العمراني للخروج من العاصمة إلى المدن الجديدة، حينها يختار قطعة أرض على أطراف مدينة السادس من أكتوبر ليشيد عليها هذه الڤيلا. يحصل على قطعة الأرض التي تزيد على الألف متر بسعر زهيد لكن تكلفة البناء تمتص معظم ثروته، هذه الڤيلا الآن تعادل ثروة طائلة إن قرر «چو» بيعها.

Scanned by CamScanner

نعم. «چو» هو صاحبها الحقيقي بعدما كتبها والده باسمه قبل وفاته بأيام قليلة، ولوفاة مصطفى الجندي والد «چو» تفاصيل غريبة لم يُكشف النقاب عنها حتى اللحظة، لكنهم عثروا على جثته ممزقة إلى قطع وملقاة في شوارع أكتوبر مقابرها التي لا تبعد كثيرًا عن مسكنهم.

حينما قررت الجهات المسئولة إقامة المقابر على هذه المساحة من الأرض، وهي أرض قريبة بعض الشيء من ڤيلا مصطفى الجندي، يحاول هو وعدد من أصحاب العقارات المجاورة التصدي لهذا المشروع وإجبار المسئولين على اختيار مكان بعيد عن منطقتهم، لكنهم يفشلون في تحقيق ذلك لأن الأمر ببساطة كان قد دخل حيز التنفيذ ولن يستطيع أحد اتخاذ خطوة كبيرة لاختيار قطعة أرض أخرى بدون مقابل، كان ذلك ليحدث إن تم دَفْع رشوة كبرى لأصحاب اتخاذ مثل هذا القرار.

كانت الخطوة التالية التي قام بها مصطفى الجندي وجيرانه هي محاولة تعطيل العمل في الموقع، يتخذ مصطفى الجندي عدة خطوات لم يفصح عنها لأي مخلوق حتى زوجته. النتيجة بعد مُضي عدة أسابيع أن يُعثَر على جثته ممزقة بهذا الشكل في شوارع المقابر.

Scanned by CamScanner

قبل ما يقارب الساعة وبالتحديد في اللحظة التي يغيب فيها «جمال» عن الوعي ويسقط رأسه على كتفه، تفقد الأم القدرة على الحركة والتفكير، لكنها تتماسك وهي تُقرب يدها، شاعرة برعب حقيقي، من أنف ابنها كي تتأكد من أنه يتنفس، يهدأ داخلها بعض الشيء وهي تشعر بأنفاسه تمس كفَّها، ما يزال على قيد الحياة، تحاول إفاقته مستخدمة الماء تمسح به على وجهه، عدد من العطور التي تنتشر في غرفته، لكنه لا يفيق، يتزايد خوفها، ينقبض قلبها بشدة وهي لا تدري ماذا تفعل، أخيرًا يصل بها عقلها إلى المبنى المجاور، الدكتور عزيز مرقص.

تُهرول بملابسها المنزلية تضمُّها على صدرها المكشوف، شعرها يتناثر في الهواء مع كل خطوة ثم يعود، تشعر بألم في قدميها من أثر قطع حجرية صغيرة تكاد تخترق الـSlipper الخفيف في قدميها، هو لم يُصمم للسير به في الشارع إنما لانتعاله داخل البيت فقط.

الظلام يغمر المكان، رياح خفيفة تُحرِّك أغصان الأشجار، من عمق المكان يأتي صوت بومه يشق الصمت مُضْفِيًا رعبًا أكثر يتخلل قلب تلك السيدة التي تجري بحثًا عمن ينقذ وحيدها، تشعر بأن روحها تغادر جسدها كلما تخيلت بأن «جمال» يتعرض لانتكاسة لا تعرف كنهها وبسببها قد يحدث

Scanned by CamScanner

له المكروه الأكبر، الوفاة. ذلك الذي اختطف منها كل عزيز لديها وتركها تائهة في خضم بحر الحياة الثائر باستمرار.

بيد تهرس زر الجرس والأخرى تدق الباب، كانت في حالة هيستيرية، لا تشعر بأي شيء ولا هدف أمامها غير إنقاذ ابنها. الصمت الرهيب يشمل المكان، الليل لم يصل إلى نهايته بعد، ما زال نعيق البوم يتردد صداه، يصحو الدكتور عزيز مفزوعًا على صوت جرس الباب والدقات التي تكاد تُحطِّمه. أكثر من مرة يستدعيه أحدٌ ليلًا بسبب حالة مرضية طارئة، لكن أحدًا لم يستدعِه بهذا الشكل المفزع من قبل.

يعتدل الرجل الذي تخطَّى عامه الخامس والستين منذ أيام، يُشعل الأباجورة بجانبه، يرتدي النظارة الطبية، يتطلع إلى مؤشر المنبه العتيق بجواره ليجد الساعة الرابعة فجرًا. يعدل من بيجامته التي دارت حول جسده بسبب تقلبه في فراشه حتى لاصقت أزرارها جانبه الأيسر، فَزَعُه أطلق ساترًا على آلام جسده، خاصة مفاصل الركبة اليمنى. يمسح بيده على وجهه وكأنه يستدعي تركيزه ويقظته، يحك أرنبة أنفه بعنف كي تأتي بالنشاط دفعة واحدة.

Scanned by CamScanner

لم يلحظ أن زوجته بجواره تقوم بنفس الحركات تقريبًا، يرتدي الروب الصوف رمادي اللون المخطط بخطوط طولية بيضاء، يبحث عن الشبشب فلا يجد غير فردة واحدة، يتزايد الطَّرق على الباب فيتزايد توتره، ينظر غاضبًا في اتجاه الباب، يود لو يلوم الطارق على تعجله، ينحني باحثًا عن فردة الشبشب الأخرى تحت السرير، يلمحها سوداء تقبع على مسافة متر، يتذكر أنها علقت بقدمه لحظة خلعها قبل نومه فنفضها بشدة لتستقر هناك، ارتكازه على ركبته جعله يتألم فيتزايد غضبه، يبحث عن شيء يجذب به فردة الشبشب، يجد زجاجة ماء بلاستيكية، يمسكها من عنقها ويمد يده على طولها محاولًا جذبها، قاعدة الزجاجة ملساء تنزلق بسهولة ولا تُحركها، تأملته زوجته من الناحية الأخرى من السرير، وكانت قد أفاقت تمامًا، تنحني لتشاهد ماذا يفعل زوجها أسفل السرير، تشاهد محاولاته المستميتة للحصول على فردة الشبشب، تمط شفتيها متعجبة مما يفعل .. إن كانت فردة حذائه بعيدة عنه من مكانه كان عليه أن ينتقل إلى الناحية الأخرى من السرير ليمد يده ويحصل عليها بسهولة!

يئنُّ جرس الباب ويخفت صوته مثل عصفور يموت قبل أن يصمت تمامًا، يعم الصمت لحظة ثم يرتفع صوت الطَّرق على الباب، يزفر الدكتور

Scanned by CamScanner

عزيز بشدة وهو ينظر ناحية الباب، لقد أدرك أن جرس الباب قد احترق لتوه، تخرجه من تركيزه فيما حدث لجرس الباب زوجته وهي تدفع له فردة الشبشب من مكانها، يتعجب من فعلتها ويتساءل في نفسه، ألم يكن أحرى بها أن تحملها له بدلًا من دفعها أسفل السرير في اتجاه وجهه بهذا الشكل؟! عمومًا سوف يناقش معها هذا الأمر في وقت لاحق، الآن عليه الخروج لهذا المجنون الذي أحرق الجرس ويكاد يفتك بالباب، إنه باب مصنوع من خشب الزان المُحلَّى بعدد من الأيقونات الخشبية التي صُنعت خصيصى كهدية من أسطى دمياطي شهير يدعى سعد الزين، والزين صفة ألحقت باسمه من أعمال الزينة التي يبرع فيها.

بمشاعر متضاربة يُسرع الدكتور عزيز ناحية الباب، يتحتم عليه الاستجابة لكل طارق مهما تكن ظروفه، قسم شرف يحافظ عليه كونه طبيبًا منذ أن قرر أن يعمل في هذه المهنة الإنسانية التي تسهم في إنقاذ روح قد تغادر بلا عودة لو تأخر عليها. كم كانت سعادته حينما يأتيه المريض يحاكي الموتى وبعد فترة العلاج تعود له الحياة ويستقيم جسده وتكسو وجهه ابتسامة عريضة، لكنه في الوقت نفسه لم ينسَ ذلك القدر العظيم من الأرباح الناتجة عن إتقانه لعمله ومن ثم شهرته، تلك مشاعر تختلط برغبة حقيقية في تعنيف

Scanned by CamScanner

ذلك الطارق الذي أخرج كل غضبه على جرس مسكين بصوت عصفور يئنُّ قبل أن يختفي ثم ينتقل إلى بابه.

تلحق به زوجته، السيدة «ماجدة فؤاد». تتأخر عنه قليلًا بسبب جسدها الممتلئ، تصغره بثلاث سنوات لكنها تفوقه في الوزن بما يعادل الضعف، تعلم جيدًا أنه سوف يغضب مما يحدث، هو عاشق للهدوء ويتحرك طوال حياته مثل آلة بطيئة ولو تكرر الموقف ألف مرة لكان له نفس رد الفعل ألف مرة أيضًا. تعلم مدى امتعاضه من أجواء التوتر التي يخلقها البعض فهذا يزيد الأمور تعقيدًا وسوءًا، عمله حساس يرتبط بـ «الإنسان». حياة أو موت. أي توتر قد يخلق أخطاء ينتج عنها ضياع حياة «إنسان». بهذا يتحدث إليها الدكتور عزيز أكثر من مرة، كان يضغط على الحروف عند نطقه لكلمة إنسان وكأنها يضعها في برواز خاص بها.

تمر ساعة. يفيق «چو»..

يتأمل مَن حوله. والدته وقد أرهقها البكاء، تغضَّنت جفونها وظهرت على ملامحها علامات السنين التي كثيرًا ما قهرتها بجمالها الملحوظ والذي يشهد به الجميع. إلى جوارها يقف الطبيب عزيز مرقص، صاحب البناية المجاورة والتي حولها من ڤيلا إلى عمارة سكنية يبيع بعض وحداتها السكنية

Scanned by CamScanner

ويؤجر البعض الآخر، يجني من خلف ذلك ثروة. إلى جواره زوجته البدينة السيدة ماجدة فؤاد.

تنتشر في الغرفة رائحة مثل تلك التي تنتشر في المستشفيات، رائحة لصيقة بالأطباء وكأنها عطرهم الخاص، يتنفس بصعوبة وكأن الليل الذي لا يودُّ الرحيل قد أطبق على صدره، يلحظ نظرات أمه نحوه، تحمل معاني رعب وشفقة ممزوجة بسعادة بسبب يقظته، يغوص في عينيها كي يُحصي خوفها عليه ومدى محبتها له، يعلم أنه لن يُدرك إلا القليل، غريبة عاطفة الأمومة تلك! ولكنها سلسلة ممتدة بامتداد البشرية، ما نحصده نحن أبناء اليوم نقدمه غدًا آباءً.

يحاول «جمال» الحركة بشكل عفوي وكأنه يرفض تلك الحالة التي وصل إليها، لماذا يتجمعون بهذا الشكل وكأنهم في حضرة مريض لن يُشفى؟! يجد أنبوبًا مثبتًا بذراعه والطرف الآخر يتدلى من زجاجة بها محلول، بكلمات قليلة تخبره أمه بما حدث حتى قام الدكتور عزيز بتعليق هذا المحلول وخلط به العديد من أصناف الأدوية.

تأتي السيدة ماجدة بمقعد من جانب الغرفة إلى زوجها الدكتور عزيز، تطلب منه أن يجلس، ثم تُجيب عن سؤال لم يسأله أحد، الدكتور مريض

Scanned by CamScanner

بخشونة الركبة. تخفي رغبة حقيقية في الحصول على مقعد آخر لها وإن فضحتها عينها الباحثة في الغرفة، لكن أحدًا لم يهتم.

يجلس الدكتور عزيز بهدوء بعدما يشكر زوجته ويبتسم لها بعرفان، ولكنه لم ينس موقفها لحظة دفعها الشبشب أسفل السرير. يمط شفتيه علامة عدم القدرة على التركيز كي يُصنف الحالة التي ألَمَّت بـ «جو». بعد فترة صمت يتحدث بكلمات هادئة ليصف حالة جمال بالضعف العام نتيجة الإهمال وسوء التغذية بالإضافة إلى شراهة جمال المعروفة في السجائر. ثم يُنهي حديثه بأنه يحتاج إلى عدة تحليلات وأشعة كي يستطيع الوصول إلى التشخيص السليم.

يرحل الطبيب وتلحق به زوجته البدينة بعدما تربت على كتفي «جمال» ثم تحتضن والدته وترفع من روحها المعنوية بالجمل المعتادة في مثل هذه المواقف.

لم يقتنع «جمال» بكلمة واحدة مما تحدث به الطبيب، لقد عاش حالة حقيقية لم يمر بمثلها من قبل، شاهد في المرآة كائنًا لا يستطيع تسميته، شاهده بالفعل، سمع صوت ضحكاته المرعبة، شعر بأثر ضغط يديه الضخمتين على معصميه وجانبي جسده، حتى إنه ما يزال يتألم بشدة.

Scanned by CamScanner

يعم صمت مُغلَّف بتوتر وحزن، زالت خشية الانهيار وسقوط جمال وعادت حالة الرعب مما كان، الأزمات تتنافس مع بعضها البعض كي تطفو على سطح الحياة، المنتصر منها يسيطر حتى تخفت حدته فيتوارى ويطفو آخر. توارى القلق ويطفو على السطح تلك الصور المرعبة التي شاهدها.

«إلهام فضل حلمي»

سيدة في الخامسة و الأربعين، شعرها الذهبي المائل إلى السُّمرة يصل حتى أعلى كتفيها «كاريه »، قسمات وجهها متناسقة وعيناها واسعتان سوداوان لامعتان في جاذبية، لهما سحر خاص، أنف دقيق من أعلى يهبط بشكل انسيابي يتسع قليلًا قبل أن يرتاح على شفتين رائعتين، حتى بشرتها كانت مثل مخمليات الزهر تودُّ لو تمرر عليها أصابعك برفق فتستشعر الروعة بداخلك، صدر يحتفظ بتفاصيل البكارة رغم مرور السنين، باختصار هي سيدة تمتلك جمال الملامح و الجسد مع أنوثة طاغية في هذه المرحلة من حياتها، رغم تلك الصعوبات الرهيبة التي مرت بها في السنوات الماضية، لكنها لم تسقط فريسة الهموم، لقد استغلت الظروف في الماضي كي تعبر أزمتها ثم زاد طموحها و رَغِبَت في الحصول على مكاسب كبرى .. وحتى وقت قريب كانت على يقين من نجاتها ونجاحها. لكنها في الأيام القادمة سوف تكتشف أن هناك الكثير ما تزال تجهله.

Scanned by CamScanner

السيدة «إلهام حلمي» صامتة وهي تلقي جسدها فوق المقعد القريب من السرير، غير مقتنعة بما قاله الطبيب لكنها لا تمتلك أي قدرة على الاعتراض، بل تبحث عن أي أمل تتعلق به، الأسباب التي ذكرها الطبيب موجودة باستمرار ثم إنها تؤدي إلى أعراض جسدية، أما ما شاهدتَه من فزع، صراخ، رعب حقيقي ودماء تسيل لا يتفق مع رأي الدكتور عزيز، ولا مع إيماءات زوجته المؤيدة له.

تقترب لتربت على صدر جمال الذي اعتدل فوق سريره بقدر المستطاع، يُمسك بيديها في هدوء كي يطمئنها، يخبرها بما يشعر به وأنه شاهد أشياء مرعبة، وأن ما ذكره الدكتور عزيز لا صحة له، توافقه بإيماءة من رأسها وهي تقف لتخرج من الغرفة.

تُعِدُّ كوب لبن دافئ وتُحليه بعسل النحل، تظهر من باب الغرفة وعلى وجهها ابتسامة حانية ترنو بها نحو ابنها محاولة أن تنتقل به إلى منطقة أخرى غير تلك التي يرتكز عندها تفكيره والتي من المؤكد تنشر بداخله هذا الكم الرهيب من الفزع، تناوله اللبن ثم تجلس بجواره. تضمُّه إلى صدرها، تمسح بيدها على رأسه وقد تعلقت عينيها بالسائل الذي يتسلل من الزجاجة إلى ولدها عبر الوريد.

Scanned by CamScanner

(٢)

الثالثة فجرًا ..

الإسكندرية

كَرمة

يتلمَّس صدرها براحتيه، يحركهما بهدوء، يثير بداخلها رغبة خفيفة، تتهادى مثل جواد قبل مارثون، لكنه ما يلبث أن يضغط نهديها براحتيه بعنف حتى تنتفض برعشة ملتذة قبل أن تستقر مكانها. تتمدد فوق سريرها، تتمنى لو تضمه بقوة لا حد لها، لكنها وأمام خدرها اللذيذ تحت تأثير مداعبته الحانية كانت تنتظر. تود لو يُكثر من مداعباته. كل جزء في جسدها يتمنى لو يحظى بمتعته الخاصة، لقاء منفرد مع كل جزء ولو طال اللقاء لأيام، لا يجب أبدًا أن يتلقى جسدها كله تلك الروعة مرة واحدة، لا بد من لقاء يخصُّ

Scanned by CamScanner

شفتيها. يطرحان غرام العمر عبر القبلات. يُبدعان فيها. كل أشكال وألوان وآهات القبلات. يقبلها ألف قبلة. ثم تبدأ هي في تقبيله ألف قبلة. يتنافسان لمن تكون الألف الأفضل. ينتهيان وقد صنعا من قبلاتهما أسطورة عشق تخص الشفاه يتعلم منها العشاق. لقاء تالٍ يخص صدرها. لقاء جديد مع جوهرتها الوردية. و..

تعود أجزاء جسدها إلى أماكنها الطبيعية، تسترخي جفونها بهدوء، يتحرك لسانها ببطء على شفتيها ليثني على روعتها، تبتسم شفاهما بحب، تهمسان: أنت الأروع أيها اللسان، كم تملك من الأحاسيس تعبر عنها عبر اللمس واللعق، أحاسيس تعجز عن ترجمتها بالكلمات. تتحس صدرها العاري، المضغوط أسفلها، نافران قويان مثل ثمرتي تفاح بِكر، تلقى بيديها إلى جوارها، تهبط إلى لحظتها الآنية. تظهر على ملامحها راحة لا نهائية.

تشاهده يُلقي جسده إلى جوارها، تتعجب. لِمَ لم ينتهِ بداخلها؟ لِمَ يفعل كل شيء إلا اللحظة الأخيرة، تعتصر فيها نفسها وهيُ تضم على لا شيء!

يبتسم. يعلم ما تفكر فيه لكنه لا يمتلك إجابة. تلك قدراته. هذا منتهى حدوده، يتبادلان الحوار عبر الأفكار. بلا كلمات. تسأله:

– لماذا؟ لماذا تلك حدودك؟ لماذا تأتيني في نومي فقط؟ لماذا لا أراك في يقظتي؟ مَن أنت؟

Scanned by CamScanner

– في كل مرة تسألينني نفس الأسئلة؟

– وفي كل مرة تذهب قبل أن تُجيب. لكني لن أدعك اليوم تذهب قبل أن تجيبني. لا بد أن أعلم حقيقة ما أعيشه معك. أهو حلم أم حقيقة؟

يصمت لحظات. يعتدل ليرحل. تستوقفه بدلال. تشعر بجسدها خفيف مثل ريشة:

– من أجل خاطري. لا ترحل قبل أن أعلم الحقيقة.

يلتفت نحوها قائلًا من قلب حيرته:

– أخشى أن تكون الحقيقة صادمة لكِ.

– بعد كل هذه السعادة تكون الحقيقة صادمة؟! مستحيل. لقد شربتُ من راحتيك ألذ كؤوس العشق، ألهبتَ ذاتي وأخرجتَ من جسدي كنوزه الخفية التي لم أكن أعلم عنها شيئًا، على يديك تعلمت تفاصيل الروعة، فكيف تكون الحقيقة صادمة؟! كيف؟!

يعلم منذ زمن أن المواجهة آتية لا ريب، التعود على التفاصيل يقلل من حِدَّتها وإن كانت غير طبيعية. يقلل أثر وقعها لدى صاحبها، يتوقع أن تَلقى تلك التفاصيل نفس القبول لدى الآخر كما لقيت عنده، كَرمة تحبه. تعشقه. تبادله الغرام كل يوم.

Scanned by CamScanner

الآن يواجهها وقد أصرت على معرفة الحقيقة. كم هي قاسية الأنثى بفضولها القاتل! يتخذ قراره بمصارحتها، سوف يخبرها الآن بحقيقته التي يعتز بها، لم يكن يرفض إظهارها لها رغبة منه في إخفاء أمره، لكن شفقة بها، أما وهي الآن تطلب ذلك ولديها تساؤل لا مهرب منه، لماذا يحتويها بكل هذا العشق ثم يتركها تضم لا شيء؟

لن يخبرها بالكلمات. فقط سوف يقول «هذا أنا» ثم يعود إلى سيرته الأصلية، يخلع تلك الصورة الزائفة التي يأتيها بها كلما غرقت في نومها.

يزم شفتيه، يحسسها بهدوء، راحته تحتوي جسدها كله. يقول:

- هذا. أنا.

تختفي الصورة التي تراها منذ أن بدأ العشق، جسد ناري. جلد وكأنه طبقات صخرية حمراء دامية، مغطى بشعر أسود طويل مثل أسلاك شائكة، عيناه واسعتان وكأنهما فوهتا بركان يقذف بحممه الدموية، راحتاه كخفِّ الإبل لكن أصابعه تنتهي بأظفار مثل مخالب صقر، تتحرك شفتاه لتكشف عن فم هو أقرب إلى بئر سحيقة مظلمة، لسانه مثل لسان أفعى يخرج من بين أسنانه الحادة المدببة.

Scanned by CamScanner

ترتد إلى الخلف مفزوعة تفيق من نشوتها دفعة واحدة، تشهق. تجلس في مكانها قبل أن تسقط من فوق حافة سريرها، تتأمله غير مصدقة ما تراه، تصرخ لكن صراخها لا يخرج، يعتدل في جلسته أمامها وعلى ملامحه بدايات الغضب، جسده هائل يحجب المكان، هي بجواره صغيرة مثل دمية.

- مَن أنت؟

تخرج حروف كلماتها مبعثرة، يتلقاها بهدوء لا يتناسب مع هيئته على الإطلاق يقول بلا كلمات وهو يمد يديه ليزيح خصلات شعرها عن وجهها:

- أنا مَن أحببتكِ يا كرمة منذ أن كنتِ طفلة. لقد ربيتُكِ على يدي. أنتِ مِلْكٌ لي.

مفزوعة تصرخ:

- مَن أنت؟

صاغرًا يجيبها:

- أنا سَعدى..

تأتيها الكلمات مثل خناجر مسمومة. مثل آلات حادة تدق كل جزء من جسدها، إنه جني، يأتيها كل مساء في نومها كي يلهو معها بهذا الشكل،

Scanned by CamScanner

كانت تفيق من نومها كل يوم منتشية، أحلامها سعيدة منذ أن وصلت سن البلوغ، لم تمضِ ليلة واحدة بدون تلك الأحلام، لم تتحدث إلى أحد عما تعيشه في أحلامها، لم تنبئها أمها ذات يوم تفاصيل حياتها الجديدة بعد البلوغ، لم ترشدها، إنما نظرات صارمة وعبارات بأن تحافظ على ما بين فخذيها، تطيعها بخجل، تهرب من أمامها وتتركها غارقة في ضحكتها.

ترتمي فوق سريرها هاربة إلى أحلامها التي حَسِبتها أمرًا طبيعيًا يرافق كل من يصل سن البلوغ، لم يحدثها أحد عن تفاصيل مماثلة، كما لم تتحدث هي إلى أحد، فتلك أسرار خاصة .. الآن تكتشف حقيقته .. تصرخ .. يحاول تهدئتها لكنها تبتعد أكثر و أكثر حتى تلتصق بالحائط .. تغوص بداخله .. رغم جسده الرهيب ونظراته النارية، يقف مستكينًا مثل طفل مُذنِب، لم يتوقع أن تثور إلى هذه الدرجة، يلوم نفسه على مصارحتها، كان عليه أن يتركها ويرحل كما يفعل باستمرار، لماذا أذعن لرغبتها اليوم؟! ينفض رأسه فيهتز المكان من حولها، تضم صدرها بذراعيها، بعد صراع رهيب تتماسك وتلقى كلماتها التي تصعقه مكانه:

- لا أريدُك يا هذا

يقف في حالة ذهول .. هو موكل بمتابعة والدها «سعيد الجندي» منذ أعوام مضت حتى يأتيه الأمر ويفتك به .. وُلدت كرمة أمام عينيه ..

Scanned by CamScanner

ترعرعت وتفتحت زهراتها حتى أسرته .. غابت تفاصيل مهمته في أعماق الزمن ولا يشعر إلا بعشق كرمة ..

ينتفض أكثر وأكثر .. ترتعش يداه ويزمجر كحيوان مفترس، لا يشعر بنفسه وصورته تتغير إلى أكثر من شكل .. أسد ضخم الجثة له أنياب بيضاء وفم يحتويها مرة واحدة .. ثعبان رأسه فوق السرير وذيله بجوار الباب يفتح فمه هاجمًا عليها بشراسة مع فحيح يصم الأذن .. ترتدُّ إلى الخلف أكثر مفزوعة وقد علا صراخها حتى شَقَّ الأفق، في اللحظة الأخيرة قبل أن يقبض فمه الثعباني عليها يلتفت ليضغط أي شيء آخر ليهشمه، يتناثر زجاج التسريحة في كل مكان محدثًا ضجةً رهيبة، يعتصر ذاته، لم يجد بداخله الجرأة .. يرتجف .. تنهمر دموعه مثل فيض دموي .. لا يجد ما يفعله، يتذكر صورته الإنسية التي يظهر عليها، يتحول إلى تلك الصورة في لحظة واحدة، يحاول الابتسام، يفتح ذراعيه لترتمي في أحضانه، يقول:

– أنتِ لي .. ولن أتنازل عنكِ.

تتأمله غير مصدقة، لقد خُدعت .. بل سُرقت .. تدفع شبحه الذي يقترب منها، تصرخ .. وتصرخ وهي تخفي عينيها براحتيها، تشعر بجفاف رهيب في حلقها، تضغط رقبتها كي تدفعها لمواصلة الصراخ، تتمنى لو ينقذها

Scanned by CamScanner

أحد، تصرخ منادية أختها هايدي .. تناديها بانكسار وضعف .. لا تجيبها .. تصمت كرمة .. يتراجع ذلك الكائن قليلًا ..

يتحرك لسانها بانكسار أكثر باسم شخص آخر .. اسم لم تسمعه من قبل.. «جمال».. جماااال.. تندهش كرمة مما يتحرك به لسانها، تتألم .. تنتفض مكانها وهي تدبُّ الأرض بقدميها عدة مرات...

فجأة ..

تجلس «كرمة» لاهثة لتجد نفسها فوق سريرها في غرفتها و قد أشرقت شمس الصباح وألقت ببعض أشعتها عبر نافذتها، تتأمل الغرفة في ذهول، تشاهد انعكاس صورتها في المرآة .. المرآة سليمة .. تتحسس جسدها .. ليست عارية .. ترتدي بيجامتها الوردية المصنوعة من الحرير الخالص والتي أهداها لها والدها ضمن هدايا كثيرة عاد بها من زيارته الأخيرة للهند.

«كرمة سعيد الجندي»

طالبة الفرقة الثالثة بكلية الصيدلة في جامعة فاروس الخاصة بمدينة الإسكندرية، تلك الفتاة العشرينية التي تتميز بجمال طفولي، مدللة من الجميع، يشاهدها أحد أساتذتها في الجامعة، كما أخبرها ذات يوم، على أنها

Scanned by CamScanner

ملاك يتحرك على الأرض، ولم يخبرها بأنه لولا الحياء لأخذها في أحضانه وتلقف شفتيها في قبلة توازي العمر، لكنه يكبح رغباته، فهي إن لم تكن في عمر ابنته، فهو يدنو من عمر والدها، يتقبلها أخيرًا وعلى مضضٍ على أنها مثل ابنته، تحادثه بكل ما يجيش في صدرها، تبثُّه همومها، مشكلاتها الأسرية، وعلى رأسها علاقتها بأختها هايدي.

كرمة لها طبيعة خاصة أكثر ما يميزها تللك البراءة التي تلازم الأطفال .. هي طفلة إن أردنا الدقة .. لكن شكلًا فقط .. عقلًا هي ناضجة بشكل كامل .. تحمل هموم الكون من حولها .. تأسف لما يحدث من مآسٍ في مختلف البلدان المجاورة أو البعيدة .. تبكي حينما تشاهد ضحايا الحروب الحديثة .. حروب تتم بالوكالة من أجل خلق سوق يستهلك ناتج مصانع الأسلحة، والنتيجة ملايين الأبرياء قتلى وجرحى ومهجرين شتاتًا في الأرض.

صفحات كرمة على وسائل التواصل facebook و twitter و linkedin عبارة عن نافذة صغيرة تنشر عبرها آرائها ورغباتها في خلق حياة فُضلى لكل إنسان مهما كان لونه أو جنسه .. ترتكز أفكارها على أن المساواة بين البشر هي أصل كل الفضائل، تحمل الحب لكل مَن حولها .. لا تحمل في قلبها الصغير غير المحبة .. تنثرها أينما تحل .. لا يلحظ الكثير ممن حولها ما تمثله

Scanned by CamScanner

كرمة بالنسبة لهم .. تمامًا كما لا يدرك الكثير قيمة مَن حوله وحجمه إلا بعد فَقْده .. فهل سيدركون تلك القيمة التي تمثلها كرمة بالنسبة لهم مستقبلًا؟ قد يحدث ذلك .. أو قد يحدث عكس ذلك.

تفيق .. تتحسس ملابسها، تتأمل .. شعرها البني مهوش، دموعها تغرق وجنتيها وقد لوثهما اللون الأسود الناتج من الكحل المخلوط بالدمع، لم تغتسل حال عودتها الليلة السابقة، فقبل خروجها لمرافقة «هايدي» في سهرتها استعملت مكياج السموكي الخفيف، إنه المحبب إلى قلبها، حينما انتهت السهرة وعادت لم تشعر بنفسها إلا وهي تسرع إلى سريرها لتنام وكأنها تتعجل حلمها الليلي، سرها الصغير الذي لم تتحدث به أمام أحد على الإطلاق حتى أستاذها في الجامعة.

في البداية كانت تخجل من حلمها هذا ثم تحوَّل إلى مُتعتها اليومية الخاصة، تصحو من نومها رائقة المزاج، تشعر بحالة من الشبع، تمارس تفاصيل حياتها بشكل هادئ بعيدًا عن أي توترات، لم ولن يعرف أحد سرها الخاص، اليوم فقط تستيقظ مفزوعة، لم يكن حلمًا ورديًا يتكرر من سنوات مع عشيقها المصنوع في خيالها، كانت تعتقد أنه صنيعتها، اليوم تكتشف أنها صنيعته .. أنها أسيرة جني شَبِقٍ، لا تعلم كيف لعقلها أن يتقبل مثل هذا الأمر؟!

Scanned by CamScanner

بعد تفكير وصراع مرير تصل إلى أن ما حدث هو حلم انتهى إلى كابوس، لا يجب أن تفزع إلى هذا الحد، مجرد كابوس انتهى، يبدو أنها أُرهقت بالأمس أكثر من اللازم، تحاول تذكر تفاصيل الأمس .. المحاضرات، التدريب العملي، فترات البريك مع الزملاء لتناول السندوتشات والمشروبات، الأحاديث الجانبية الخجلى تارة والهائجة تارة أخرى .. حتى ينتهي النهار وتنتهي معه طاقتها، تعود إلى المنزل لتجد «هايدي» تستعد للخروج بصحبة مجموعتها التي ترفضها كرمة، حذرتها من صحبتهم أكثر من مرة، لكنها تأبى.

تعلم أنهم، خلاف شرب السجائر والشيشة، يحتسون الخمور. حاولت منعها بكل ما تملك من وسائل، تخشى أن تخبر والدها، سوف يتعامل معها بانفعال وحشي، قد تتغير وتستجيب لمدة يوم أو أسبوع، لكنه سيكون تغيرًا سطحيًا.

أمها تعلم بعض التفاصيل لكنها لا تعلم كل ما يحدث، تخشى عليها من المعرفة، يكفيها ما تعانيه من أمراض بدنية وأسرية.

تستبدل ملابسها، تقرر مرافقتها كي تكون عينًا حارسة، تبرر خروجها معها بأنها تشعر بملل وترغب في التغيير، هايدي تعلم ما بداخلها لكنها تتغاضى، يطول بهم السهر حتى تعود في وقت متأخر لتهرب إلى حلمها اللذيذ.

Scanned by CamScanner

كابوس بشع كان .. عندما يهبط ليل اليوم سوف تعود لنومها وإلى سرها الخاص .. لذتها .. روعتها .. لكن .. في الليالي التالية يعود ذلك الكائن الذي قال إن اسمه «سعدى» بشكل أكثر بشاعة، يلاحقها .. تتقلب على نيران الرفض .. يتشبث بلحظات المتعة السابقة، تصنع ستائر عازلة، يتجسد في أكثر من صورة .. بين الاستعطاف والترهيب يحاول معها، يحنو عليها، يمتلك قدرات رهيبة، يحاول أن يبهرها، لا تستجيب، تهرب منه لتجد نفسها بين ألف حيوان أسطوري بشع الخلقة .. تصرخ وهي تجري حافية بقدمين داميتين .. بعد صراع وصراخ تستيقظ مفزوعة ..

لم يعد نومها ملاذها وملجأها، أصبحت، خلال الأيام التالية، شاردة الذهن، متعبة من كثرة التفكير، تخشى مصارحة أحد. يقظتها أضحت ملاذها، تخشى النوم، تخاف سريرها، تنام في حضن أمها مثل طفلة، تستعطف هايدي ألَّا تتركها وحيدة، يتأملونها بأعين قلقة، يسألونها عما حدث فلا تجيب، تلتزم الصمت.

كادت تنسى ذلك الاسم الذي تفوَّهت به ذات مرة في حلمها تستغيث به «جمال» حتى كان ليل هذا اليوم، وقد ذهبت في النوم بعد تعبٍ وإرهاق ومجافاة دامت يومين، الذي استمعت فيه إلى صوت هامس يناديها.. صوت لشابٍّ يتألم ينادي بصوت واهن: كرمة .. كرمة .

Scanned by CamScanner

(٤)

الثالثة فجرًا ..

نزلة شرموخ . المنيا

«زين»

رغم ترهل جسدها وآلام العظام التي لا تفارقها، تنتفض في مقعدها مثل المحمومة التي أوشكت روحها مفارقة جسدها، لا تعلم ماذا تفعل في هذا الوقت المتأخر، ابنها زين تأخر حتى هذا الوقت وفشلت كل محاولاتها في الاتصال به، هل تغادر منزلها لتبحث عنه في بيوت نزلة شرموخ؟ تشهق من بين دموعها حينما يأتيها اتصال تليفوني من حسن .. ابنها البكر .. كانت تنتظر هذا الاتصال ويداخلها رعب لا حدود له من أن يأتيها بخبر سيئ .. تمد يدًا مُرتعشة نحو التليفون و تدعو في قلبها أن يكون الأمر خيرًا ..

Scanned by CamScanner

قبل ساعات كان زين يجلس في منزل خطيبته «شيماء»، يرتبك، يشعر بانقباض لا يعلم مصدره، تقترب جدران الصالة حتى تكاد تُهشّم عظامه، السقف يدور مثل مروحة، يتخيله لحظة يسقط فوق رأسه، يزفر بشدة، يبدو أنها ليلة طويلة ولن تنتهي بسهولة، ذلك ما كان يشعر به في بداية هذه الليلة.

يخرج «زين» وقد سيطرت عليه موجات غضب غير عادية، يده تتحرك في الهواء بحركات لا إرادية وكأنه يواجه بها أشباحًا ليلية، تصاعدت الدماء إلى رأسه بشكل جعل بشرته تتحول إلى اللون الأحمر الأدكن، أرنبة أنفه بدا عليها أن درجة حرارتها وصلت إلى مائة درجة مئوية، يتصبب العرق من جبينه وكأنه عائد من سباق عدو، لا يعلم كيف يمشي أو إلى أين.

«زين عبد الفتاح»

الذي أنهى تعليمه المتوسط منذ عدة سنوات، و الآن يعمل مدرس نشاط زراعي بمدرسة قريته «نزلة شرموخ» الابتدائية، منذ عدة أيام و هو يلاحظ تغيُّرًا غريبًا في طريقة تعامل خطيبته معه، لم يكن ليبالي في البداية، لكن ما حدث مع بداية اللقاء في هذه الليلة جعله يبحث عن تفسير .. نظرات شيماء غريبة، وكأنها شاردة أو مشغولة بأمرٍ ما، كان من الممكن أن يمر الأمر لكن

Scanned by CamScanner

كلماتها الشديدة، تعليقاتها الغاضبة، يدها القوية التي صافحته بها في بداية اللقاء، مغادرتها المكان بشكل مفاجئ، سماعه لصراخها يأتيه من الداخل عندما أسرعت خلفها أمها التي اعتذرت له عما بدا من ابنتها ووعدته أن تفهم سبب مغادرتها وتعود بها إلى مجلسه .. كل ذلك ما جعله يمعن النظر، بل يتوقع اضطرابًا حقيقيًا في العلاقة بينهما.

عندما أتت بها أمها بدا عليها أنها ليست هي، نظراتها مريبة، وجهها شاحب لدرجة مخيفة، تزفر بعنف، تنبعث منها حرارة غريبة، ودَّ زين لو وضع يده على جبهتها ليستطلع درجة حرارتها لكنه خشي ردَّ فعلها، صامتة كانت تختلس النظر نحوه بنظرات ملؤها الحقد والكراهية وكأنه عدو حقيقي، يندهش لكنه لا يستطيع أن يسألها، قوة غريبة تمسك لسانه، فقط يستطيع تذكُّر كلماتها الرقيقة له وتعبيرها بابتسامتها العذبة عن محبتها له، ماذا تغير فيه حتى تصل إلى هذه الدرجة من الشراسة؟! تمر الدقائق ثقيلة .. ولو استمر في مكانه أكثر من ذلك لهجمت عليه ولا يستبعد أن تقتله وقد تساعدها أمها على ذلك .. يهز رأسه بعنف .. كيف يصل به تفكيره إلى هذه الدرجة من التطرف .. لا بد أن هناك وشاية ما .. أو أي شيء أوصلها إلى تلك الحالة!

يغادر المكان غاضبًا، الساعة تقترب من العاشرة مساءً، شوارع القرية خالية من المارة في هذا التوقيت، لم يكن يعي الكثير من التفاصيل حوله، يسير في الشوارع بشكل تلقائي، المفترض أن تحمله قدماه إلى منزله بحكم العادة، تفكيره كله منصبٌّ حول غضب شيماء الغامض، يحاول أن يجد تفسيرًا منطقيًا لكنه يعجز عن الوصول إلى أي تفسير.

لم يشعر بأنه يسلك طريقًا أخرى إلا حينما يفيق إثر نباح عدة كلاب تواجهه في الظلام، عيونها تلمع بشكل غريب، أنيابها البيضاء بارزة، لعابها يسيل بشكل مقزز، يلتفت زين حوله ليعرف أين هو؟!

لقد وصل إلى أطراف القرية، بالتحديد عند الساقية القديمة، يسقط قلبه من مكانه، اسم الساقية القديمة فقط وفي هذا التوقيت كافٍ لبث الرعب بداخل أي شخص، ما بالنا بـ «زين» الواقف عندها وأمامه هذا العدد من الكلاب، ما هي إلا ثوانٍ معدودة وينقضون لافتراسه، يتسرب الخوف إلى قلبه، تتلاشى من عقله صورة خطيبته وما فعلته مؤخرًا، يجب أن يتصرف بسرعة .. لا وقت للتفكير .. يقرر أن يهبط بجسده إلى الأرض في حركة مفاجئة أمام الكلاب، سوف تظن أنه سيحمل شيئًا ليقذفها به، إن لم يرتدوا إلى الخلف فسوف يشتت تفكيرهم لحظات تكفي لأن يطلق لساقيه العنان كي يعود هاربًا .. لكن ..

Scanned by CamScanner

لكن في اللحظة التي يقرر فيها أن يقوم بهذه الحركة المفاجئة يحدث ما لم يتوقعه على الإطلاق، فقد صمتت الكلاب عن النباح فجأة، على أضواء النجوم فقط يلمح تحركهم المنكسر إلى الخلف وقد ظهر على وجوههم رعب حقيقي، أنظارهم مُسلَّطة إلى نقطة ما خلف «زين» .. تُصدر صوتًا يبدو وكأنه استعطاف .. نصفها الخلفي يسقط إلى الأرض، تستمر في التقهقر، لا تجرؤ على الالتفات والهرب، يبدو أن الشيء الموجود خلف زين ويرعبها بهذا الشكل هو شيء رهيب.

يتذكّر القصص التي يعرفها أهل القرية بلا استثناء عن سكان الساقية القديمة، أسرة عتيقة من سحرة الجن المعروفة باسم «عائلة الغيلان» ومنها تم تداول القصة الشهيرة عن «الأم الغولة» وما تفعله مع هبوط الليل من أجل مَدِّ سيطرتها على المكان الذي تعيش فيه وإن استدعى ذلك حرق القرية بأكملها إن هي غضبت غضبتها الكبرى.

يعلم أن مثل هذه القصص تطلقها الأمهات في القرية لإثارة الخوف لدى الأطفال ومنعهم من الخروج ليلًا أو الوجود في الخارج حتى وقت متأخر، إن كانت مثل هذه الحكايا تؤتي نتيجة مع الأطفال فهذا «زين» قد نضج بما فيه الكفاية ولا يجب أن يصدق حكاية عن الأم الغولة وأطفالها الذي يبلغ حجم الواحد منهم ارتفاع طابقين.

Scanned by CamScanner

لكنه الآن بجوار الساقية القديمة المشهورة بأنها مسكن عائلة الغيلان، وأمامه مجموعة شرسة من الكلاب تحولت في لحظة واحدة إلى كائنات خانعة يشل الرعب حركتها، يقرر أن يلتفت ليشاهد ما يوجد خلفه .. وكأن رقبته قد تصلبت .. ترفض الدوران إلى الخلف، يرتجف جسده ويشعر بخدرٍ يسري في أطرافه من شدة الرعب، لقد استسلمت الكلاب تمامًا ونامت على الأرض باسطة أمامها أذرعها. يدور بجسده كاملًا، نصف دورة.

جزء من اللحظة، قبل أن يسقط غائبًا عن الوعي، كان كافيًا لأن يشاهد جسدًا ضخمًا لامرأة سوداء مثل الفحم، تبدو في هذا الليل مثل بناية خربة .. فقد لمعت عيناها بشكل مخيف وهي تعقد يديها المملوءتين بالشعر الطويل فوق صدرها فتبدو أظفارها الطويلة مثل مخالب حادة.

«هناء الجندي شرموخ»

هي والدة «زين» وشقيقة كل من مصطفى وسعيد الجندي، زين هو الابن الثاني لها بعد «حسن» المتزوج ويعيش في منزل خاص به عند أطراف القرية القبلية، بالقرب من الساقية المهجورة.

ما مرت به عائلتها في بداية إدراكها كان أمرًا رهيبًا جعل كل ما يأتي بعده مجرد أشياء لا تُذكر، فمَن تعرض للعظيم تهون أمامه الصغائر، مرت تلك

Scanned by CamScanner

السنوات على هناء وهي غالبًا صامتة، تتأمل في صمت .. لا تُعقِّب .. لا تطلب .. تزوجت أول مَن تقدم للزواج بها بعد مقتل والديها وهروب أخويها إلى أماكن لا تعلمها .. عاشت صاغرة لتفاصيل الحياة وكأنها تستجدي يوم نهايتها أن يأتي سريعًا كي تترك هذه الأرض التي ما طَعِمَتْ فيها غير المُر، لكن ما إن تنجب الأولاد حتى تتحول حياتها تمامًا .. أصبح أطفالها عالمها الخاص .. تتفانى لإسعادهم .. حينما يسقط زوجها فريسة الفيروس الكبدى الوبائي ويعود محمولًا من المستشفى كي "يموت على سريره و بين أولاده" كما طلب منهم الطبيب المعالج .. تقبَّلت هناء أمر القدر .. فليس فراق الزوج أكثر ألمًا من فراق الأب والأم وحتى الأخوين .. عاشت على ما ورثته من والدها وما تركه زوجها وهو قليل .. مرت السنوات وكبر الأولاد وعاشت ترعاهم حتى يقضي الله أمرًا وتصعد روحها إلى مستقرّها الأخير.

كل هذا جعل من قلب هناء حجرًا صلدًا لا يتألم بسهولة .. أما اليوم .. والغائب هو صغيرها زين .. فلم تعد قادرة على التحمل .. الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل ولم يعد من منزل خطيبته، لم تكن تلك عادته، لقد ذهبت في النوم لمدة ساعة تقريبًا، استيقظت وقلبها مُنقبض لا تعلم لماذا، جهزت لابنها الطعام وانتظرت .. الوقت يمر ببطء .. ولما طال إلى هذا الحد تقرر الاتصال به للاطمئنان عليه.

تحاول عدة مرات ولكن تليفونه المحمول خارج نطاق الخدمة، تندهش أكثر، هناك مناطق كثيرة في قريتهم لا تتوافر فيها الخدمة، لكن منزل خطيبته ليس من هذه المناطق، باستمرار تتحدث إليه و هو هناك أو تتحدث إلى شيماء نفسها .. تتذكر شيماء .. لماذا لا تتصل بها؟ الوقت متأخر نعم، ولكن يُفترض أنها مستيقظة وتجلس مع «زين» ..

تبحث عن رقم شيماء وتتصل بها .. تنتظر .. يمر الوقت وينتهي الاتصال ولا تجيب شيماء، يتسلل الخوف إلى قلبها أكثر وأكثر .. تعاود الاتصال بشيماء .. نفس الأمر، تنتظر حتى ينتهي الجرس ولا مجيب.

تتحرك في المكان وقد توترت أعصابها وبدأت الرعشة تصيب أطرافها، حالة غريبة كانت تنتابها عند الانفعال أو الغضب، تبدأ برعشة في أطرافها ثم تسري في جسدها، بعدها تعجز قدماها عن حملها، يسيل عرقها غزيرًا .. تتنفس بصعوبة .. وإن استمر الوضع دقائق قليلة تفقد الوعي تمامًا. يعلمون عنها ذلك فيحملونها إلى سريرها .. بعد ساعة أو أكثر تعود إليهم شاحبة اللون متوترة، باكية مثل طفلة.

الآن بدأت تظهر على أطرافها الرعشة، لا تكاد تمسك بتليفونها حتى يسقط منها في حجرها، تحاول أكثر من مرة حتى تنجح في الاتصال بابنها «حسن»

Scanned by CamScanner

الذي يجيبها بعد فترة بصوت ناعس، لقد أيقظته من النوم، في البداية تسأله: هل «زين» يسهر عنده أم لا؟ تعلم الإجابة قبل أن تسأل، استجابة حسن المتأخرة دليل على وجود شبكة هناك وتليفون «زين» في منطقة لا توجد فيها تغطية، صوت حسن ناعس جدًّا بشكل يؤكد أنه ينام من فترة، وهذا يؤكد عدم وجود «زين» هناك، رغم ذلك تسأله وتنتظر منه أي إجابة تُهدِّئ قلبها.

يُجيبها حسن بأنه لم يشاهد «زين» منذ عدة أيام، ثم يعقب بأنه قد يكون عند أحد من أصدقائه يسهرون معًا كعادتهم .. يطمأنها بكلمات قليلة.

تهدأ قليلًا بعد مهاتفة ابنها حسن الذي يعدها بأنه سوف يبحث عنه، لكن القلق ما يزال يسكن قلبها لن يغادره قبل أن يعود «زين» سالمًا. تتوجه لتتوضأ .. تود لو تصلي ركعتين تستجدي بهما السكينة إلى ذلك القلب المفطور.

يتسرب القلق إلى قلب حسن .. بالرغم من أنه طمأن أمه بكلمات فإنه لم يشعر بهذه الطمأنينة التي أراد أن يُدخلها على قلبها .. يحاول أكثر من مرة الاتصال بشقيقة، لكن بالفعل التليفون خارج نطاق الخدمة كما أخبرته أمه. يغلبه خدر النعاس فيعود إلى سريره، مؤكد أن زين سيعود، ليس طفلًا لنقلق عليه إلى هذا الحد، يُقنع نفسه بذلك كي يبرر دخوله إلى السرير .. يتقلب دقائق .. لكن القلق يعاوده، يعتدل في مكانه وهو يزفر بشدة، لو شاهد زين

Scanned by CamScanner

الآن لصبَّ عليه غضبه، ماذا يفعل في الخارج حتى هذه الساعة؟ وكيف لا يضع في اعتباره قلق أمه ومرضها؟!

يقرر الخروج ليبحث عن «زين» .. سوف يذهب إلى منزل شيماء أولًا.

الليل يحمل بين طياته الكثير .. خيالات لا نهائية .. حكايات بعدد ما خُلق من بشر وجان .. صمت الليل أكثر غضبًا وإثارة، يرتبك حسن وهو يستمع إلى صوت خطواته على الأرض مع حركة جلبابه الواسع يتخبط في ساقيه، صفير جنادب الليل يخترق أذنيه، كلاب تعوي من بعيد في أكثر من اتجاه وكأنها تتحادث لتعبر عن رعبها من صمت الليل القاتل.

يتوقف حسن أمام منزل «شيماء» خطيبة أخيه، لا توجد أي دلائل على وجود أحد مستيقظ بالداخل، يدنو من شباك متنصتًا أكثر لعله يسمع صوت أحدهم، لا صوت .. يخشى أن يشاهده أحد وهو في هذا الوضع المخجل، يتنصت على الناس في هذا التوقيت من الليل!

يقرر أن يتخذ خطوة أكثر جرأة .. لا مجال للتردد .. الحدث كبير .. محتمل أن يكون «زين» قد أصيب بمكروه، يطرق الباب عدة مرات حتى يأتيه صوت ناعس من الداخل، يسمع الحركة والتعثر، أصوات متداخلة .. يمر الوقت ببطء سلحفاة حتى يظهر والد شيماء من فتحة صغيرة في نافذة الباب.

Scanned by CamScanner

بعد دقائق يسير حسن بصحبة والد شيماء ليبحثا معًا عن «زين» الذي غادر منذ ما يزيد عن ثلاث ساعات، لا يتركان مكانًا قد يكون فيه، عند الأصدقاء أو الأقارب، إلا ويسألان فيه، لكن الإجابة واحدة: الجميع لا يعلم عن «زين» شيئًا.

النتيجة الوحيدة التي أثمر عنها البحث أن عدد مَن يبحث عن «زين» قد تزايد حتى فاق العشرة رجال، واستيقظ أصحاب عدد من منازل في القرية، يخرج الرجال بصحبة حسن و تظل النساء مستيقظات في المنازل، تتبادل النسوة الحوارات والاستفسار عبر الهواتف المحمولة، تود كل واحدة لو تكون صاحبة السبق فتتصل لتسأل عن «زين» وهي في الأصل تعلم أنه من المستحيل أن يكون في هذا المكان، ثم تُعقِّب بأنه خرج غاضبًا من عند خطيبته منذ عدة ساعات ولم يعد إلى المنزل وتليفونه مغلق .. وهكذا تستيقظ قرية نزلة شرموخ تقريبًا.

بعد أكثر من الساعة بحثًا عن «زين» يتحرك الجمع في اتجاه مخرج القرية .. وهناك .. بالقرب من الساقية المهجورة كان المشهد الذي أصابهم جميعًا بالخرس.

«زين» مُلقَى على وجهه .. يتمدد على الأرض وأطرافه الأربعة مفرودة بشكل غريب وكأنها تشير إلى اتجاهات أربعة، وحوله .. على شكل دائرة تقبع مجموعة الكلاب تتأمل صامتة.

Scanned by CamScanner

يقف الجمع في حالة ذهول، يلجم المشهد المرعب ألسنتهم، يتنحنح أحدهم كي يختبر قدرته على إخراج صوته، ترتعش أصابع آخر وهو يرفعها مشيرًا ناحية الكلاب التي تحيط بجسد زين، لا يعلم بعضهم لماذا اقترب من الآخر حتى التصق به، أحدهم يلعن لحظة الشهامة التي أخرجته من سريره في هذا الوقت من الليل ويصل إلى هذا المكان.

تظل الكلاب على وضعها الصامت حتى بعد وصول الرجال، وكأن الصورة يتم تثبيتها لدقائق على هذا الوضع، الكلاب مثل تماثيل قابعة، على وجوهها الخنوع، الرجال مثل تماثيل واقفة قد صُنعت من رعب.

حتى يتلوى كلب ضخم وكأنه يعاني كي يستل جسده من ذلك الوضع .. يتحرك .. يبدو أنه قائدهم، يلقي نظرة على الجميع وكأنه يود أن يخبرهم شيئًا، يلمح الحضور في عينيه علامات أسًى و هو يلقي نظرة أخيرة نحو جسد زين المسجَّى على الأرض مثل خرقة بالية .. يغادر الكلب بأقدام ثقيلة .. يرتعد جسده مرة واحدة قبل أن يرفع رأسه إلى السماء ليطلق عواءً طويلًا .. تتبعه باقي الكلاب فيعلو عواؤهم حتى يصم الآذان .. يتركون المكان وعلى الحضور علامات الذهول حتى يتحرك حسن مغالبًا رعبه وانتفاض قلبه لينكب على أخيه، يتفحص أنفاسه .. يتأكد من أنه ما يزال على قيد الحياة، أخيرًا يصرخ فيهم بأن يحملوه ليرحلوا من هذا المكان.

Scanned by CamScanner

يتصل حسن بأمه ليخبرها بأنهم وجدوا زين و هو بخير .. لم يلحظ أن الساعة كانت الثالثة فجرًا.

يحمله بعضهم وقد علت أصواتهم بين متسائلٍ و مُطمئِن .. يبتعد الجمع عن الساقية القديمة وقد التصقت أجسادهم ولا يجرؤ أحدهم أن يصرح بما في داخله من رعب حقيقي، يرحلون وهم يحملون جسد زين وكأنهم يحملون نعشًا إلى مقابر نزلة شرموخ، لم يلحظ أحدهم أن ذلك الكلب الكبير قد انفصل عن مجموعة الكلاب واختفى في لحظة واحدة بداخل الساقية المهجورة.

Scanned by CamScanner

(٥)

«چو»

تتجسد بشكل غريب أمام «جمال» صورة فتاة لا يعرفها، على ملامحها علامات رعب حقيقية، تناديه باسمه، جمال .. جماااااال .. وكأنها تعرفه منذ زمن، كمن تستغيث تمد يديها نحوه، نظرات باكية تستعطفه كي يدنو منها.

تُلجمه الدهشة وتشل حركته تمامًا، يود لو ينطق ليسألها:

– من أنتِ؟!

لسانه يعجز عن الحركة، يتأملها .. يشعر بأنها ليست بالغريبة عنه، لو يتذكر أين التقاها من قبل؟! لكن لا .. هو لا يتذكر أن قابلها أبدًا، و إن كان يشعر بأنه يعرفها..

Scanned by CamScanner

فجأة و هي ما تزال تمد يديها نحوه و تهمس باسمه، تجحظ عينا جمال .. يثبتهما على شيء ما خلف تلك الفتاة التي تناديه، سرب طيور جارحة لها مخالب سوداء مثل قطع حديدية صدئة، تفرد أجنحتها العريضة لتحجب أي ضوء فيعم الظلام، تتلقى الفتاة علامات الفزع من على وجهه لتنظر إلى الجهة التي ينظر إليها، تشاهد الطيور المفترسة تقترب منها، بعضها يحوم فوق رأسها بمنقاره المتوهج ومخالبة الحديدية، تتحرك خطوة إلى الخلف وهي تدفَعُ الهواء بيديها، تتعثَّر .. تسقط أرضًا، تشهق بفزع أسطوري.

تهبط الطيور فوق فريستها وهي تطلق صيحات مثل صيحات الغربان الممزوجة بعواء ذئاب .. تنطلق صرخة رعب لتشق الأرض وتفزع منها الطيور فترفرف فوقها مرة أخرى .. كانت تلك الصرخة قد تكورت وانفجرت من صدر الفتاة، لكنها لم تخرج منها، بل خرجت من جمال .. صرخة تهتز لها أركان الغرفة حتى إن عددًا من الآنية الزجاجية قد تهشَّم مكانه، تنفجر لمبة معلقة في منتصف سقف حجرته، ينتج عنها دخان له رائحة احتراق.

في الحجرة المجاورة .. تفزع والدته .. «إلهام حلمي» .. تنتفض لتجلس في سريرها ويداها على صدرها، ترهف السمع، هل هناك صرخة حقيقية انطلقت منذ لحظات، أم أنها كانت تحلم؟

Scanned by CamScanner

كانت هناك .. بين المقابر .. في طرقاتها الموحشة والظلام كتلة صماء، يجرها من شعرها، زوجها مصطفى الجندي، بيد واحدة، رغم ألمها الرهيب تندهش، إنه بكامل قوته وعنفوانه وكأنه يجر دمية خلفه، بيده الأخرى سكين حاد يبرق في الظلام مثل عيني ذئبٍ، تستعطفه وهي تحاول اللحاق به، قدماها لم تكونا قادرتين على الانتصاب وحملها، ثم إن قوته الرهيبة في جَرِّها بهذا الشكل قد ذهبت بأي قوة لديها فاستسلمت لما يحدث، لسانها فقط يلهج ببعض الحروف لتجتمع بين الفينة والأخرى بكلمات مثل « أرجوك .. أحبك .. لا تفعل .. إنها شائعات يا مصطفى ..»، لكن الرجل صاحب الوجه الصارم والعينين اللتين مثل قصعتي جمر ملتهب لم يكن يمتلك أذنًا ليسمع بها، وأنه يتحرك مدفوعًا بقوى خفية، تمر الدقائق ثقيلة وهو ينتقل بها بين المقابر من شارع إلى شارع حتى يصل إلى مقبرة لها جدران مبطنة بالجرانيت الأسود، تتزايد سرعة الرياح لتضرب جدران المقابر فتصدر أصوات شبيهة بصرخاتٍ فَزِعة، يعوي ذئب، ينعق غراب، بوم ينعب .. يسقط شهب ناري من السماء بسرعة جنونية..

يقذف بها إلى تلك المساحة الضيقة أمام باب المقبرة، تتكور مكانها وعلامات الرعب الحقيقية قد طُبِعت على وجهها، تلملم جسدها، تمزقت ثيابها إثر جرها على أرض صخرية، سالت الدماء من أماكن متفرقة، تشوَّهت

Scanned by CamScanner

تفاصيل جمالها بدماء مختلطة برمال الطريق ودموع تفيض مثل نهر، صدر نافر يعلو ويهبط بعنف ليفقد روعته ويلقي ذعرًا رهيبًا على صاحبته التي تختنق أنفاسها.

يتأمل مصطفى المكان لحظات، ينظر في اتجاه باب المقبرة وشفتاه تتحركان ببطء، فجأة يرفع رأسه إلى السماء ثم يطلق عواء طويل مثل عواء ذئب مجنون قبل أن يرفع يديه إلى أعلى بذلك السكين الحاد ليهوي به فوق رقبتها ليفصل الرأس عن الجسد. مفزوعة تطلق صرختها التي تفر من قوتها خفافيش الليل وجنادب المقابر وزواحفها.

تجلس فوق سريرها ويداها على صدرها تنصت إلى مصدر الصرخة، لا شيء .. الصمت فقط هو الذي يحتوي المكان بأكمله، تلحظ أن جسدها ما يزال ينتفض مكانه، تتحسس رقبتها المتألمة من أثر ضربة السكين القوية، يا له من كابوس بشع! عانت الكثير مع مصطفى في حياته والآن تعاني بعد مماته، لماذا لا يرحل طيفه عنها كما رحل جسده عن الدنيا كلها؟

تُرى .. هل ما تزال روحه تحوم حولها؟!

بألم تتحرك .. تنزلق قدماها من فوق سريرها تبحث بأطراف أصابعها عن الـSlipper وما تزال أذناها تبحثان عن أي صوت يؤكد أن ما سمعته منذ لحظات كان حقيقة وليس جزءًا من كابوس غاصت في بحره الأسود.

Scanned by CamScanner

ببطء تتحرك في الصالة حتى تصل إلى باب غرفة ابنها جمال، تنصت قليلًا ويدها معلقة في الهواء بالقرب من مقبض الباب، حشرجات و همهمات متباينة تأتي من داخل الغرفة، الأصوات لا تصدر عن شخص واحد، ثلاث نبرات مختلفة، أصوات هامسة كمن يدبر أمرًا يودُّ ألا يعلمه أحد، تنصت أكثر .. تدرك نبرة صوت من الأصوات الثلاثة تعلمها جيدًا، إنها له هو .. نعم لا يمكن أن تخطئ أذناها صوته مهما يَطُلِ الفراق، زوجها المتوفَّى مصطفى الجندي.

مفزوعة ترتد إلى الخلف خطوات وهي تتأمل باب الغرفة كأنها تراه أمامها وفي يده السكين الحاد، تتذكر جسدها وهو يجرُّه على الأرض الصخرية الحادة، تتحسس فخذيها وردفيها، تشعر فيهم بألم رهيب، تبحث عن قبضة هواء لتملأ بها صدرها، تقترب حذرة من الحجرة، تستدعي كل طاقات العمر ولحظات اليأس التي تزهد فيها بشكل يجعل موتها يساوي حياتها، تمد يدها بسرعة نحو مقبض الباب لتفتحه فجأة.

ما شاهدته كان ما يفوق خيالها، و لو أنها لم تسقط فاقدة الوعي لماتت من هول ما رأت.

دقات الساعة المُعلَّقة في الصالة تعلن الثالثة فجرًا.

Scanned by CamScanner

(٦)

الثالثة فجرًا ..

مدينة الإسكندرية

«هايدي»

وكأنه قريب أكثر مما كانت تتخيل .. لحظة واحدة شعرت فيها بأنها تُفارِق الحياة .. الموت يرفرف بجناحيه مثل طائر ضخم كي يحمل روحها بين مخالبه ويرحل عن المكان، نعم هو الموت بعينه، فما يحدث لها الآن لم تمر به من قبل ولم تتخيل حدوثه مهما تتطرف أفكارها.

كانت هذه هي المرة الأولى على الإطلاق الذي يحدث لـ هايدي ما حدث، منذ ساعة تقريبًا وبعد أن أوت إلى فراشها، وهي عادة ما تأوي إلى الفراش في وقت متأخر جدًّا، إنها تعشق السهر ولِمَ لا وهي تبدأ يومها في الثالثة أو الرابعة عصرًا.

Scanned by CamScanner

الثالثة بعد انتصاف الليل، غارقة بين الوسائد التي تصر على أن تملأ بها سريرها، تغلق تليفونها المحمول وتقذفه إلى جوارها في لا مبالاة لتغلق بذلك كل التطبيقات التي كانت تتواصل عبرها مع مجموعة الأصدقاء المقربين، بالرغم من كونها عائدة من الخارج بعد انتصاف الليل تاركة «الشلة»، فقد ظلوا يتواصلون عبر تطبيقات الإنترنت المختلفة.

تمط شفتيها وقد ضغطت أسنانها بشدة حتى إنها شعرت بألم، لا تستطيع إخراج تلك الصورة التي أرسلتها إليها صديقتها «سوسو» من مخيلتها، صورة تم التقاطها بشكل سري، بعيدة بعض الشيء ومهزوزة بنسبة ضئيلة، هذه الصورة تحوي تفاصيل لرجل وسيدة يتبادلان قبلة بينما يتحسس الرجل مناطق حساسة منها، ما أعطى الصورة أهمية التراسل بين الصديقات أنها أُخذت عبر فيديو كاميرا مراقبة في محطة مترو الأنفاق. تم تداول الفيديو على شبكة الإنترنت لفترة ليست بالقصيرة، تبادل القبلات وتوغل يد الرجل إلى أماكن حساسة في محطة مترو؟! أي جرأة أتت هذين ليفعلا ذلك؟! وهذا الموظف الذي سرَّب هذا الفيديو وقام بنشره على مواقع التواصل .. ماذا يفعل؟! مئات الآلاف يمرون أمام كاميرات المحطات بهمومهم وآلامهم وأحلامهم وكثير منهم يتفاعل ويقدم مواقف إنسانية، هذا الموظف يترك كل

هذا ويتعلق بهذا الشخص المعاق فكريًّا هو وصاحبته لينشر ما فعلاه لتعم النقطة السوداء اللوحة بأكملها فتخفي التفاصيل الجميلة كافة. عمومًا نال الفيديو ما نال من التعليقات الساخرة على صفحات الفيس بوك، وحظي مُسرب الفيديو بكثير من النقد. تُرسل هايدي «إيموشن» ساخرًا تُخرج فيه لسانها.

على تويتر كانت تتابع بعض ما ينشرة أبناء الوسط الفني، تتابع أخبارهم باستمرار، تتابع صفحاتهم وتُفضل الكثير مما يكتبونه و تُعلّق على بعضه. على أنستجرام تتابع صور الأصدقاء وسب مشاهدة صورها الحديثة التي أضافتها قبل عودتها من الخارج.

صديقها «روميو» وهذا اسم الشهرة الخاص به، لكن اسمه الحقيقي «رامي أمين» يبعث لها عدة رسائل، لا تجيب عنه، تصده كثيرًا ولكنه لا يعرف اليأس، يُفضي بمشاعره بدون خجل بالرغم من أن الشلة كلها تعلم جيدًا أنه تحدث بنفس عبارات الحب هذه لأكثر من فتاة، والآن يرغب في هايدي، لم تجبه من قبل ولن تجيبه اليوم، وإن كانت تتمنى ألا يتوقف.

على قدر طولها تتمطع .. تشعر بالإرهاق بعض الشيء بعد هذا اليوم، لقد تناولت قدرًا غير قليل من المشروبات الكحولية، كان لقاؤهم قبل ساعات

Scanned by CamScanner

في «سيفتي درينك» حيث تناولوا الروم والفودكا، تعمدت أن تتأخر حتى يزول تأثير تلك المشروبات لئلا ينكشف أمرها عند عودتها إلى المنزل، استعانت بحلوى النعناع شديدة النكهة لكن ذلك لم يُجدِ معها نفعًا. عمومًا وصلت متأخرة فكانت أمها قد ذهبت في نومها منذ ساعات، والدها خارج البلاد كالعادة. شقيقتها «كرمة» تغلق عليها بابها وتعيش في عالمها الخاص.

تبتسم منتشية بما عاشته وكأنها عصفور يُحلِّق في فضاء الكون بلا قيود، كلما توغَّلت في تلك الأفعال التي يحتكرها الكبار بلا خوف من أي رقابة زادت سعادتها، تتذكر لحظة تأملها الكأس ثم طريقة حملها ورفعها إلى شفتيها لترتشف منها في هدوء يدل على خبرة وليس تهور مبتدئ، طريقة استخراجها للسيجارة وإشعالها ثم قذف دخانها في الهواء مثل محترفة .. بعد دقائق تذهب في دوامة لا تخرج منها، نوم هو أشبه بالغيبوبة.

ساعة واحدة فقط نامتها هايدي حتى حدث لها ما لم تتوقعه.

فجأة .. تُفتح نافذة حجرتها بعنف، قوة رهيبة دفعتها، يتحطم زجاجها وتتناثر قطعه في كل مكان في الحجرة مخلفًا انعكاساتٍ حادة في كل اتجاه، تطير شظية حادة بقوة رهيبة، وكأنها رصاصة انطلقت من مسدس حديث الصنع مُزوَّد بكاتم للصوت، لتشق جبهة هايدي فتسيل منها الدماء دفقاتٍ

Scanned by CamScanner

متتالية لتُغرق وجهها وتحجب عن عينيها الرؤية تمامًا، ترفع يديها كي تُوقف تدفق الدماء و تمسح عينيها، يعلو صراخها و هي تقفز من فوق السرير ناحية باب غرفتها، يتصلب جسدها مثل تمثال حجري حينما تُمسك بها يد عملاقة تُقيّد حركتها، يتزايد صراخها المصوغ من رعبٍ وفزعٍ لم تتخيلهما يومًا، تحملها تلك اليد القوية وتلقيها فوق سريرها مرة أخرى، ينتفض صدرها وهي تزوم، وقد جحظت عيناها كأنهما ترغبان في الفرار من محجريهما، بعد لحظة تتأمل فيها المكان حولها وبحركة لا إرادية تسحب ملاءة السرير لتمسح الدماء عن عينيها، أين صاحب هذه اليد العملاقة الذي حملها مثل دمية وألقاها إلى السرير بهذا الشكل؟!

قبل أن تدرك التفاصيل حولها، فما زالت غشاوة الدماء تطمس الرؤية، يأتيها صوت هو مزيج بين عواء ذئب ونباح كلب وزئير أسد وفحيح أفعى مع سرسعة ضبع، في هذه اللحظة يشلها الرعب، تضع يديها فوق وجهها وكأنها تختبئ من هذه الحيوانات المفترسة التي سوف تلتهمها الآن لا محالة.

حينما يسيطر اليأس تتوارى القوة فيخمد الجسد، لا تمتلك هايدي أي قدرة على الحركة، الصراخ فقط هو سبيلها الوحيد كي تحصل على المساعدة الخارجية، تصرخ وتصرخ وتصرخ .. لكن صوتها لا يخرج .. تمد يدها كي

Scanned by CamScanner

تُشعل المصباح المجاور لها، فقد اكتشفت أن الحجرة ما تزال غارقة في ظلامها الرهيب، زر المصباح وكأنه شيء هُلامي لزج تغوص فيه أصابعها، يتزايد الظلام وكأنما تشعل المصباح كي يلقي بالظلام أكثر.

يتحرك الشباك الذي ما تزال حوافه متشبثة بقطع زجاجية تقف مثل خناجر حادة، ينتفض الشباك بمنتهى القوة مصدرًا صوتًا يذهب بما يتبقى من قدرتها على التحكم في أعصابها.

تمنت لو كانت قد تناولت قدرًا أكبر من الكحول كي تغيب عن الوعي تمامًا فلا تشعر بما يحدث حولها، وكأنها تذكرت فجأة كمية الكحول التي تناولتها وأنها قد تكون السبب فيما يحدث الآن من اضطرابات ذهنية وسمعية وبصرية، لكن أي اضطرابات هذه والدماء ما تزال تسيل من جُرح وجهها الغائر؟!

«هايدي سعيد الجندي»

فتاة رشيقة القوام، ترسل شعرها مثل فتاة ثلاثينية، تستخدم كل أدوات المكياج مثل فنانات السينما، ترتدي من الثياب ما يبرز مفاتنها، فتبدو أجزاء من جسدها بوضوح في إغراء فاضح، عصبية المزاج بشكل كبير لكنها تُخفيه خلف ضحكاتها الدائمة ونكاتها اللاذعة أو الجنسية التي لا تخجل من استخدام أي كلمات قبيحة فيها، لكن في إطار مجموعة أصدقائها.

Scanned by CamScanner

تتعامل بطبيعة لا تتناسب مع سنوات عمرها الثماني عشرة، هي إن شئت امرأة كاملة الأنوثة في جسد فتاة ابنة ثمانية عشر ربيعًا، علاقتها بوالدتها نفس علاقتها بأي صديقة من الدرجة الثانية، تقترب منها حينما ينفض من حولها الجمع فإذا ظهروا لفظتها إلى حين، أمها مثل صديقة ثقيلة الظل، لذا كانت على خلاف دائم معها، تود لو أنها لا تقابلها على مدار أيام متواصلة، لكنه أمر واقع لا مفر منه.

شقيقتها الكبرى كرمة، ابنة العشرين ربيعًا، والتي تمارس معها دور «حكيم زمانه» .. ترفض حتى الإنصات إليها، دائمًا ما تصفها بأنها إن كانت هي الأكبر سنًّا فهي الأصغر عقلًا، تتلذذ بإهانتها أمام الأصدقاء، تبحث عن نقاط ضعف في مظهرها العام، طريقة استخدامها الـ Makeup، أو تتصيد كلمة ما من كلماتها سواء في المعنى أو في طريقة الأداء فتُقيم عليها احتفالًا على حد تعبيرها ذات يوم «تحَفِل عليها»، تتحملها كرمة، هايدي تعلم أن كرمة تمتلك القدرة على صدها لكنها لا ترغب، وللأسف هايدي لا تقدر ذلك.

رجاحة عقل كرمة وطريقتها في الحياة لا تحتاج إلى فحص شامل كي يتم إثبات تفوقها على هايدي، وهو أمر بديهي فرضته الحياة عندما أتت بكرمة أولًا وحصدت اهتمام والديها قبل أن يشرد الأب إلى طريقه الخاص، أما

Scanned by CamScanner

هايدي فقد شهدت بداية النزاع بين والديها قبل أن تستسلم الأم وتترك له الحرية الكاملة في ممارسة تفاصيل حياته، وذلك حينما قالت في نفسها «وكأنه مات».

لكن هايدي، وهي مثل قطة شرسة، تشاهد عقلية «كرمة» من زاوية أخرى، فهي عقلية طفولية أقل من أن تفهم دموية الحياة، تعيش في عالمها الرومانسي الخاص، تتباهى بجمالها الطفولي وتستجدي به احترام الآخرين، أما هايدي فلن تدع تلك الحياة إلا وقد حصدت منها كل ما يمكنها، لا بد أن تستنفذ ملذاتها ولن يمنعها من ذلك أحد عبر سنواتها القادمة، فها هي قد بدأت تلتهمها مبكرًا، وما تزال سني شبابها كثيرة. أفكار كهذه كانت تراود هايدي باستمرار مثل كثير من أقرانها في تلك السن المبكرة، لكنها ما إن تصطدم بتفاصيل الحياة حتى تقل الأحلام بشكل تدريجي حتى يتلاشى معظمها.

والدها دائم القول بأن لديه سفريات عمل .. وهي تعلم .. وكرمة تعلم .. وأيضًا أمها تعلم .. ولكنهم لا يُعلنون معرفتهم .. يعلمون أنه متزوج بفتاة أخرى تكبر ابنته الكبرى بعامين، يتذرع بسفره الدائم كي يقضي معها أوقاته، يلهو مثل ابن العشرينيات، علموا ذلك حينما أرسلت لها صديقتها

Scanned by CamScanner

«سوسو» ذات يوم عددًا من الصور ومقاطع الفيديو لوالدها مع فتاته العارية إلا من بعض الملابس في بورتو مارينا في الصيف الماضي، يرتدي البارمودا وتي شيرت كت وقد صبغ جانبي رأسه ليخبئ الشعيرات البيضاء التي ظهرت في السنوات الأخيرة.

لو أن هايدي أظهرت رد فعل شديد تجاه هذه الصور والفيديوهات لاستغلت سوسو ذلك بين أفراد الشلة، ولأصبح والد هايدي مادة لسخريتهم في الفترة التالية، لكنها تتحكم في أعصابها بشكل كبير، ولا تعلم كيف استطاعت ذلك، وتخبر سوسو بأن أسرتها تعلم بشأن هذه الفتاة. بمجرد مغادرتها المكان الذي يجمعها بشلتها حتى تنهار تمامًا، لم تمتلك القدرة على طلب الصور من صديقتها، هي لا تهتم حتى بمشاهدتها فكيف تطلبها؟! لكن الصور طُبِعت في ذاكرتها، لو أن هناك مكانًا في رأسها يتصل بالفلاش ميموري لاستطاعت نقل الصور إلى اللاب توب وشاهدها الجميع، بعدها لا تعلم كيف وصلت إلى المنزل، تحركت، انطلقت في الشوارع، ركبت تاكسي، تصل إلى منزلها بشكل آلي وكأنها تتحرك بريموت كنترول.

في هذا اليوم تلحظ أمها شحوب وجهها ولونها الأصفر الذي يحاكي الموتى، تسألها عما بها، وكأنها ضغطت على زر التشغيل لتنفجر هايدي باكية،

Scanned by CamScanner

تنشج وتتنفس بصعوبة شديدة، تسعل فتتبعثر الكلمات من فيها، تتلقاها أمها على صدرها كي تهدأ.

لحظات ثقيلة تمر حتى تتماسك ويطيعها لسانها، تخبر والدتها بكل التفاصيل، تسرد تفاصيل الصور ومشاهد الفيديو وكأنها تراهم أمامها، تأتي كرمة مفزوعة على صوت بكاء أمها، تسأل عما يحدث وقلبها ينتفض في صدرها حتى إنها تشعر بآلام عظيمة في صدرها، تنسحب روحها تدريجيًا، كَرمة من الرقة بحيث إنها قد تسقط في لحظة واحدة فريسة لذلك الطائر الرهيب الذي يُحلق فوق الرؤوس كي يلتقط من ضحاياه ما يشاء.

بعد ساعة تعود العقول الهاربة إلى الأجساد، وكأن الغضب يتشكل في صورة إطار حديدي يُكبِّل العقول ويمنعها من التفكير، يمنعها من إدراك أي تفاصيل .. فإذا هدأ الغضب ولانَ الإطارُ تحركت خلايا العقل فترى التفاصيل وتدرك ما كان عليها مغلقًا.

خلال اتصالات كثيرة مع المقربين منه، يعلمون أن هذه الفتاة هي زوجته، تسقط الأم مستسلمة تمامًا، لكن ابنتيها فزعتا إليها حتى لا تتحول إلى فريسة لطائر الموت القريب، كرمة تبكي وتتفجر منها الدموع .. هايدي جامدة .. هي منهارة تمامًا لكن دموعها عزَّت عليها فلم تغادر مآقيها.

Scanned by CamScanner

لكن الأمر مع الأم كان على غير ما اعتقدت الفتاتين .. فقد هدأت الأم .. حتى إنها تتعجب للحظة من رد فعلها! تعلم أن لزوجها صولات وجولات .. وأسقطته من حساباتها منذ زمن، لِمَ الانهيار الآن وهو يصول ويجول بشكل شرعي؟! هدأت بعدما أعملت عقلها للحظات .. الآن إن مارس العلاقة خارج بيتها فهو يمارسها مع زوجته .. تنظر نحو ابنتيها مشفقة عليهما .. ترفع يديها مثل جناحين لتضمهما أسفلهما، تلقي كرمة جسدها طيعًا تحت جناح أمها الأيمن، تأتي هايدي لتجلس متخشبة فتجذبها أمها بحنان.

يجب ألا يعرف أبوهما أنهما علمتا عن أمره شيئًا .. كي تستمر الحياة في ظاهرها بشكل عادي لكن ثمة أشياء كثيرة قد كُسِرت.

تمدُّ يدها لتمسح الدماء التي تسيل على وجهها، ما تتعرض له الآن ليس هلوسة نتجت عما احتسته من مشروبات كحولية، الدماء لا تتوقف، تسيل وكأنها دماء من جرح لا يرغب في التجلط، تتقلص آلامها أمام دهشتها مما تمر به.

لم تكن تعلم أن ما يحدث لها كان يحدث مثله وأكثر في نفس التوقيت، لـ «چو» ابن عمها مصطفى الجندي، و«زين» ابن عمتها، رغم ما بينهم من مسافات.. رغم أن أحدهم لا يعلم باسم الآخر أو مكانه، فلم تكن ثمة

Scanned by CamScanner

علاقة تذكر بين أسرة سعيد الجندي وأسرة شقيقه مصطفى الجندي وأسرة شقيقتيهما هناء الجندي، يعلم كل منهم أن هناك أقارب له في مكان ما على أرض مصر، لا يهتم أحدهم بمعرفة التفاصيل بسبب تراكمات ورواسب مرعبة في ذاكرة الأسرة.

من سنوات كثيرة مضت يستقر مصطفى الجندي في مدينة السادس من أكتوبر بينما يستقر شقيقه سعيد الجندي في مدينة الإسكندرية، تظل أختهما هناء الجندي مع زوجها وأولادها في قريتهم، مسقط رأسهم جميعًا، قرية «نزلة شرموخ» التابعة لمركز ملوي بمحافظة المنيا.

ما يزال صراخ هايدي محبوسًا بداخلها، حركتها مشلولة، أصوات مرعبة تحيط بها، تتسلل عبر خلاياها إلى داخلها مثل أسنة رماح أو أسنان كلاب مسعورة تنهش لحمها بشراسة، بسرعة تمد يديها لتسحب البطانية الثقيلة الملقاة بجانبها، مثل طفل صغير تختفي أسفل البطانية، تضغط أذنيها بشدة كي لا تصل تلك الأصوات إليها، تدقُّ بقدميها السرير، تضرب أي شيء، تود لو تُحدث أي صوت يلفت انتباه أمها، كرمة أختها، كرمة العزيزة الغالية، أدركت قيمة أُخوتِها الآن، تصرخ باسمها، لا يغادر صوتها حنجرتها.

في اللحظة التي تهدأ فيها الأصوات من حولها، تظهر أمامها صورة لفتاة في مثل عمرها تقريبًا، ملامحها غير واضحة، لكنها باكية، وجهها المحاط بما يشبه

الخمار الأسود يبدو فَزِعًا .. يستغيث من شيء ما، هذا الشيء المخيف يبدو وكأنه خلفها لكنها تحاول التحرك إلى الأمام كمن تسبح ضد تيار ماء هادر، تمد تلك الفتاة يدها إلى الأمام، بدا على أصابع يديها الاستطالة كأنها أصابع مطاطية، تذكرت الرجل المطاطي في فيلم fantastic four. فجأة تتلاشى صورة الفتاة مع تزايُد آلام «هايدي» حينما شَعرت بشيءٍ قوي يضغط عضلة قلبها، مثل يد عملاقة تعصر ثمرة برتقال، تتلوَّى من شدة الألم، فجأة تعود صورة الفتاة المستغيثة لتسيطر تمامًا على تركيزها، تتزايد دهشتها حتى تصل حد الفزع وهي تنصت إلى همس الفتاة تناديها باسمها:

– هايدي ..

قالتها باستعطاف هامس، رجاء رهيب حَمَلته نبرات صوتها، تستغيث بها .. دموعها تسيل سوداء على وجنتيها، خصلات شعرها الفحمي اللامع مبعثرة في كل مكان، صدرها ينتفض تحت ملابسها الشفافة، تتوارى تفاصيل الجمال خلف الرعب، و هي مرعوبة، تتأمل الفراغ حولها ..

مَن هذه الفتاة؟ ولماذا تستغيث بهذا الشكل؟ وممن تستغيث؟ وكيف لها أن تعرف اسمها؟!

تتألم هايدي .. تصرخ .. تشعر بطائر الموت الرهيب يقترب بمخالبه القوية .. يتزايد صراخها.

Scanned by CamScanner

(٧)

«چو»

كان جزء واحد من عشرة أجزاء من الثانية كافيًا لأن تشاهد فيه إلهام حلمي ابنها جمال جالسًا فوق سريره عاريًا تمامًا كما ولدته و قد سالت الدماء في أكثر من مكان من جسده..

أمامه وعلى بُعد خطوة واحدة يجلس والده .. زوجها الراحل مصطفى الجندي .. بينهما .. فتاة عشرينية عارية تمامًا، تنام على ظهرها وقد نفر ثدياها إلى أعلى بينما تجتمع أياديهما فوق بطنها المبسوط بينهما .. آخر ما شاهدته قبل أن تفقد وعيها تلك النظرات النارية التي انطلقت صوبها من عيني مصطفى الملتهبتين مثل قصعتي جمر.

ينظر «جمال» نحو والدته بدهشة، لقد فتحت الباب فجأة ثم وقفت لحظة تتأمل، تتكاثر على وجهها أمارات الفزع والرعب قبل أن تسقط أرضًا، يقفز

Scanned by CamScanner

من فوق سريره بحركة لا إرادية كي يتلقفها قبل أن تصطدم بالأرض فتصاب بأذًى، لكن سقوطها كان أسرع منه، إن لم يكن سقوطها نتيجة فَقْدها الوعي لكانت فقدته بالفعل بعد أن ارتطم رأسها بالبلاط محدثًا دَوِيًّا عظيمًا.

يحملها بصعوبة إلى سريره، دماء تسيل من رأسها تلطخ ثيابه، بسرعة يأتي بمنشفة ليكتم بها الجرح، يمسح وجهها الذي غَرِقَ في عرقه، يسحب خصلات شعرها إلى أعلى ليكشف عن وجهها، لا يعلم ماذا حدث لها بالخارج ولماذا ظهرت على وجهها علامات الرعب فجأة؟! هو مَن استيقظ مفزوعًا منذ لحظات وقد أطلق صرخة رعب هائلة، يجلس في مكانه فوق سريره وهو يحاول تذكُّر مَن هي الفتاة التي أتته في نومه تناديه باسمه وما هذه الوحوش الضارية التي تحوم حولها لتنهش لحمها بهذا الشكل.

ما يمر به في الأيام الأخيرة كان أكثر من أن يتحمله، وهو الشخص الذي لم تكن له أي عداوات أو اتجاهات نحو إثارة المشكلات، يعيش حياة هادئة مسالمة، منذ طفولته، وإبان ما أثير حول مقتل والده، لم يتحرك أو حتى يفكر في أن يتحرك مستقبلًا خطوة واحدة بحثًا عن القاتل، بالطبع لصغر سنه في هذا التوقيت فلم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من عمره، لكنه حتى لم يضمر بداخله رغبة في معرفة القاتل مستقبلًا، يستسلم لما تفرضه عليه طبيعة

Scanned by CamScanner

اللحظة، فهناك حدود لتمرده لا تتخطى إطار مجموعة أصدقائه .. يترك الشرطة تمارس عملها، تتم التحقيقات، بعد فترة قليلة يتم الانتهاء إلى أن القاتل مجهول، تُحفظ القضية.

الحقيقة التي لا يدركها جمال نفسه أنه يتعامل مع الحياة بمنطق المُشاهِد، يجلس على هامش الحياة يتابع ما يحدث أحيانًا مستمتعًا وكثيرًا متأففًا، حتى عندما يقضي معظم أوقاته مع شلته في الجامعة أو مقاهي وسط البلد، يكون معهم جسدًا بينما تجلس روحه هناك على مقعد بالقرب .. أو بشكل ساخر تجلس فوق فرع شجرة تتابع ساخرة.

لم يكن يجذبه فكرة الوجود في المقاهي القريبة بمدينة أكتوبر، جلسته في المقهى لم تكن لاحتساء المشروبات أو مقابلة أفراد الشلة، يرغب في مكان له خصوصية وعبق خاص يلتقطه من لُجة بحر أفكاره، قلب القاهرة، البنايات المحيطة وجدرانها، تلك النقوش والتماثيل التي تزينها، يتأملها باستمرار، تماسيح وأسود وأفاعٍ ضخمة، أكانت تلك النقوش والتماثيل للزينة أم هي تعاويذ للحماية؟ حتى ألوانها التي ضاعت على مر الزمن كانت تحمل أكثر من معنى.

لم ينجح جمال في الوصول إلى قلب «سلوى» الفتاة الوحيدة التي عشقها .. حينما التحق بالجامعة يشاهدها للمرة الأولى، يقف مذهولًا، يتعلق بها

Scanned by CamScanner

بشكل غريب، فُتِنَ بشفتيها، عيناها الواسعة خجلى، خصلات شعرها المنسدلة حول وجهها مثل قمر فضي في ظلمة الليل، في البداية بادلته الابتسام والكلمات، كانت تأنَسُ بوجوده، لكنها لم تقرر يومًا أنها تبادله نفس المشاعر، مشاعره هو فياضة، تكفي لأن تُشبع عشر فتيات نهمات للحب، تمر الأيام على هذا المنوال حتى ينتهي العام الدراسي الأول ويرسب «چو» وتنجح سلوى، تتزايد الفجوة بينهما .. تتهرب منه ليتألم هو.

يزهد في تفاصيل الحياة حتى يفقد أمله، يترنح بين علاقات سطحية، يحاول التعلق بغيرها .. يفشل، بعد فترة يتعلم تحييد العلاقات، أن يتعامل مع الفتيات مثل تعامله مع الفتية، يلقى قبولًا واسعًا بنظريته الجديدة، الفتيات لا يخشينه فيقتربن منه، تسير به الأيام على هذه الوتيرة حتى يأتي دوره فيما لا يعلم عنه شيئًا في عالم اللعنات فيسقط إلى قلب بئر مظلمة تحتويه بفزعها الرهيب.

يتوقف نزف الدم من رأس والدته، يُبلل منديلًا بزخات من عطره الأثير، يمرر المنديل برفق أمام أنفها ذهابًا وإيابًا عدة مرات، حتى تشهق مرة ومرة قبل أن تفتح عينيها الثقيلتين لتجد ابنها جالسًا إلى جوارها يبتسم لها في وُدٍّ و هو يرتدي ملابس نومه كاملة، يعود إليها تركيزها بشكل تدريجي يقابله

Scanned by CamScanner

ذهول متصاعد ورعب يمتد تأثيره إلى أطرافها، تتأمل الغرفة حولها باحثة عما كانت تراه قبل أن تسقط في بئر اللاوعي .. لا تجد أي شيء .. كل الأمور طبيعية، ماذا يحدث؟!

تتصارع الأفكار في رأسها حتى إنها تشعر بآلام عظيمة، تستند على مرفقيها لتجلس، تشد عضلات جسدها، تشعر بألم مضاعف في مكان محدد برأسها، تتحسس المكان لكن «چو» يبعد يدها مشيرًا إلى وجود جرح كبير وقد أوقف نزف دمه بصعوبة.

يأتيها بكوب ماء ترتشف بعضه ثم تبدأ في سرد ما مرت به في كابوسها، الذي ما شعرت به كابوسًا، إنما يماثل الحقيقة تمامًا، حتى استيقظت على الصرخة المدوية.

تصف له ما شاهدته بالتفصيل حينما فتحت باب حجرته، ينصت إليها بقلب وَجِلٍ، يفزع من تلك الصورة التي وصفتها حينما فتحت باب الحجرة، ما شاهدته في الحجرة لم يكن كابوسًا، كانت مستيقظة تمامًا وشاهدت تلك الصور المفزعة!

الكوابيس لا تأتي من مكان ما ليتم توزيعها على أصحاب المنزل في نفس التوقيت، لا شك أن هناك أمرًا ما يحدث ويحتاج إلى تفسير حقيقي .. بل

Scanned by CamScanner

يحتاج إلى مواجهة .. الصمت والانتظار قد يصلان بهم إلى نقطة لا يمكن الرجوع منها أبدًا.

- ماذا يحدث لنا يا أمي .. ولماذا يحدث الآن؟!

تتلقف يديه بين راحتيها، تجذبه إلى صدرها لتحتويه في حنان، لا تملك إجابات، لكنها لن تتركه ليضيع من بين يديها، تتجول بعينيها في المكان باحثة عن كلمة تُلقي بها نحوه لتبث في قلبه طمأنينة، تستقر نظراتها على المرآة العريضة أمامها .. تشهق .. تنتفض وهي تجذب ولدها بقوة بحركة لا إرادية، ترتد مفزوعة إلى الخلف وهي تكتم صرخة كادت تشق صدرها.

مصطفى الجندي .. زوجها الراحل .. هناك في المرآة .. يجرُّها من شعرها على أرض صخرية تشقُّ منطقة المقابر، في يده الأخرى سكين حاد يلمع في ظلمة الليل .. تشاهد ما يحدث وكأنها تشاهد فيلمًا سينمائيًا على شاشة عرض، الصورة واضحة وكأنها HD ثم تختفي فجأة ويعم الظلام قبل أن تعود ثانية.

فجأة يتوقف مصطفى .. ينظر ناحيتها .. ناحيتها هي التي ترتعد فوق السرير و تضم ابنها مبهور الأنفاس الذي لا يعي شيئًا مما يحدث، مصطفى الجندي يخترقها بنظراته بينما يجر مثيلتها من شعرها بحركة تلقائية وكأنها جزء

Scanned by CamScanner

مُعلّق بيده، تنكمش في مكانها أكثر، ترتعد وتنتفض رعبًا .. نظراتُه ملؤها الحقد والكراهية.

أما هي .. إلهام .. الموجودة في المرآة، تعتدل تحت يديه لحظة وقد غاب وجهها أسفل خصلات شعرها ودماء متخثرة تغطي أماكن كثيرة منه، تهمس بكلمات مثل فحيح الأفاعي وهي تشير نحوها:

- أنتِ السبب.

Scanned by CamScanner

(٨)

«هايدي»

تفيق» هايدي» من شرودها على صوت شقيقتها الكبرى «كرمة» .. لم تكن في حال تسمح لها بأن تتبادل الحديث مع أحد منذ أن سمعت تلك الفتاة الغريبة في حلمها تناديها، تخيلتها في صورة ما، حتى إنها كانت تبحث عنها بين الوجوه في الشوارع، لو رأتها لشعرت بها وعرفتها.

تخرج خصيصى مع هبوط الليل تتمشى على الكورنيش بين مجموعة الأصدقاء جسدًا لكن عينيها مثل بليتين تدوران في طبق، تبحث عن فتاتها المستغيثة في كل اتجاه، تكاد تُجنُّ .. التفكير أضحى مثل ورم سرطاني يحرق جسدها، لا تعلم لماذا تفعل ذلك؟! لماذا استسلمت تمامًا وأضحت فريسة لأحلامها! لقد تركت هايدي المتألقة الباحثة عن السعادة إلى هايدي البائسة

Scanned by CamScanner

الباحثة عن فتاة غريبة ظهرت لها في أحلامها .. أوووف ... فلتذهب الأحلام إلى الجحيم! بهذا تحدثت إلى نفسها.

تجلس الآن في شرفتها شاردة .. لا تستطيع الهروب من تلك النظرات الحزينة المستغيثة، تنفض رأسها أكثر من مرة، لا تعلم كيف تهرب منها، ترفض أن تكون أسيرة شيء ما، مستقلة دائمًا أو تحاول أن تكون، شعورها الدائم بثقة غير عادية في نفسها وأنها خُلِقت لتكون محور اهتمام دائم من الآخرين، جعلها في ضيق تام من أن تهتم هي بآخر .. اهتمام يجذبها من دائرة ذاتها.

لم تكن تمر دقيقة واحدة على هايدي لا تفكر فيها في نفسها، تفاصيل جسدها، ملامحها .. إن لم تكن أمام مرآة تستغل انعكاس صورتها على صفحة تليفونها المحمول بشاشته العريضة، أو تقوم بفتح كاميرا الموبايل على وضع السيلفي لتشاهد تفاصيل الوجه، رموش عينيها، حاجبيها وكيف ترفع أحدهما لحظة الدهشة وإن كانت مصطنعة، وضع شفتها السفلى وكيف تزم شفتيها معًا، كيف ترفع أرنبة أنفها لأعلى .. تعشق هايدي نفسها بشكل مبالغ فيه، ترفض أن يأخذها أحد من ذاتها.

لكن ها هي الآن مأخوذة غصبًا إلى صور غريبة سيطرت عليها عبر أحلامها .. تحاول الاتصال تليفونيًا بأحد الأصدقاء .. تتجاذب أطراف الحديث عبر

Scanned by CamScanner

الشات .. تتصفح الفيس بوك .. تلعب على الموبايل أي GAME .. لكن تفكيرها في النهاية يتمحور حول نقطة واحدة كأنها مغناطيس كوني ضخم يجذبها نحوه بقوته الأسطورية.

يبدو أن كرمة واقفة مكانها منذ مدة، علامات الدهشة تبدو على وجهها وهي تتساءل عن سبب شرود شقيقتها إلى هذه الدرجة:

- لم تشعري بوجودي .. ولم تشعري بكلماتي؟! من ذا الذي يأخذ عقلكِ إلى هذه الدرجة؟!

توارى هايدي ما يعتلج بصدرها بابتسامة بدت خلالها مثل زهرة جافة .. تمد يدها نحو كرمة لتجلسها إلى جوارها فوق الكنبة الصغيرة التي تتسع لفردين في البلكونة.

تطيعها كرمة وهي تتمنى أن تشغلها أختها عما ألمَّ بها مؤخرًا، لن تستطيع كرمة أن تحكي لها عن سرها الخاص الذي تخفيه عن الجميع منذ سنوات .. سوف تتحدث معها في أي شأن المهم أن تخرج هي من تلك الدائرة الفكرية الصغيرة جدًّا المماثلة لعقدة حبل المشنقة، تكاد تخنقها وتُفقدها حياتها كلما أمعنت التفكير.

Scanned by CamScanner

كيف حدث ذلك؟! كل هذه المتعة تتحول إلى حالة عبثية جنونية يقودها إليها كائن خرافي .. حاولت أكثر من مرة أن تُقنع نفسها بأن ذلك مجرد كابوس ولا صلة له بالحقائق التي قرأت عنها خلال الأيام الماضية حول عشق جني لأنسية، الكثير من الحكايات قرأت عنها .. لكن لا .. هي ليست كذلك والدليل على ذلك أن ضررًا ما لم يُصِبها حتى الآن، لم تُمس مسًّا شيطانيًّا ولمَّا يذهب عقلها أو حياتها.

تجلس بجوار شقيقتها ولم تكن تعلم أنها تحمل ثقلًا مثلها وتتمنى لو تُلقيه نحوها.

تشرد كرمة لحظات، يتردد في الأفق صدى ضحكته الساخرة .. بل ترتسم صورة ذلك الكائن البشع على صفحة الفضاء أمامها مثل صورة على شاشة عرض عملاقة، تفزع وبصرها مسلط على الفضاء أمامها، تتحرك يدها ببطء تبحث عن يد شقيقتها تمسك بها كي تستجدي لحظة قوة، تتأملها هايدي ثم تتبع نظراتها إلى الفضاء فلا تجد ما يستدعي مثل هذا الفزع، تتساءل هامسة عما يحدث، لا تجيبها أختها، كانت مأخوذة كلية نحو هذا الذي يتحدث إليها فكريًا قائلًا:

– لستُ كائنًا خرافيًا يا معشوقتي الأولى والأخيرة.

Scanned by CamScanner

يضحك بعدها ضحكة تهز المكان وتشق الفضاء حتى تخيلتها كرمة أنها وصلت إلى عنان السماء، تفزع .. تنكمش حتى تصير مثل طفلة صغيرة، تفيق وتعود إلى المكان، تتذكر هايدي .. تلتفت نحوها بحركة لا إرادية لتشاهد رد فعلها على تلك الصورة المرتسمة على صفحة الفضاء المواجه، لم تجد أي تغيير قد طرأ على ملامحها غير فزعها عليها، الصورة لا يراها غيرها، تهزُّ رأسها بشدة، تنفضه عنها تمامًا وتجبر نفسها العودة إلى المكان، ترسم على وجهها بسمة طفولية وهي تهرب من الصورة البشعة إلى صدر أختها قائلة بكلمات تماثل هيئتها:

- لو أنام على صدرك وتحكين لي أي حكاية يا هايدي .. كوني أنتِ الكبرى ولو دقائق.

تندهش هايدي مما تفعله شقيقتها الكبرى، كم هي أحوج لأن ترتمي على صدرها لتشعر بشيء من الأمان، لكن لا مفر الآن من أن تمسد شعر كرمة بهدوء وتسرد لها بعض الحكايات، وهي صاحبة خيال خصب ولن تعدم الوسيلة في العثور على قصة تثير بها تفكير أختها، لعلها تخرج من آلامها هي أيضًا.

تخرج كلماتها مشتتة، الحكايات غير مترابطة، كأنها تحكي قبل أن تذهب في النوم فيثقل لسانها وترتبك الصور أمام خيالها ويتحول المحب إلى خائن،

Scanned by CamScanner

القاتل إلى مقتول، الفقير يعطف على الأغنياء .. حتى تفيق فجأة على لسانها الذي يتحرك وكأنه لا يخصها ليسرد قصة حلمها والفتاة التي شاهدتها تناديها مستغيثة.

ترتبك كرمة لحظات وهي تتابع باهتمام ما تتحدث به شقيقتها، في البداية تخيلتها تهذي بخرافات كي تسليها، لكن ما إن وصلت هايدي إلى تفاصيل دقيقة تعلمها كرمة جيدًا حتى اعتدلت لتواجه أختها وقد تملّكها فزعٌ رهيب، لا تعلم كيف تحركت يديها لتمسك بيدي أختها الصغرى وهي تتأملها بدهشة رهيبة، تنتظر حتى تنتهي من كلماتها الممزوجة برعب حقيقي حتى إنها كانت ترتجف وكأنها تعيش نفس اللحظات مرة ثانية.

تتصارع الكلمات بداخل كرمة، لا بد أن تُخرج ما بداخلها حتى لا تنفجر، لكنها تحاول كبح لسانها .. يجب ألا تُخبر أختها بأنها مرت بنفس التفاصيل تقريبًا، فهذا يؤكد أن هناك شيئًا ما يحدث .. شيئًا مرعبًا .. لو أمسكت و لم تُفصح لاستطاعت أن تُخفِّف عن شقيقتها الصغرى، بدأت تتماسك لحظات وهي تربت على يديها وتقول:

- مجرد أحلام يا حبيبتي .. لا تأخذينها مأخذ الجد .. فأنا .. أنا ..

لا تعلم كيف تحول تفكيرها، كيف تحرك لسانها لتحكي لأختها عن حلم مُماثِل وأن هناك مَن استغاث بها أيضًا، ثم تنطلق في سرد تفاصيل العاشق

Scanned by CamScanner

الآتي من عالم اللامرئيات .. عالم الفزع والرعب .. كائن ناري يكاد يحرقها لولا عشقه لها .. لكنها - وهي المرعوبة - تخشى يومًا يتحول فيه عشقه إلى نقمة فيحرقها في لحظة واحدة.

تفزع هايدي و هي تلتصق بشقيقتها ..

ترتعد كرمة وهي تكاد تنصهر في جسد أختها.

فزع هايدي كان سببه تأكيد الحدث وأن هناك أمرًا رهيبًا يحدث ..

فزع كرمة كان بسبب تلك الصورة البشعة التي ظهر بها ذلك الكائن الخرافي على صفحة الفضاء أمامها وكأنه يؤكد لها مخاوفها حال رفضها الخضوع له.

تحتضن شقيقتها وتجذبها كي يتركا المكان، في الداخل قد تشعران بشيء من الأمان.

لكن ..

في الداخل ..

لا أمان ..

يتجسد صوت الرعب عبر مقطوعة موسيقية هادرة يعزفها أعضاء فرقة الصمت الملازمة لمثل هذه المشاهد المرعبة، وقفتا مكانهما وكأن أقدامهما

Scanned by CamScanner

التصقت في الأرض، توقفت صدورهم عن التنفس، تحول جسداهما إلى تمثالين من الشمع الأبيض بعدما هربت الدماء من وجهيهما، أصوات العزف المرعب تدق آذانهما تكاد تمزقها، عيونهما مثبتتان على مكان واحد في منتصف الصالة..

هناك .. في المنتصف تمامًا .. أمهما ملقاة على بطنها غارقة في بركة دماء ..

جسدها ملقًى على الأرض بطريقة غريبة، أطرافها الأربعة في أوضاع مختلفة مع تشنج ملحوظ تشير إلى الاتجاهات الأربعة، منكبة على وجهها، شعرها مبعثر في أكثر من اتجاه. تصرخان في لحظة واحدة:

– ماما!

وقفتا مذهولتين تنظران نحو الجسد الممتلئ، نحو الدماء المحيطة بالرأس، لا تجرؤان على الاقتراب، بعد لحظات طالت مثل يوم كئيب تتحرك الأعين، تتبادلان النظرات، تسعى الأيدي لتتعانق هاربة من رعب اللحظة، تسقط كرمة على ركبتيها بجوار جسد أمها وخلفها هايدي ملتصقة بها، تركز نظراتها على منطقة الظهر، تبحث عن حركة تدل على حياة، بالفعل .. تلحظ ارتفاع ظهر أمها إلى أعلى ثم يهبط بهدوء شديد قبل أن يرتفع مرة أخرى .. تقبض كرمة على يد أختها تبثها ذلك الجزء من الطمأنينة الذي سرى بداخلها، تقول:

– إنها تتنفس يا هايدي .. تعالي لنحملها.

Scanned by CamScanner

بصعوبة بالغة (نتجت عن ثقل جسد الأم الممتلئ، بالإضافة إلى هروب قوتهما، وأخيرًا خوفًا من اتخاذ أي حركة يكون من شأنها إلحاق الضرر بأمهما المصابة) يحملانها إلى أقرب مقعد.

الرأس ملقى خلفًا على مسند المقعد وقد شُج في منطقة الجبهة، جُرح غائر ما يزال يقذف بالدماء، تشير «كرمة» إلى أختها بأن تأتي بأي شيء كي تُوقف النزيف، تتحرك هايدي بسرعة لاحظت خلالها أن جسدها ثقيل جدًّا كمن تم تخديرها، لا تمتلك أي قوة .. تجر قدماها .. ترفع ذراعها الثقيلة حتى تحمل منشفة تعود بها إلى شقيقتها التي تلقتها بلوم، فقد تأخرت عليها، ترفع كرمة يدها التي غمرتها الدماء عن الجرح، فقد حاولت كتمه بيدها، تضع المنشفة فوق الجرح وتضغط بيدها الأخرى بينما ترفع كفَّها الملطخة بالدم أمام وجهها، تتأمله مشدوهة .. تشاهدها هايدي فتتأمل معها دماء أمها على كفِّها، مثل جزار ذبح ذبيحته وأغرق كفَّه في الدماء ليطبع بها صورة الكف على الحائط.

هايدي ما زالت تحت تأثير الصدمة، لم تكن قد خرجت من حالة الرعب التي ألَمَّت بها حينما أكدت لها شقيقتها وجود أمر غريب يحدث، تهربان بحثًا عن لحظة أمانٍ لتجدا الأم غارقة في الدماء هكذا، ماذا حدث؟ بل ماذا يحدث؟! لا تعلم ..

Scanned by CamScanner

تقف مشدوهة .. تتأمل أمها وأختها تحاول وقف نزف الدماء، ولكنها لا ترى أي شيء، تتداخل الصور أمام عينيها بشكل غريب وسريع، تحاول الإمساك بأي صورة، لا تستطيع بسبب سرعة التداخل وتغيير الاتجاهات، تأتي الصور من الأعلى لتختفي في الأسفل ومرة تأتي من اليمين كي يبتلعها اليسار، ومرة ثالثة ورابعة تأتي الصور من كل الاتجاهات لتتصارع، وكأنها أهل قرية أصابتهم لوثة فتحركوا في كل الاتجاهات ضربًا وحرقًا وقتلًا حتى ارتفعت ألسنة اللهب إلى عنان السماء، وغاصت الأقدام في بحر دماء، هذه الصور البشعة التي استغرقت هايدي تأخذها بعيدًا عن المكان حتى إنها لم تسمع نداء كرمة المتكرر وهي تطلب منها أن تأتي بقِدْر ماءٍ ومنشفة أخرى.

تفيق هايدي على يد كرمة تجذبها، تعود إلى المكان مفزوعة وهي تتأمل أختها قبل أن تنفجر باكية، كانت ترتعد من شدة الخوف، لا تمتلك القدرة على التحكم في انفعالها أو صوت بكائها، تتناثر الكلمات من فمها متقطعة غير واضحة، ينتفض صدرها وتنحشر أنفاسها في صدرها فيخرج الصوت مثل حشرجات المحتضر، تنهمر دموعها وتتشنج أطرافها، لا تقوى قدماها على حملها، تتراخى قُدرتها على التحكم في ذاتها، تسقط أرضًا، تلحق بها كرمة لتمسكها من جانبيها، تتلقفها على صدرها لتجرها إلى المقعد الموجود خلفها.

Scanned by CamScanner

لا تعلم كرمة من أين أتتها تلك القوة لتحمل هايدي حتى هذا المقعد، لا تعلم كيف صمدت حتى اللحظة بدون أن تنفجر أو تسقط فاقدة الوعي هي أيضًا! لا تعلم ماذا يحدث .. لكن عليها أن تُواجِه ما يحدث أيًّا كان هو.

تأملت هايدي لحظة فوجدتها قد غابت عن الوعي وما تزال أنفاسها مضطربة وصدرها ينتفض مثل حمامة أصيبت بطلق ناري وتصارع قبل أن تفارق الحياة. انتقلت نظراتها بين شقيقتها وأمها .. تضغط شفتيها بعنف حتى كادت تمزقهما، تأملت الفضاء أعلاها وكأنها تخاطب ذلك المجهول الذي يتسبب في كل ما يحدث حولها، تتذكر صورته البشعة التي ظهر عليها في نومها ومنذ دقائق على صفحة الفضاء في الخارج .. تصرخ:

- آآآآآآه ..

لو أن هناك أحدًا بجوارها يقف على قدميه ويعي لسقطت هي في غيبوبة لا تفيق منها، لكن الشعور بأهمية دورها في هذه اللحظات، وهو شعور خفي يسكن قلبها، جعلها تقاوم تلك الرغبة في فقد الوعي، أو بالأحرى الرغبة في الهروب من الوجود.

تذهب إلى المطبخ تجرُّ قدميها لتحمل الماء المثلج، تأتي بمناشف، تحمل أول زجاجة perfume تجدها في طريقها، تعود إلى الصالة، تضع حملها على

Scanned by CamScanner

المنضدة، لا تعلم بمن تبدأ، بحركة آلية تضع فوطة صغيرة في الماء المثلج، تعصرها ثم تمسح بها وجه أمها، يظهر لون بشرتها الأبيض كلما مسحت الدماء، بقع صغيرة فقط متخثرة ملتصقة ببشرتها، لم تحاول إزالتها، تقلب الفوطة على الجهة الأخرى ثم تضعها فوق الجرح الذي تجلطت الدماء على فوهته. تعود إلى زجاجة الـ perfume بيد مرتعشة تحملها، تقترب من شقيقتها التي ما زالت تنتفض من صراع داخلي مرير، تنثر زخّات قليلة بالقرب من أنفها، تشهق هايدي بشكل مضطرب، تتحرك ذراعها اليمنى بهدوء لترفعها أمام أنفها محاولة إيقاف تلك الرائحة المتسللة بداخلها مثل جيوش نمل، تفتح عينيها تتأمل المكان وما تزال غارقة في دهشتها.

تبتسم لها كرمة بجزء من ابتسامة باهتة مشجعة إياها، تمسح لها وجهها بفوطة أخرى مبللة بالماء المثلج، تقول:

- هايدي .. عليك التماسك يا حبيبتي .. لا تتركيني وحدي .. يجب أن نتصرف بحكمة لإنقاذ أُمِّنا.

تومئ هايدي برأسها علامة الموافقة، تسحب عدة أنفاس متتالية بانتظام حتى يهدأ صدرها، تحرك أصابعها المتشنجة فتتحرك الدماء في ذراعيها، ترفعهما إلى أعلى وأسفل وأمام وخلف، فيذهب منهما الخدر وتعود إليهما

Scanned by CamScanner

القدرة على الحركة وإن كانت ضعيفة، تُمسك بيد أختها كي تطمئنها إلى عودتها وإن كانت ترغب في أن تستمد منها جزءًا من قوة، تبتسم لها كرمة وهي تجذبها، تقول وهي تشير نحو أمها:

– توقف نزف الدم وانتظمت أنفاسها .. لنحاول إفاقتها.

توافقها هايدي بإيماءة من رأسها، تقترب لتقف بجوارها أمام أمهما، تحمل كرمة الـ perfume و تفعل ما فعلته مع هايدي من دقائق .. لكن الأم لا تستجيب، تطلب من هايدي الاتصال بالإسعاف بسرعة .. تحمل الفوطة من فوق جرح الأم، تشعر بسخونتها في يدها، تبللها مرة ثانية في الماء المثلج، تعصرها ثم تمسح بها عدة مرات ثم تنثر زخات العطر، تعود هايدي لترفع يدي أمها إلى صدرها تفركهما حتى تستدعي الدماء الهاربة بينما تحاول كرمة تنشيط الدورة الدموية لأمها، تضغط على جانبي رقبتها و خلف أذنيها برفق، تهمس برفق:

– ماما .. ماما .. أفيقي يا حبيبتي .. نحن إلى جوارك .. كرمة و هايدي .. ماما!

تمر عدة دقائق وهما على نفس الحال حتى تبدأ الأم في الاستجابة لنداء ابنتيها، تتحرك أصابعها مع جفونها .. بوهن رهيب تعود إلى المكان، الصورة

Scanned by CamScanner

أمام عينيها باهتة متداخلة، الأصوات وكأنها تأتي من قاع بئر لا نهاية لها، بعد لحظات تستطيع تحديد وجه كرمة ومن خلفها هايدي، تحاولان رسم ابتسامة وإن بدت ضعيفة باهتة لتعبر عن داخلهم المرتبك.

بصعوبة تتناول الأم بعض كوب اللبن الذي أتت به كرمة لتعود إليها بعض طاقتها التي ذهبت مع الدم السائل حتى تأتي سيارة الإسعاف، لا بد أن يتم نقلها إلى المستشفى لتقطيب الجرح واتخاذ ما يلزم، علامات التساؤل على وجه ابنتيها تكاد تتجسد كلمات، ترغبان في معرفة ما حدث لأمهما.

تترك الأم الكوب من يدها وهي تتأوّه من فرط آلامها، تتحسس رأسها، تنظر إلى كرمة طالبة منها أن تساعدها في الاسترخاء حتى تأتي الإسعاف، إنها تشعر بإرهاق شديد، تساعدها كرمة بهدوء، تمد هايدي يدها لتساعد ولا تستطيع كبح السؤال:

- ماذا حدث يا ماما؟

تتألم الأم وهي تفرد ساقيها على طولهما، تُجيبها بوهنٍ:

- لا تتعجلي يا هايدي .. الأمر فظيع .. ولن نتحمل الآن مجرد تذكُّره.

تتقبل هايدي كلمات أمها مثل خنجر يتم غرسه في جُرح قديم لم يندمل فيزيد من صرخات آلامها، هي الآن تودُّ لو تتعلق بأي بارقة تُخرجها من

Scanned by CamScanner

أزمتها الرهيبة، مَن يلتقطها من بئر النار التي تحترق بداخلها؟ ماذا يحدث حولها؟ ولماذا يحدث الآن؟ وكيف تخرج مما هي فيه؟ كيف تواجه ما لا تعلمه؟ كيف؟!

تسقط فوق المقعد فلا تمتلك قدمين قادرتين على حملها، تنظر نحو السقف هاربة من كل ما حولها، تشاهد صورة الفتاة مطبوعة على سقف الصالة تناديها باسمها بنفس نبرة الاستغاثة والرعب.

Scanned by CamScanner

(٩)

«زين»

لا يستطيع زين التحدث لمدة ثلاثة أيام متتالية، حالة يُطلق عليها أهل نزلة شرموخ «خَرْس الغُولة»، فمَن تمسُّه الغولة أو حتى تسحره بنظراتها النارية يصيبه الخرس لمدة لا يعلمها أحد، تطول أو تقصر وفقًا لرغبات الغولة، فهي التي تحدد ذلك في اللحظة التي تصيب فيها ضحيتها.

بعدما أفاق زين من غيبوبته وجد نفسه على سريره في غرفته، في إعياء تام يتأمل الوجوه حوله، آخر شيء يتذكره تلك المرأة بشعة المنظر صاحبة الجسد الذي يناهز بناية خَرِبَة، عيناها مثل بئرين لا قاع لهما، تعقد يديها المشعرتين بكثافة على صدرها. لا يعلم ماذا حدث بعد ذلك، يسألونه عما حدث لكنه لا يستطيع النطق بكلمة واحدة، ذهوله من خرسه أفقده القُدرة على التركيز.

Scanned by CamScanner

في اليوم التالي للحادث ينتشر خبره في القرية بأكملها، يعوده أهلها جماعات جماعات، لا ينقطع فيض المواسين، وعلى كثرتهم .. ومع انتشار خبر أن زين قد أصابه خرَس الغولة وأنه لا يستطيع النطق، فإن كل جماعة كانت تزوره يسأله أحدهم عما حدث، فضولهم يقتلهم، لكن نظرات الدهشة المعقودة على وجه زين الأصفر تجعلهم يمصمصون شفاههم ويعلقون بأنه قَدَرٌ ومكتوب ويتذكرون حكايات القرية عن ضحايا الأم الغولة وأسرتها التي تسكن الساقية المهجورة.

وكما يحدث في كل مرة يصاب فيها أحد أبناء القرية بالأذى، تعلو الصيحات المطالبة بهدم الساقية المهجورة وإزالتها من فوق سطح الأرض وتمهيد مكانها وبناء جامع في نفس مساحتها التي تناهز قيراطًا، فلا حديث لأهل القرية إلا هذا الموضوع، ولا بد أن يتم اتخاذ الخطوات الفعلية اللازمة لتحقيق هذا المطلب الذي أضحى ضرورة لا مفر من تحقيقها، لكن أحد لم يجرؤ على التحرك خطوة فعلية حقيقية على أرض الواقع، داخل كل منهم منطقة يستقر فيها رُعب العمر و يخشى على نفسه من الأم الغولة وأسرتها، إنما هذه طبيعة القرية، كثيرٌ مَن يتحدث ويصيح من أجل إثارة الجميع، والكل يُثار، وفي داخل كل منهم رغبة واحدة و هي دفع الآخر للتحرك على

Scanned by CamScanner

الأرض، ولن يتحرك أحد .. وسوف تنقضي الأيام وينسى أهل القرية أمر زين وخرسه والأم الغولة والساقية المهجورة حتى تأتي ضحية جديدة ويُثار الأمر ربما للمرة الألف.

«شيماء حسين شعلان»

خطيبة زين، فتاة نحيفة القَدّ وإن كانت تفاصيل أنوثتها واضحة بشكل جلي، أكثر ما يميزها هاتان العينان الواسعتان ذواتا اللون الأسود الفحمي الذي يتوسط وسادتين من مخمل أبيض، وحاجبان كثيفين يبرزهما لون وجهها الأبيض، أيضًا أسنانها المصفوفة مثل لآلئ تحوطهما شفتان رائعتان، رشاقة جسدها سر خفي يزيدها جمالًا، سهلة العشق والحب فيما يبدو للرائي، وذاك ما جعل قلب زين يميل نحوها في البداية، لكن ما يكتشفه مع مرور الوقت أنها عصبية كثيرة الانفعال، ابتسامة تُسعدها وتجعلها رائقة المزاج معتدلة الفكر، وابتسامة ثانية توترها وتعكر صفوها، الأمر يتوقف على اللحظة الآنية وكيف تتلقى الابتسامة.

في صباح اليوم التالي لحادثة زين مع الأم الغولة تذهب شيماء بصحبة أمها لزيارة زين، لا تستطيع أن تتحدث عن قلقها وتوترها الحقيقي من أجله بسبب وجود ذلك العدد من الأهل والأقارب في الحجرة، لكنها ترسل إليه،

Scanned by CamScanner

عبر النظرات، رسائل شوق، يتمنى لو يسألها عن سبب انفعالها في اليوم السابق ولماذا تركته ودخلت غرفتها، فهو لم يفعل ما يغضبها لكنه صامت مذهول، ولو حدثت معجزة ونطق زين وسألها لن يجد عندها إجابة شافية، هي نفسها لا تعلم.

الحقيقة التي تعرفها أنها كانت تجلس معه يتبادلان الحديث العادي مع بعض كلمات الحب بين اثنين على وشك الزواج، لكنها فجأة تشعر كأن دفعة هواء قوية تمر بالقرب من أذنها اليسرى، بعدها تشعر بسريان شيء غريب في عروقها، يلي ذلك لحظة ذهول عندما تشاهد زين أمامها وقد تغيرت ملامحه .. فقد طالت أذناه حتى أوشكتا على أن تصلا إلى أُذني حمار بينما ينمو شعر كثيف ليغطي وجهه، تتوقع أن تنمو أسنانه بشكل سريع أيضًا، تنظر إلى أظفاره هل استطالت أم لا .. تنفض رأسها بشدة لتعود إلى المكان فتجد زين يبتسم لها وما يزال يتحدث في نفس الأمر الذي شردت عنه منذ لحظات، لكن داخلها يتألم من تلك الصورة .. بعد دقائق تشعر بذلك الشيء الذي يسري في جسدها ثم تتبدل ملامح زين .. تنتفض مكانها ثم تجلس .. تعود صورة زين إلى طبيعتها .. تتوتر شيماء وتخشى أن تتكرر تلك الصورة البشعة مرة أخرى فتترك المكان حائرة لا تعلم كيف تخيلته هكذا ولماذا؟!

Scanned by CamScanner

في اليوم الثالث يعود زين إلى طبيعته، يتحرك لسانه المعقود في يُسرٍ، تخرج الكلمات سهلة كأنه لم يكن مصابًا بخرس منذ لحظات، يسرد ما حدث للجميع ليؤكد الشائعات التي انطلقت في القرية حول الأم الغولة وما فعلته بزين.

مع غروب شمس هذا اليوم ينتشر خبر شفاء زين .. وكي يؤكد للجميع سلامته ويُوقف فيض الزيارات يذهب إلى المسجد الكبير في القرية لصلاة العشاء جماعة، يتحلق حوله الجميع يصافحونه ويسألونه عن خبره مثل عائد من سفر بعد عقْدٍ من الزمان.

هو بالفعل مجهد مثل عائد من رحلة شاقة، ذهوله الذي أفزعه ثم أخرسه كان أثقل من أن يتحمله جسده الضعيف، يتناول لُقيمات قليلة مما أعدته له والدته السيدة هناء الجندي، قبل أن تحتويه في رفق وهي تربت على ظهرة وتتخلل أصابعها شعره.

لم تشعر السيدة هناء الجندي بمثل هذا الفزع منذ ما يقرب من عشر سنوات، نعم هي عشر سنوات بالتمام والكمال قد مرت على تلك الكارثة الكبرى، تنفض رأسها بشدة .. إنها لا ترغب في تذكر تفاصيل تلك الكارثة مرة أخرى، أوشكت على محوها من ذاكرتها، إلا أن ما حدث مع زين قد أعاد

Scanned by CamScanner

تلك التفاصيل من القاع إلى السطح بشكل يكاد يجعلها حقيقة تحدث الآن، تحتضن زين وهي تشير إليه بأنه يجب أن يذهب إلى سريرة وسوف تُعد له كوب لبن دافئ ليساعده على الاسترخاء.

يتناول كوب اللبن من يد أمه ويمسُّها برفق، يتمنى لو تنام معه الليلة، تأخذه في أحضانها، يودُّ لو تحكي له بعض الحكايات حتى ينام، لا يريد أن تأخذه أفكاره إلى أطراف القرية وبالتحديد إلى جوار الساقية المهجورة، لكن الأم تخرج رغبة منها في أن تتركه ليستريح.

نصف ساعة قضاها زين متأملًا أمر شيماء وما طرأ عليه من تغيير، كم تمنَّى ألا تفارقه في أزمته! لكنها أتت لزيارته مثل أي شخص غريب، حتى الغريب عنه اقترب منه وحادَثَه بالكثير، أما هي فقد جلست بين الزائرين ولم تتحدث إلا بكلمات قليلة محايدة تمامًا .. و ..

تتداخل الصور أمام عينيه .. تختلط الكلمات وتتناثر الحروف .. يغوص زين في قلب دوامة .. لا يعلم كم مَرَّ من الوقت إلا أنه يشاهد بمنتهى الوضوح فتاة منكوشة الشعر باكية، تناديه باسمه بصوت منكسر خائف يأتي من بعيد، يتأمل زين الصوت ليتأكد من أنها تناديه هو .. يتكرر النداء .. تمد يديها نحوه عبر الفضاء الذي يفصلهما، يتأملها لحظات قبل أن ينكمش في مكانه فزعًا

Scanned by CamScanner

مما يشاهده خلف الفتاة، شيء من نار لا يميز تفاصيله، يقترب منها وهي تحاول الهرب منه صارخة باسمه أن ينقذها قبل أن تُمسك نيران ذلك الشيء بها .. يتأمل زين الفتاة جيدًا .. ملامحها ليست غريبة .. لقد شاهدها من قبل .. يفرك عينيه .. تحاول هي الاقتراب في اللحظة الأخيرة وقد علا صراخُها أكثر وأكثر.. يفزع زين عندما يشاهدها بوضوح ..

إنها شيماء حسين .. خطيبته.

Scanned by CamScanner

(١٠)

(چو)

مثل رسالة تأتي إلى الموبايل من رقم غريب لا نعرفه فتثير دهشتنا، نتصل بالرقم المرسلة منه فنجده غير موجود بالخدمة ليتركنا في حيرتنا، كانت تلك الرسالة الأخيرة التي أتت إلى «جمال» في حلمه الأخير.

يستيقظ منذ لحظات مبكرًا على غير العادة، لم يسقط فريسة في أحد الكوابيس كما كانت أيامه الأخيرة، مجرد أحلام طبيعية تختلط فيها الحقائق بالخزعبلات.

يرى نفسه يخطو فوق السحاب تارة وتحت سطح الماء تارة أخرى، يتحدث مع هذا في منزله ويرد على آخر يجلس بجواره في مدرج الكلية، فتاة تُبادله القبلات ثم تكشف عن أسنان حادة مدببة مثل مصاصي الدماء، وغير

Scanned by CamScanner

ذلك الكثير من تفاصيل مبهمة لأحلام وهذيان النائم، لكنه هادئ لا ينقبض له قلب كما كان يحدث له في البدايات ..

أما الرسالة الأخيرة قبل يقظته مباشرة كانت جملة قالتها فتاة تقف على مقربة منه، لا يشاهد تفاصيل وجهها، كانت تقف في فتحة الباب بينما يأتي ضوء النهار من خلفها، قالت:

- أنتظرك يا جمال .. أنتظرك يا ابن عمي..

رسالة تبدو حقيقية، ليست جملة عابرة في قلب حلم من بين ألف حلم، مَن ابنة العم هذه؟ ولماذا تنتظره؟ ولماذا ظهرت له بوجهٍ غارق في الظلام؟

يذهب إلى والدته في غرفتها فيجدها جالسة في سريرها وقد ظهر على ملامحها الإعياء الشديد، يبدو أنها لم تنل من النوم كفايتها، يجلس إلى جوارها فتأخذه في أحضانها مثل طفل صغير، في الأيام القليلة الماضية يجمعهما التوتر فيقتربان، النفوس ترقُّ وتتناسى أمر السوء وقت الأزمات فتتقارب.

يحكي لها حلمه الأخير، تتعجب .. لا علاقة بينهم وبين أسرة عمه «سعيد» الموجودة بمدينة الإسكندرية منذ سنوات، لقد انقطع خيط الرحم حتى قبل أن يُتوفَّى والده، كان سعيد على طرف نقيض من أخيه مصطفى، لكلٍّ منهما رغباته الخاصة التي لا تتفق مع رغبات الآخر.

Scanned by CamScanner

لكن .. كان هناك شيء خفي في قلب مصطفى لم يُفصح عنه لأحد ذات يوم وإن أدركته «إلهام» بعد قليل من زواجها بمصطفى، إنه رجل غيور بشكل غير طبيعي، يغار عليها من الجميع، ولو لم تبالغ لقالت إنه يغار عليها حتى من نفسه، ذات يوم قال جملة واحدة تُعبِّر عن مكنون ذاته:

– أنتِ جميلة بلا حدود يا إلهام .. وهذا ما يجعلكِ مطمعًا للجميع.

الحدث الرهيب الذي غرقت فيه نزلة شرموخ كاملة وجعل أهلها ينظرون ناحية عائلة الجندي بعيون مرتابة، بالإضافة إلى علاقات سعيد الجندي، شقيقه الشاب الوسيم، المتعددة جعلت مصطفى يتخذ قراره ببيع جزء عظيم من أرض ورثها عن والده المتوفى غرقًا منذ عشرة أعوام، لا يترك غير إرثه في منزل العائلة، يقرر أن يسافر بزوجته وطفلها جمال إلى تلك المدينة الجديدة، هناك لا يعرفهم أحد، لا أقارب .. لا جيران .. يستطيع في تلك العزلة أن يرتاح من سياط الغيرة التي تلهبه ليل نهار.

قبل وفاته بأيام وعند عودته من قريتهم «نزلة شرموخ» .. ولم يكن أحد يعلم أنه سافر إلى هناك، لقد أخبر الجميع أنه مسافر في مأمورية عمل إلى مدينة الغردقة، أخبر زوجته بأنه كان في زيارة لنزلة شرموخ، تبدو على وجهه علامات لم تشاهدها من قبل، إصرار .. قوة .. لا مبالاة .. لا تعلم .. لا تمر إلا أيام قليلة وتحدث الكارثة التي حلَّت بهم.

Scanned by CamScanner

من سنوات طويلة تتلاشى أخبار سعيد الجندي وأسرته، كل ما يعلمونه عنهم أن سعيد ترك القرية من بعدهم وسافر إلى الإسكندرية بعدما حمل إرثه ليبدأ حياته هناك.

تحاول إلهام شغل ابنها عن تفاصيل ذلك الحلم الغريب فتطلب منه أن يذهب معها إلى المطبخ كي يساعدها في إعداد الفطور، بالفعل تنجح في ذلك، يُمضي «چو» يومه بشكل هادئ، حتى إنها في نهاية اليوم تطلب منه مرافقتها للتنزه في الخارج وتناول المشروبات والحلويات ومشاركتها شيشة الفواكه إن رَغِب في ذلك.

بالفعل تأكل حلوى النابلسية وتحتسي المشروبات المثلجة، وتطلب شيشة العلكة التي تفضلها، تضحك ملء قلبها، تشارك جمال لحظات حاولت بقدر الإمكان جعلها جميلة كي تُخرجه، وتَخرج هي قبله، مما يُمرَّان به.

يتأملها «چو» كثيرًا حينما تضحك فتغمض عينيها وتسقط بعض خصلات شعرها على وجهها فترفعها بظهر كفِّها، ثم ترفع منديلها إلى شاطئ عينيها لتمسح دمعة صغيرة هاربة، لا يعلم ما سبب هذه الدمعة لكنه يتأمل روعتها، يودُّ لو يعبر لها عن حبه الشديد وخوفه عليها، إنه رجلها الوحيد بعد وفاة والده منذ سنوات، رفضت الزواج ووهبت حياتها من أجله.

Scanned by CamScanner

«كم أنتِ عظيمة يا أمي»، يهمس بتلك الكلمات حينما عادا إلى المنزل، قبل أن يفترق كلٌّ منهما إلى حجرته، لقد انتصف الليل، يستبدل ملابسه، يأتي برواية من درج جانبي كان قد بدأ في قراءتها منذ فترة ولم يُكملها، سوف يستعين بها ضد أفكاره المخيفة وتشعبها القاتل حتى يأتيه النوم.

بعد نصف ساعة بدأت الكلمات تسيل على الورق لتصنع دوامات حبرية سوداء، يهز رأسه أكثر من مرة كي يفيق، لكنه يذهب ليغرق في بحر النوم، لا يعلم كم يمضي من الوقت حتى يجد نفسه واقفًا في مكان غريب، بجواره شجرة معمرة، السيارات تمر بالقرب وكأنها صور كرتونية معلقة في طرف خيوط، السماء رمادية والشمس تحجبها سحابة صفراء تغطي الكون، درجة الحرارة مرتفعة رغم نسمات الهواء التي تشتدُّ أحيانًا، يفاجئ بضحكات تقترب، أربع سيدات أجانبيات يبدو عليهن أنهن ضمن فوج سياحي يزور المكان، تتراوح أعمارهن بين العشرين و الستين، تقترب منه شقراء ثلاثينية تسأله بإنجليزية هادئة:

- Are you a famous person appearing on TV?

يندهش من سؤالها حتى إنه يتأمل جسده، ما الذي يبدو عليه يجعله شخصًا شهيرًا يظهر على شاشات التليفزيون؟ تظهر ابتسامة خجلى وهو يتخيل أن

Scanned by CamScanner

ذلك السؤال يهدف إلى بدء حديث مثير، يحاول البحث عن كلمات إنجليزية في قاموسه ليجيبها بأنه ليس مَن تقصده، فهو لم يظهر على شاشات التليفزيون من قبل، تخرج كلماته ركيكة يدعمها بحركة يديه كأنه يخاطب فتاة صماء، يشرح لها وهو يتأمل ملامحها .. كم هي جميلة! جزء من شعرها الذهبي في ضفيرتين على الجانبين بينما باقي الشعر مُسدل على طبيعته، لون عينيها الأزرق مثل بحر بلا أمواج يتلألأ تحت أشعة الشمس الذهبية، أنفها الرفيع المعقوف بشموخ أعلى شفتين رقيقتين، يبدو أنه تأملها كثيرًا ولم يسمع كلماتها فصمتت في خجل، بينما تقترب منه أكبرهن سنًّا، قصيرة ممتلئة يبدو على ملامحها شبق، تتحسس وجهه بيد حانية، تفاصيل جسده، ينسحب إلى الخلف خطوة مستغيثًا بالشقراء كي تنقذه، بالفعل تجذبها من يدها ليتحرك الفوج في طريقه، تنزع السيدة الممتلئة يدها منها لتمسك به مرة أخرى وهي تقول:

- But I want to stay in his arms.

تود أن تبقى في أحضانه، تتعلق به وهي تشير إلى الاتجاه الذي أتت منه منذ قليل، ينظر «چو» فيشاهد فندق بالجوار، تطلب منه العودة معها إلى الفندق، يهز رأسه رافضًا، إنه مسحور بالشقراء، يمسك بيدها ليجذبها في حنان علَّ السيدة الممتلئة تذهب عنه، بالفعل تنجح خطته، ترحل السيدة

Scanned by CamScanner

بينما تترك الشقراء جسدها ليستريح على صدره، تقبله على وجنته اليمنى بهدوء قبل أن تهمس في أذنه بكلمات لم يدركها، فقد ذاب تحت لهيب قبلتها، يضمها أكثر، تنسحب بهدوء من بين يديه لتلحق بمجموعتها التي ابتعدت خطوات، تلتفت نحوه بعد لحظات .. يُصعق مكانه .. لم تكن هي الشقراء .. لقد تبدلت في لمح البصر إلى الفتاة الأخرى التي أتته من قبل.

تغيرت ملامحها .. تبدلت النظرات لتحل نظرات الخوف .. تهمس بنفس الكلمات السابقة لكنها تزيد عليها هذه المرة قبل أن تتلاشى صورتها «أنا كَرمة» ..

ينتفض مكانه باحثًا في كل اتجاه عن الفتاة، لقد ظهرت له هذه المرة وكأنها حقيقة لا حلم، يفيق بعد لحظات ليدرك أنه كان يغوص في قلب أحلامه، تسقط الرواية من على صدره إلى الأرض محدثة صوتًا مزعجًا، يتناول كوب الماء بجواره، يشرب ماءها دفعة واحدة ليطفئ سخونة رهيبة كانت بداخلة، دهشته تكاد تذهب بتفكيره، هل حقيقي أن له ابنة عم في هذه السن وتُدعى «كَرمة»؟!

بعد عدة ساعات قضاها في التفكير المضني والبحث على شبكة الإنترنت والفيس بوك عن أكاونت يحتوي على معلومات تخص «كرمة» هذه .. لكنه لم

Scanned by CamScanner

ينجح في الوصول إلى معلومة، شعوره بالإرهاق وذلك الخدر الذي يسري في جسده جعله يغوص في النوم مرة أخرى بشكل أسرع .. يفزع حينما يشاهد ذلك الشيء الغريب يتجسد في المرآة قبل أن يخرج منها ليقف في منتصف الحجرة بعد أن يتحول إلى ذئب يعوي بصوت يفتك برأسه، الغريب أنه لم يشعر بذلك الرعب في داخله مثلما شعر به في المرات الأولى.

من بعيد يأتي صوتها تسأله يد العون ثم تنهي كلماتها بأنها كرمة، تتلاشى مثل قبضة دخان .. يبحث عنها في كل مكان حوله لا يجدها، يصرخ متسائلاً «مَن أنتِ؟»، فجأة يشعر بيد تمسك بيديه لتهزه بقوة، صوت يأتي من الأعماق يهتف باسمه: جمال .. جمال.

Scanned by CamScanner

(١١)

«زين»

عشر سنوات مضت، منذ أن خرج خاله مصطفى من باب هذا المنزل وأغلقه خلفه، حتى إن الشارع يرتفع عدة سنتيميترات عن قاع الباب، يصعب فتحه بعد أن امتزج خشب الباب بأرض الطريق وكأنه مزروع فيها. تحول لونه الأخضر إلى بقع باهتة مختلطة بلون الخشب المتآكل عبر الزمن، القفل الضخم الجاثم على صدره أصبح صَدِئًا يصعب أن يفلح معه مفتاحه.

منزل جده الجندي عبدالحميد شرموخ، منزل قديم تشققت جدرانه وتساقطت عنه في أكثر من مكان الطبقة الإسمنتية، تظهر قوالب الطوب الأحمر باهتة اللون وقد تآكلت أطرافها لتخلق خيوط متعرجة متداخلة مثل ثعابين رفيعة، نوافذه الخشبية صفراء عليها بقع سوداء من أثر تعفن الخشب

Scanned by CamScanner

بعد تشربه لماء المطر وانتشار الفطريات عليه، بعض من أوراق الشيش الخشبية سقطت لتترك خلفها ظلام الداخل الموحش، قطع حديدية عبر النوافذ أو الشرفات الصغيرة صدئة مدببة الأطراف، عبر ثقوب النوافذ تعبر الغربان .. ومَن يتابع المنزل ليلًا سوف يشاهد أسراب الخفافيش تعبر من نفس المكان.

الحقيقة أن لا أحد من أهالي نزلة شرموخ يجرؤ على الاقتراب من منزل الجندي مع هبوط الليل، وإن تجبره الظروف على أن يعبر هذا الشارع فإنه ينظر إلى الناحية الأخرى وهو يهرول وقد شغل تفكيره بأي أمر آخر ليحبس فزعه المتنامي بداخله حتى يعبر المكان ولسانه يلهج بآيات القرآن الكريم يحتمي بها.

تتزايد دهشة هناء الجندي حينما يسألها ابنها زين عن مفتاح منزل جدهم القديم، تخبره بأن المنزل لم يُفتح منذ عشر سنوات، يوم أن أتى خاله مصطفى في منتصف الليل ودخله ليظل بداخله عدة ساعات قبل أن يرحل مع الفجر، لقد مَرَّ عليها قبل أن يدخل المنزل ليحصل على المفتاح، وعندما أخبرته بأن المفتاح قد ضاع منذ سنوات، استخدم مطرقة لكسر القفل، تضطر هي في اليوم التالي بأن تأتي بقفل جديد لتضعه على الباب بسرعة وفزع.

Scanned by CamScanner

- لكن .. لماذا تسأل عنه الآن يا زين؟

هكذا تساءلت الأم وقد أمسكت بيد ابنها، تستدعي ذاكرتها ما حدث له منذ أيام، لقد عاد إلى طبيعته بعد معاناة استمرت أيام، بدأت بخرس الغولة وانتهت بحالة عصبية وتشنجات تظهر على أطرافه. يصمت زين وهو ينظر إلى الفضاء .. لا يمتلك إجابة.

كل ما يعرفه هو أن هناك أمورًا غريبة تحدث له منذ عدة أيام وبالتحديد منذ هذه اللحظة التي تركته فيها خطيبته شيماء وغادرت الغرفة بشكل مفاجئ، بعدها توالت الأحداث الغريبة، منها ما حدث له في الليلة الماضية، حيث كان يمر بالقرب من منزل جده القديم فيشاهد في ظلمة الليل شعاع نور شاحبًا بداخله، يقترب بهدوء و عبر شقٍّ في الباب يتأمل الداخل، يقف لحظات لا يقوى على الحركة من هول ما يشاهد، لو أن قدميه تمتلكان قوة لاستبق الريح، على هدي ضوء ضعيف مرتعش صادر عن بقايا شمعة قائمة فوق منضدة خشبية قديمة، يلتف حولها عدد لا يتبين ملامحهم، ملابسهم قديمة ممزقة، شعورهم طويلة مختلفة ألوانها، ظهورهم مقببة، أياديهم طويلة بشكل مخيف، في صدر المائدة، يتأمل مع حركة الضوء فيصعق، إنها شيماء .. تجلس في صدارة تلك المجموعة الغريبة تهمس إليهم بصوت أشبه بفحيح

Scanned by CamScanner

الأفاعي، فجأة تسلط نظراتها عبر شق الباب، تتلاقى الأعين فيرتد إلى الخلف مفزوعًا، يلحظ في اللحظة الأخيرة كل الأجساد تستدير لتنظر إلى شق الباب، يستدير ليطلق ساقيه للريح، يتسمر مكانه وهو يشاهد ذلك الجسد الذي خُلق أمامه من عدم، يبتلع الهواء ويحبسه في صدره، ماذا يحدث؟ تتهدل ذراعاه إلى جانبيه، يشعر بقدميه رخوتين لا تقويان على حمله، يصارع ذهوله و رغبة جسده في الغياب عن المكان بفقد الوعي، يتأمل الجسد، فتاة لا يعرفها، تتأمله في هدوء، تصغره بسنوات .. ملامحها الهادئة تبث في داخله بعض طمأنينة، تهاتفه بلا كلمات:

- لا تَخَفْ يا زين .. سوف نواجههم.

وفجأة تختفي عن المكان، قبل أن يسقط يقرر البحث عنها في كل مكان، يصرخ مناديًا، لا يعرف اسمها، يعلو صراخه، يخشى أن يسمعه مَن يجتمعون في الداخل، ينظر خلفه ليشاهد ما يحدث خلفه، لا يجد المنزل .. إنه يقف في صحراء مترامية الأطراف .. يرهف السمع، أصوات حيوانات ضارية تأتي من بعيد .. ذئاب .. أسود .. كلاب .. ضباع .. غربان، الأصوات تقترب .. تقترب .. من بعيد تظهر أشباحها .. يقرر الفرار .. قدماه لا تتحركان .. يصرخ مستغيثًا .. يحارب أشباحًا في الهواء تمسك برقبته .. يرتفع صراخه ..

Scanned by CamScanner

يهرول وكأنه في حلم .. يعود إلى حجرته .. يرتعد وهو يتأمل الفضاء من حوله، ما تزال صورهم تحوم حوله.

يستيقظ صباحًا مُنْهكَ القوى، صامتًا شاردًا .. يتأمل كل شيء حوله بدهشة.

الآن يتذكر تلك الفتاة الهادئة التي أخبرته بأنهم سوف ينتصرون، مَن هم وعلى مَن سينتصرون؟! وكيف لها أن تخاطبه باسمه! يسأل أمه عن مفتاح منزل جده، يودُّ لو ينظر إلى الصالة فقط .. هل المائدة وحولها المقاعد القديمة هناك؟

يستسلم لرفضها فكرة فتح المنزل، ما أُشيع عن هذا المنزل في نزلة شرموخ لم يأتِ من فراغ، أكثر من فرد قَصَّ عنه حكايات مرعبة، منهم مَن استمع إلى أصوات بداخله، ومنهم مَن شاهد أنوارًا تتجول في حجراته، حتى إن أحدهم ذات يوم صرخ ليستنجد بأهالي القرية لإطفاء الحريق الذي شب في المنزل، وما إن تجمع بعض الأهالي حتى وجدوا المنزل كما هو ولا يوجد أي أثر لحرائق فيه أو في الأماكن المجاورة.

بعد عدة أيام، وما يزال زين غارقًا في بحر ذهوله، يشاهد شيماء تستغيث بشكل غريب، وقبل أن يقترب منها كي ينقذها تختفي من أمامه لتظهر تلك

Scanned by CamScanner

الفتاة الهادئة التي تُحدِّثه باسمه تشاهد الحيرة على ملامحه وسؤاله الذي لا ينطق به لسانه عمن تكون هي؟!

ترسم على ملامحها شبح ابتسامة وهي تهمس «أنا كرمة .. ابنة خالك» ثم تتلاشى من أمامه ليستيقظ فيجد نفسه على سريره في حجرته المغلقة، يزفر بعنف وهو يضرب المرتبة بحنق، صارخًا: ماذا يحدث؟

يسأل أمه عن أخواله، وهل هناك فتاة تُدعى «كرمة»؟ لا تجد ما تجيبه به، تهاجمه لكثرة أسئلته في الأيام الأخيرة، ذلك الماضي الذي لا تريده أن يعود أبدًا أو حتى تتذكر أيًا من تفاصيله.

لماذا يسألها عن المنزل المهجور وعن إخوتها الذين رحلوا عن القرية من سنوات لا تعلم عنهم شيئًا، حتى إنها ما علمت بوفاة مصطفى إلا عن طريق أحد الجيران الذي حمل إليها الجريدة التي تحمل خبر العثور على جثة ممزقة في مقابر السادس من أكتوبر، يصاحب الخبر صورة شقيقها واسمه بالكامل وأن التحقيقات لم تسفر عن شيء.

كرهت كل شيء حولها وتقرر ألا تترك منزلها وألا تتلقى أي عزاء، فقد علمت الخبر مثل الغرباء، كان حريًا بجميلته «إلهام» التي حملها وهرب من القرية أن تتصل بها لتخبرها كي تشارك مراسم دفن أخيها وتتقبل العزاء،

Scanned by CamScanner

لكن ذلك كله لم يحدث، تقرر أن تستمر على جهلها وكأن جارها لم يخبرها بأي شيء، حتى سعيد الذي علمت أنه غادر إلى الإسكندرية لا تعلم عنه أي شيء، أين يعيش .. مَن أولاده؟

تتركه في حيرته وتغلق خلفها باب حجرتها .. لم تتوقع أن يعود الماضي هكذا .. ما كانت تكرهه في ذلك الماضي ذهب بعيدًا إلى قاع بئر النسيان، ثلاثون عامًا مضت منذ وفاة والدها، وكانت في بداية سِني الإدراك، علِمت أنه مات غريقًا في حجرته الخاصة التي كانت نافذته إلى فضاء الكون.

عشرون عامًا مضت منذ أن اشتعلت النيران بداخل الأسرة وحمل الأخوان مصطفى وسعيد معاول القتل ليكررا جريمة جدهم قابيل لولا أن ألقت أمهم نفسها بينهما طالبة منهما أن يعبر الباغي على جسدها قبل أن يصل إلى أخيه، كانت هناء في صدر شبابها تبكي صامتة في غرفتها .. « لولا فتنتها التي خُلِقت عليها ما تصارع الأخوان» بهذا تتحدث هناء إلى نفسها عن إلهام زوجة أخيها مصطفى، جميلته التي تناهزها في العمر، ساحرته التي أَسَرَتْهُ بجمالها وأتى بها من مدينة مجاورة لا تطابق آدابها آدابهم ولا عاداتها عاداتهم. بعد عويل الأم وانهيارها بينهما يبيع كل منهما إرثه ويحمل متاعه ويرحل، أيام تلوك قصتهم أفواه أهالي نزلة شرموخ والنجوع المجاورة، لكن قبل الرحيل

Scanned by CamScanner

حدث ما لم يتخيله عقل وماتت الأم .. تنفض هناء رأسها .. لا ترغب في تذكر مصرع أمها ..

عشر سنوات مضت على ذلك اليوم الذي حمل فيه شقيقها مصطفى مفتاح منزلهم القديم بعد منتصف الليل، الثالثة فجرًا، تتذكر اليوم جيدًا .. كان في أول شهر سبتمبر .. و يختفي مصطفى كما جاء .. أيام وتعلم خبر مقتله.

ماضٍ أليم مثل وحش أسطوري يختفي ليعود كل عشر سنوات! لِمَ يستدعيه ولدها «زين» اليوم بهذا الشكل الفج؟! هل حان الموعد؟! لم تكن تتخيل أن تعايش كل هذه اللعنات التي تصيب عائلتها ..

سوف يحدث ما لا يُحمد عُقباه، باب منزلهم القديم لو فُتح كأنهم فتحوا باب الجحيم، سوف تفعل المستحيل كي لا يُفتح هذا الباب، مهما يكن الثمن.

Scanned by CamScanner

(١٢)

«كَرمة»

إجراءات سريعة قام بها الطبيب شادي سلَّام، الماهر العام بمستشفى New Health الخاصة، في المنتزه، كي تعود السيدة «فريدة منصور» زوجة السعيد الجندي، إلى طبيعتها .. يقوم أولًا بتقطيب الجرح الغائر في جبهتها ثم يدس في وريدها جرعات متتالية من المضادات الحيوية والفيتامينات، لقد نزفتِ الكثير من الدماء.

بعد انتصاف الليل بقليل تستقر حالتها، على جانبي سريرها ابنتيها كرمة وهايدي و قد ظهر الإرهاق الشديد على وجهيهما، لقد مرتا خلال نهار هذا اليوم وما مَرَّ من ليله بأحداث غاية في الصعوبة، ينتظرون جميعًا وصول سعيد الجندي الذي علم بالأمر منذ ساعات والآن في طريق عودته من سفره الذي

Scanned by CamScanner

لم يعلموا كُنهه، لم ولن يسألوه أين كان، المهم الآن هو وجوده ليحمل عنهم بعض عنائهم .. ما كان يشغل الفتاتين .. السؤال الذي يدور بداخلهم: ماذا حدث لأمهم؟!

الحقيقة أن الأمر كان عفويًا في بدايته قبل أن يتحول إلى شيء مرعب لم يحدث لها من قبل، تزفر الأم وهي تعتدل على سريرها وقد ألقت بيديها نحو ابنتيها فتلقت كل واحدة منهما راحة أمها بين راحتيها تُقبّلها في حنان، تحمل نظراتهما أسئلة لا نهاية لها، تتنهد الأم وقد قررت أن تخبرهما بكل ما حدث.

كانت في المطبخ تعد لهما طعامًا خفيفًا للعشاء، تحاملت بصعوبة بسبب ذلك الألم الرهيب في مفاصل ركبتيها، تشعر بعد لحظات بحركة خفيفة خلفها، تلتفت معتقدة أن إحدى ابنتيها قد أتت، لكنها تجد الفراغ هو ما يحيط بها تمامًا، تُرهف السمع، تخطو نحو باب المطبخ كي تفحص الصالة .. لا تجد أحدًا، من بعيد تشاهد ابنتيها تجلسان في الشرفة كما هما منذ فترة، تعود إلى المطبخ كي تُكمل عملها فقد ارتفع صوت قطرات الزيت في الطاسة تغلي ثم تنفجر لتتناثر ذراتها قبل أن تعود لتجتمع مرة أخرى .. النيران كانت قوية .. تمد يدها إلى المفتاح كي تهدئ النار حتى تجهز البيض للأومليت، في اللحظة الأخيرة تشعر كأن يدًا قوية أمسكت بيدها، تشهق مرعوبة وهي

Scanned by CamScanner

تلتفت في كل الاتجاهات فلا تجد أحدًا بجوارها، يتزايد رعبها ويدها مغلولة تمامًا، وخز رهيب في رأسها وكأن شعرها تحول إلى مسامير حادة، ترتفع قطرات الزيت المغلي في الطاسة أمامها لتنفجر أكثر عن ذي قبل حتى إن بعضها يتناثر حول الطاسة فتلتقطه النيران لتشتعل، بعد لحظات تعلو ألسنة اللهب وكأنها تطهو نيران زرقاء مختلطة بحمراء، تنازع الرغبة في إطفاء النار و رغبة في الفرار من المكان.

و كأنها غير موجودة في ذلك الجسد الذي يقف مثل عمود خرساني تشاهد في داخل ألسنة اللهب المرتفعة، رأسٌ نيراني يصدر منه صوت أزيزي فحيحي، عينان ملتهبتان، فم غائر .. تنتفض مكانها .. تصرخ برعب حتى إن صرختها من قوتها تنحشر في حنجرتها، تتأمل ما تشاهده .. تهزُّ رأسها .. لعله وهم، ليس وهمًا .. تُصعق .. يتحدث هذا الصوت الأزيزي قائلًا:

- مرت عشر سنوات كاملة .. آن الموعد.

يتحجر لسانها في فمها، تسقط ذراعاها إلى جانبيها .. يتوقف العقل تمامًا عن العمل .. تتأمل غير مصدقة أنها تعيش على الأرض كما كانت منذ دقائق .. يتلاشى الرأس المتجسد أمامها في فضاء المكان فتهدأ النيران، تشعر بيديها وقد تحررت من القيد، تتحرك عبر بقايا قوة لم يتبقَّ منها غير أثر، تلتفت للهروب فتتذكر النيران المشتعلة، بحركة سريعة تُغلق المفتاح قبل أن تهرول

Scanned by CamScanner

خارجة من المطبخ، لحظة التفاتها تخونها ساقها اليسرى، تشعر بألم رهيب في ركبتها، تسقط كتلة واحدة على الأرض، يصطدم الرأس بحرف الباب الحاد ليشجه فينتج هذا الجرح الغائر في الجبهة.

تتألم .. ينحشر صوتها في حنجرتها، تحاول مناداة ابنتيها لكن صوتها يتلاشى مثلما تتلاشى الصور أمام عينيها، قبل الغرق في بئر اللاوعي تزحف لحظات حتى تصل إلى الصالة في اتجاه الشرفة التي تبعد عنها عدة أمتار، لكنها تراها على بُعد كيلومترات، تفقد حتى القدرة على التنفس وقد غابت الأشياء أمامها بشكل كامل، صفير رهيب ثم طنين يدق أذنيها، تغيب عن الوعي.

تتأمل هايدي شقيقتها كرمة وهي تنصت إلى كلمات أمها الأخيرة، ارتسمت علامات الفزع الشديد على ملامحها، يتضاعف الرعب، تلاحظها كرمة فترتبك أكثر، تضم راحة والدتها أكثر، يتضاعف ذُعر هايدي حينما تتأمل ما بداخلها من تراكمات لأمور وأحداث غير طبيعية تمر بها منذ أيام، لقد أوشكت الصورة على أن تكتمل، هناك شيء فظيع سوف يحدث، ما تمر به وما أكدته لها كرمة، والآن والدتها، يؤكد أن هذا الشيء في طريقه إليهنَّ.

فجأة تشهق كرمة، تترك يد أمها وتنتفض واقفة وهي تتأملها في فزع، الآن فقط تتذكر فجأة أنها مرت بأحداث غريبة خلال الأيام السابقة، أحداث غير تلك المرعبة التي استيقظت منها فَزِعَة، وكأنها صور ضبابية هلامية تتأرجح

Scanned by CamScanner

أمامها على صفحات الهواء، تحكي لهم وهي لا تشاهدهم، تتلاشى صورة المكان، تتجسد أمام عينيها صور جديدة.

فها هي تصعد إلى مكان غريب، عبر طريق مظلم لا ترى فيه أسفل قدميها، لكنها تسير مثل كفيف يحفظ موضع خطواته جيدًا حتى تصل إلى منزل قديم مهجور، نافذته الكالحة البالية ساقطة أوراقها الخشبية، تحوطه أشجار كثيفة تزيد الظلام حلكة، وكأنها تشاهد ما يحدث من نافذة حجرتها العلوية يحدث لفتاة غيرها، تقترب من شاب لا تعرفه تهمس إليه بكلمات .. لا تندهش من المكان أو ذلك الشاب الذي وُلِدَ من رحم الطبيعة فجأة، بقدر دهشتها من قولها «يا ابن عمي»! مَن هذا الذي تناديه بابن عمها؟!

تمدُّ يدها كأنها تستوقفه لتتأمل ملامحه، لا يستجيب، ينزلق من بين يديها تاركًا المكان ليختفي بين الأشجار الكثيفة، تناديه مرة أخرى، تهرول خلفه، ما إن تقترب منه وتمد يدها لتمسك به حتى يلتفت ليواجهها ..

ترتد فَزِعَة، تصرخ .. ليس هو مَن كانت تحادثه منذ لحظة، شخص آخر بملامح أخرى، حتى ملابسه تبدلت تمامًا، يتحرك لسانها بكلمات لا تعلم منبعها، تتحدث إليه بشيء يسير .. تفزع حينما تُنهي كلماتها له قائلة: أنا كرمة .. ابنة خالك!

Scanned by CamScanner

ابن عمي؟!

ابنة خالك؟!

مَن هؤلاء؟! وما هذا المكان الذي توجد فيه، كيف تتغير شخصياتهم هكذا؟! كيف تتحرك بتلقائية هكذا في مكان لم تعرفه من قبل؟ لماذا تتعلق بهؤلاء أو تناديهم؟

عشرات الأسئلة تتطاحن في رأسها حتى أوشك على الانفجار، تفيق على شهقاتها، لا تعلم ماذا قالت وكيف قالت، لكنها تعود إلى المكان فتجد نفسها فزعة في أحضان أمها على سريرها وتقف خلفها هايدي تنتفض.

ثلاثتهنَّ كنَّ جسدًا واحدًا، يتنفس من رئة واحدة ويزفر في لحظة واحدة هواء ساخنًا يقارب نيرانًا تخرج من فوهة بركان. تحوطهم دهشة لا نهائية، لا يعلمون ماذا يحدث .. وما الموعد الذي آن .. وما قصة السنوات العشر التي مرت .. ومَن هما ابنا العم والخال؟!

تحتويها الأم تحت جناحيها، تشرد ببصرها لتخترق الجدران الصماء، تستدعي من أعماق ذاكرتها آلام ما سيطلقون عليه اللعنة العشرية، آلامًا يرفضن تصديق عودتها .. لكن ما إن تمر السنوات العشر وتذهب الآلام إلى

Scanned by CamScanner

أرض النسيان حتى تستيقظ اللعنة وتعود الآلام أضعافًا .. كلما زادت أعمارنا زادت معها الهموم .. وغابت قدرة الأجساد على المقاومة، لتصبح مثل هشيم تذروه الرياح.

تُرى .. مَن سيكون ضحية اللعنة العشرية هذه؟ تتساءل الأم في صمت وقد انزلقت دموعها على خديها، تضم ابنتيها أكثر كأنها تؤكد حمايتها لهم مهما يكن الثمن.

Scanned by CamScanner

(١٣)

إلهام

الفراشة والسجان ..

لم يشعر «چو» براحة جسدية أو فكرية منذ أيام .. لقد توتر بشكل غريب، ارتفاع ملحوظ في ضغط الدم مع تزايد ملحوظ في ضربات قلبه حتى إنه يشعر بإرهاق مستمر من أثر ذلك، أما أكثر ما كان يشغل تفكيره هو تلك الفتاة التي ظهرت له مؤخرًا وأخبرته بأنها «كرمة» ابنة عمه. لا يعلم غير أن له عمًّا واحدًا فقط يعيش في مدينة الإسكندرية، مَن هو ومَن أولاده؟ لا يعلم.

ما يتعرض له يحاكي الحقيقة .. يعيش فيها بكل خلاياه، لم يعد يفرق بين يقظته وأحلامه، كلاهما واقع يعيشه بشكل تامٍّ، كيف له أن يتأكد من صحة

Scanned by CamScanner

ما يتعرض له! يتحدث مع والدته، يطلب منها بشكل مباشر بأن تخبره بكل ما تعرفه عن عمِّه.

تثور بشكل يصيبه بالخرس، لا يدرك أسباب ثورتها ورفضها الحديث عن أي شيء يخص عائلة والده، يعلم مسبقًا أنها تعرضت لعدة مشكلات منذ أن دخلت إلى هذه الأسرة و لا تفضل الحديث عن هذه الأيام الماضية، لكنها الآن ثائرة بشكل غير طبيعي، من الممكن أن ترفض بهدوء و ينتهي الأمر .

يتركها ساعة قبل أن يعود حاملًا مشروب عصير الليمون بالنعناع المثلج، يبدأ حوارًا طبيعيًا حول أمور بعيدة كل البعد عن تلك الجزئية التي أثارتها من قبل، لكنه ينجح بعد لحظات في أن يُحول مجرى الحديث إلى سنوات البداية، يتعامل مع الكلمات بحرص خشية من أن تثور مرة أخرى لكنه يُفاجأ بها تستجيب، كأنها تراجعت عن رفضها خلال الساعة الماضية.

حقيقة الأمر أن والدته قد راجعت نفسها وتعجبت من ثورتها، جمال ابنها لا يعلم عن تلك الأحداث أي شيء، نعم هي لا ترغب في أن تُلقيه إلى تلك الدوامة، لكنه دخل رغم عنها إلى تلك المنطقة الرهيبة، إنه بالفعل يعاني، تراه أمامها يوشك على الانهيار ولا بد له أن يعلم تفاصيل البداية، إن فهم

Scanned by CamScanner

سوف يحاول النجاة، ينقبض صدرها وهي تتخيل ابنها أحد ضحايا «العنة المدنس».

كانت البداية يوم أن قرر «مصطفى الجندي» مغادرة نزلة شرموخ بشكل نهائي، غِيرته كانت قوية ولم تكن «إلهام» زوجته الجميلة، تمتلك القدرة على الاعتراض لئلا تتزايد شكوكه الكثيرة، مصطفى رجل باستمرار يُسيء الظن، شهور قليلة بعد الزواج وتحولت الحياة بينهما إلى جحيم.

زوجة شابة .. جميلة بشكل يلفت الأنظار، تلحظ في أعين الجميع نحوها نظرات الإعجاب، حتى أعين النساء حملت نفس المعنى.

إلهام بهذا القدر من الجمال والقبول لم تكن تمتلك القدرة على إدارة كنوزها، يمنعها مصطفى من الخروج حاسرة الرأس، إن كان ولا بد عليها أن تغطي رأسها، خصلات شعرها المتطايرة أضحت حديث نزلة شرموخ، لم يكن يعلم أن جسدها كله أضحى حديث النزلة كلها، لقد أصبحت فتاة أحلام المراهقين، وقناع جنس للمتزوجين يلقونه على أوجه زوجاتهم فيمارسون مع أجسادهن لكن بروح فاتنة النزلة .. إلهام.

بعد أيام يمنعها مصطفى تمامًا من مغادرة المنزل، لن تخرج إلا للضرورة القصوى وفي صحبته، لم يفعل ذلك محبًا عاشقًا، إنما فعله بدافع التملُّك ..

Scanned by CamScanner

أمر واجب التنفيذ وإلا فالعقاب في الانتظار .. تبكي إلهام مثل طفلة حرموها من دميتها، تبكي ولا تعلم أي ذنب ارتكبت حتى تُعاقَب بالحبس!

فراشة تودُّ التحليق بين الزهر ليل نهار .. لم تذنب حتى تُعاقب .. جمالها ليس جريمة تُعاقب عليها بالحبس .. مَن أخطأ يعاقب .. عاقبهم أنت يا مصطفى .. عاقب من يسترقون النظر .. عاقب من يحملون صورتها في ذاكرتهم ليستغلوها أسوأ استغلال على أسرتهم .. عاقبهم جميعًا لكن اتركها تَلْهُ بين الزهر.

لا يستجيب لرجائها .. كل حركاتها محسوبة عليها .. في عمله مشغول بها .. في يقظته .. في نومه .. مهموم بها بشكل دائم .. ماذا تفعل الآن و ماذا ترتدي .. ومع مَن تتحدث؟

حتى أخوه سعيد .. منعها من الظهور أمامه، لم تعد حبيسة المنزل .. أصبحت حبيسة الغرفة ما دام كان شقيق زوجها في المنزل .. إنه منزل قديم .. كبير .. يضم عائلة الجندي كلها .. كما يضم بين جدرانه ذكرى لأحداث جسام انتهت بوفاة صاحبه «الجندي الكبير» .. مات في غرفته غرقًا.

سيدة مسنة .. أم مصطفى .. تتحرك بصعوبة رغم نحافة جسدها، تنحني على لا شيء .. تتوجه ناحية غرفة زوجها التي يجلس فيها بالساعات بين قارئ وكاتب .. له كتب تخصه وكتابات لا يقرؤها سواه أطلقتْ عليها «طلاسم»

Scanned by CamScanner

وهي كذلك، في هذا اليوم تأخر كثيرًا داخل الغرفة، هل غلبه النوم؟ لا تعلم .. لقد نامت هي حتى أوشك الفجر أن يطلع ولم يعد هو.

تصل إلى باب الغرفة .. بهدوء تطرقه حتى لا توقظ الأولاد، لا مجيب .. تمد يدها كي تفتح الباب و هي تتمنى ألَّا يكون قد أغلقه بالمفتاح كما يفعل كثيرًا .. ولكنه فعل أيضًا هذه المرة .. الباب موصد .. تعلو دقاتها .. يستيقظ الأبناء ولا يجيب هو ..

بعد عناء شديد يُكسر الباب، يكسر من مفاصله على الجانبين، فقد كان به أقفال سبعة شديدة القوة .. تتزاحم الأجساد لتسد فتحة الباب ولا تجرؤ على اجتيازه .. هي الرغبة في المعرفة والخوف مما يستشعرون حدوثه .. يرفضون تصديق حدسهم بأن الجندي قد مات .. الرؤية هي الحد الفاصل بين شكٍّ ويقين.

يجلس الرجل على ركبتيه في وضع السجود .. وجهه غارق في طست صغير به ماء بلون الدم، تجري الكلمات تائهة على لسان زوجته «مات غرقًا وتحقق الحلم».

منذ سنوات ويأتيها في منامها حلم واحد يتكرر بنفس التفاصيل، تسير في صحبة زوجها فوق جسر، لا تعلم كيف تخطو خلفه، فجأة ينهار جزء صغير

Scanned by CamScanner

من الجسر ليسقط زوجها ويبتلعه الماء، تصرخ وتصرخ .. لا يظهر زوجها ولا يظهر حولها أحد .. يعلو صراخها.

تستيقظ .. تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. لم تخبر زوجها بشأن حلمها حتى بعد أن بلغا من العمر ما بلغا .. كانت بقدر ما تستطيع تُبعده عن أي مكان فيه ماء، حتى أرضه المتاخمة للترعة الكبيرة أقنعته ببيعها، يكفيه أرضه البعيدة .. وبعد فترة أقنعته بأن يؤجرها ليعيشا من ريعها.

اليوم فقط تهمس بهذه الكلمات بعدما فاضت روحه، يتأملها الأولاد .. أي حلم تقصد! وماذا كان يفعل والدهم في حجرته الخاصة .. طست .. ماء دموي .. عجوز في وضع غريب؟!

لم يعثروا على إجابة ..

بعد أيام طالت يتأكد لـ «مصطفى» ما كان يستمع إليه كشائعات، والده كان له حياته الخاصة داخل هذه الغرفة، يستحضر الأرواح، أطلق على نفسه ذات يوم أمام زوجته أنه «عالم أرواح» يستطيع أن يجعل الجماد يتحرك .. يضحك كثيرًا عندما يُحرِّك قطعتي صخر أمام زوجته، يضحك وهو يشاهد علامات الرعب ترتسم على وجهها.

توسلت إليه بألا يفعل ذلك مرة ثانية، ألا يستخدم علمه في ضرر أحد .. الأفضل أن يتركه إلى الأبد، لم يدخل أحد هذا الحقل من قبل إلا وخسر.

يرفض .. سعيدًا بما توصل إليه .. واثقًا بقدراته .. لن يخرج بعلمه خارج غرفته .. هو فقط سعيد بما يعيشه، يتجول بين جنبات الكون من داخل غرفته، يشاهد كل تفاصيل حياة أهالي نزلة شرموخ كمن يلهو بهم مثل دُمًى، تُخفي البيوت آلاف الأجساد وملايين الأسرار ..

يموت الرجل وتموت معه أسراره الخاصة .. لكن تبقى غرفته التي حرمتها زوجته على أولادها .. حتى إلهام .. فراشة ابنها .. و حبيسة المنزل .. منعت من دخول الغرفة لتنظيفها إن رغبت.

تعيش الأم صامتة في غرفتها .. حتى ألفت الصمت، يستكين لسانها تمامًا، كانت على علم بما كان يفعله زوجها الغريق، تتمنى لو تصدت له ومنعته من ممارسة ذلك، لكن هل كانت ترغب في ذلك حقيقة؟ أم أن هذه الرغبة تولدت بعد أن حدثت الكارثة ومات زوجها؟

واقع الأمر أنها رضيت بما كان يفعله، لم تكن مجبرة قط على الاستمرار معه في حياة ترفضها، وأي زوجة تستمر مع زوج ضال فهي ضالة وليست مرغمة، يتعللن بالأسباب و لظروف القهرية بالرغم من أن انفصالهن عن أزواج ضلوا أهون ألف مرة من البقاء معهم .. الاستمرار يعني الموافقة.

Scanned by CamScanner

صمتها ألم .. تفكيرها فيما آلت إليه الأمور يقتلها كل مساء .. ابنتها تدخل إليها بالطعام .. تحاول لفت انتباهها بأي حديث لكنها تفشل أمام شرود رهيب .. مع الأيام تيأس فتترك لها طعامها وترحل .. حتى الأطباء أوصوا ببعض الأدوية التي تساعدها على الحياة .. ويبقى الصمت دائمًا حتى اليوم الموعود.

بعد سنوات من وفاة الجندي بهذا الشكل، التي ما فهم أحدهم سببه غير شك في قلب الأم من أن هناك يدًا شيطانية في الأمر، تشعر إلهام بأعراض غريبة، هي أعراض الحمل الذي تأخر حتى بات في طي النسيان، لماذا حملت في تلك الأيام وبعد أن فشلت من قبل كل محاولات الأطباء؟! لا تعلم .. ولكنه حدث .. حدث في وقت كانت فيه أقرب لطلب الانفصال، كانت قد سئمت الحياة مع مصطفى .. ونبت في قلبها الرعب بعد ما شاهدتها على ملامح وجه والده الميت.

ولولا هذا الحمل وذاك الجنين الذي ينمو في أحشائها لطلبت الطلاق بشكل نهائي، لا تستطيع أن تعيش هكذا أبد الدهر، لا بد من تغيير يحدث، وجاء التغيير في رحمها.

Scanned by CamScanner

استسلمت ليد القدر وشغلها جنينها عن كثير من همومها، وبانشغالها هذا هدأ زوجها واستقرت مشاعره، فأظهر لها الحنان الذي كان يحبسه بداخله خشية أن تتمرد عليه ذات يوم، الابن المنتظر زاد الرابطة فاطمأنّ قلبه.

عشر سنوات تمر منذ وفاة والده، حتى يستيقظ كل أهل المنزل على صراخ يشق صمت الليل حتى يصل إلى عنان السماء، والدة مصطفى .. زوجة الجندي عبدالحميد شرموخ .. جسد ينتفض .. يطوف أرجاء المنزل محمولًا على لا شيء، كأنه يطير في الهواء .. يتحرك لسان الأم الصامت منذ عشر سنوات بكلمات لا يفهمها أحد، كمن تقرأ من كتاب طلاسم، ينزوي مصطفى في جانب، فلم تعد تحمله قدماه، ينظر بطرف عينيه نحو غرفة والده، طاف جسد أمه المنزل كله، هاجمهم كلهم حتى صغيره جمال، الذي بلغ من العمر عامين، لم يسلم من هجومها فكان يصرخ على صدر أمه التي كانت تصرخ بدورها وهي تدفع ذلك الجسد الشيطاني بعيدًا عنها ولولا رعبها على ابنها لسقطت في دوامة اللاوعي.

لا يعرف أحدهم ماذا يحدث بالضبط وكيف يحدث أن يطير جسد الأم بهذا الشكل ويهاجمهم فردًا فردًا بدون أن يُلحِق الأذى المباشر بأحدهم .. حتى تأتي لحظة يعم فيها الصمت ويسقط جسد الأم في منتصف الصالة .. كانت سقطته على الأرض مدوية وكفيلة بأن يتحطم على إثرها عظام العمود

Scanned by CamScanner

الفقري، وقد كان .. لقد فارقت الأم الحياة والجميع حولها في دائرة مشدوهين لا يعلمون أيعيشون واقعًا أم كابوسًا؟

يكتمون خبر ما حدث .. تمر أيام العزاء الثلاثة في صمت، تعود هناء إلى بيت زوجها، يقرر مصطفى بيع كل ما يملك ويرحل عن نزلة شرموخ، يفعل السعيد مثله أيضا ويرحل.

فَرِحتْ إلهام بالتغيير .. سَعِدتْ أيما سعادة بخروجها من ذلك السجن الذي ما تخيلت يومًا أن تعيش بين قضبانه، أي مكان في الكون سيكون جنةً لها، منذ أن تزوجت في هذا المكان وهي تعاني، تعاني زوجًا لم يُلقِ في رحمها بذرة لسنوات طويلة، تعاني زوجًا هو إلى حارس زنزانة أقرب، تعاني رجلًا مات بشكل غريب تاركًا ذكرى بشعة وتلحق به زوجته بعد عشر سنوات بالتمام بعد ليلة رعبٍ لم يتخيلها أحد من قبل.

لكنها لم تكن تعلم أنها سجينته هو .. سجينة مصطفى الجندي، شعوره بامتلاكها .. امتلاكها بشكل كامل .. جعلها على يقين تام بألا تُقدِم على أي فعل إلا بموافقته، تلبس ما يريد .. تأكل وفقًا لذائقته .. تتنفس إن شاء .. بداخله نما عشقها إلى درجة الجنون .. هي قطعة منه .. وكيف لجزء من جسد أن يعصي صاحبه؟!

Scanned by CamScanner

أضحت سجينة مسكنها الجديد بمدينة السادس من أكتوبر، سجن جديد أنيق على هيئة «ڤيلا» أنفق عليها معظم ثروته التي هاجر بها من نزلة شرموخ، تجارته كانت تشغله بعض الوقت، لكن ليس كل الوقت.

تستقر إلهام في بيتها ترعى طفلها .. تسهر حتى ينام في أيام، و أيام أُخر تصحو قبل يقظة العصافير كي تنظر إليه وتحتويه في أحضانها .. تلك كانت أسعد لحظاتها .. فها هي تبثه من صدرها الحياة، في كل لحظة كانت تحكي له عن تفصيلة من تفاصيل حياتها، عن حلم من أحلامها التي لم تتحقق، تجول به بين الأغصان مثل عصفور يُعلم فرخه الطيران، تتأمل تفاصيل طفلها الصغير بسعادة، كفه الصغيرة الرقيقة، نظراته التي تتميز بتركيز شديد، تضع سبابة يدها اليمنى في يده ليقبض عليها بشدة، حينما ينام يلقي رأسه تجاه اليسار ويغطي عينيه براحتيه مثل شخص كبير ينام أسفل مصباح مضاء.

هل تعيش حتى يأتي يوم تشاهد فيه هذه الأصابع وقد طالت مثل أصابعها؟ هذا الأنف الصغير المرسوم كنسخة من أنفها؟

غاية الأمر شُغِلت إلهام بولدها .. وسُر زوجها بانشغالها ..

لكن التعساء يجتذبون الهموم .. تراهم باستمرار مثل فريسة مُطاردة لا تهنأ باستقرار، لا يغمض لها جفن، وكيف ترتاح وبداخلها رعب دائم ..

Scanned by CamScanner

رعب لا تعرف سببه لا يلبث أن يتحول إلى حقيقة، مع أي حركة حولها يتأكد لها صدق حدسها فتزداد رعبًا من القادم لتظل هكذا حتى تسقط ..

ولا بد أن تأتي اللحظة التي تسقط فيها الفريسة مهما يطل وقت روغانها..

تمر السنوات ويعود مصطفى الجندي إلى ما كان عليه .. فقد كبر الفتى وطاب له الخروج .. لتصحبه أمه .. إلهام التي ما غيَّرتها الأيام .. بل زادتها جمالًا وكأن القدر يتحداه .. تمنى ذات يوم لو تزوج بفتاة لا تلفت الأنظار وإن كانت قبيحة.

حتى أتى هذا اليوم الذي وصلت فيه معدات الحفر والبناء لتشييد المقابر في مواجهة منزله، جُن الرجل وثار .. لكن لم يهتم به عامل واحد من عمال الشركة.

المقابر سهلة التشييد .. أيام قليلة وتتحول المنطقة إلى مأوى لأجساد غادرت أرواحها الأرض، أجساد تتحول إلى جيف، تحوم الغربان في فضاء المكان وقد اجتذبتها الرائحة.

أيام ويتحول مصطفى إلى شاهد موتى يُحصي من شرفته عدد الموتى كل يوم.

Scanned by CamScanner

يجتمع بعدد من الجيران كي يُثير بداخلهم حنقًا ورفض للمشروع مثل ما بداخله، يوافقه البعض بينما يستسلم آخرون، يدور مع رفاقه بين أروقة المسئولين .. لكن كل شيء تم ولا مجال لإبعاد المقابر عن مواجهة منطقتهم.

يعود إلى منزله ليغلق عليه غرفة خاصة بعيدًا عن إلهام وابنه جمال .. يخفي رعبه، منذ أن شاهد والده ميتًا في غرفته وقد جحظت عيناه وارتسمت على ملامحه رعب لا حَدَّ له، وهو يكره الموت بل يصاب بحالة من الرعب عندما يموت أحد معارفه لدرجة أنه لا يذهب العزاء، بل كان من المستحيل أن يذهب خلف نعش إلى المقابر، يتعلل بأي سبب حتى يهرب، عشر سنوات مرت على وفاة والده قبل أن تحدث الكارثة الثانية في حياتهم وتذهب على إثرها أمه قتيلة شيءٍ خُرافي لا يفهمه أحد، تموت ويُدفن معها سِرُّها كما دُفن سِرُّ أبيه من قبل.

بيد مرتعشة يشعل سيجارته، يزفر بشدة، يتمنى لو يمتلك القدرة على أن يُنزل عليهم صاعقة من السماء ..

لماذا يضنُّ عليه الكون بالسعادة .. لماذا يواجهه في عناد وكأنه قد أتى إليه بالرغم منه؟! هل خُلِق مثل عدو يجب أن يُهزم؟ يتساءل حانقًا.

لا .. لن يهزم ..

Scanned by CamScanner

سوف يفعل ما لا يخطر على قلب بشر حتى ينتصر .. إن كان قد خُلِق مثل عدو .. فلا يجب أن يكون عدوًّا مهزومًا .. سوف ينتصر ..

في لحظة واحدة، لا يدرى من أين أتته تلك الفكرة، يقرر العودة إلى نزلة شرموخ .. إلى منزلهم القديم .. إلى حجرة والده الخاصة .. والده .. عالم الأرواح ..

ألم يجعل والده الحجر يتراقص؟ ألم تشتعل النيران في الصالة دون أن تأكل حتى أوراقًا على المائدة؟! في هذه الحجرة الخاصة بوالدة تكمن أسرار قوة الراحل، تكمن أسرار تخص وفاته ووفاة والدته، تكمن أسرار آن له أن يتعرف على تفاصيلها ومؤكد أنه سيجد ما يساعده على تخطى أزمته الحالية.

يدقُّ باب منزل أخته هناء في «نزلة شرموخ» قبل انتصاف الليل بقليل، تقف هناء تتأمله بدهشة، ما بين نوم ويقظة تحاول أن تُحصي عدد سنوات الفراق، تقريبًا سنوات عشر.

يسألها قبل السلام عن مفتاح منزلهم القديم، تشاهد في عينيه ألف معنى لكنها لا تخرج بشيء واحد، تقف وقد صعقتها المفاجأة، لا تدري ماذا تفعل .. يكرر طلبه فتفيق وتخبره بأنها لا تعلم مكانه .. يتركها ويذهب مغتاظًا.

Scanned by CamScanner

(١٤)

«زين»

لا يعلم زين كيف كانت غائبة عنه تلك الفكرة! ولماذا لم تواتِه من قبل. أحفاد الجندي اليوم أضعاف أبناء الجندي الثلاثة الذين تفرقوا في الأرض.

أمه المتشبثة بأرض نزلة شرموخ، خاله مصطفى الذي غادر إلى تلك المدينة الجديدة، السادس من أكتوبر، التي عَلِمَ عنها أنها أصبحت صورة صغيرة مجمعة لكل فئات المجتمع وأطيافه، شأن معظم المدن الجديدة، تكوَّنت من هجرات من مختلف البقاع. أما خاله سعيد، المنطلق، عاشق الحرية، كما تطلق عليه شقيقته هناء، فقد ذهب إلى الساحرة الآسرة، الإسكندرية.

لا يعلم الكثير عن جيل الأحفاد، الآن يجب أن يعلم، خاصة بعد تلك الرسالة التي لا يعلم مصدرها «أنا كرمة .. ابنة خالك»، إن جهل مصدرها

Scanned by CamScanner

فعليه التحرك وألا يهملها، لقد صاحَبَت تلك الرسالة أحداثٌ عصيبة في حياته وعليه أن يبحث خلفها.

معلوماته القليلة تؤكد له أن خاله مصطفى قد قُتِلَ بالقرب من منزله الكائن بجوار مقابر السادس من أكتوبر، فكرته كانت مغادرة نزلة شرموخ متوجهًا إلى هناك.

يعلم أن أمه سوف ترفض وبشدة أن يغادر القرية، أما إن عَلِمتْ أنه سوف يتوجه للبحث عن أسرة شقيقها مصطفى، عن الجميلة إهام سبب انتكاسة شقيقها كما تظنُّ باستمرار، فإنها سوف تحول بينه وبين سفره هذا بحياتها، لذا يقرر ألا يخبرها بوجهته، سوف يخرج بمنتهى الهدوء مرتديًا ملابس عادية جدًّا وكأنه خارج ليتجول بين الحقول يتنسم عبير الصباح.

بعد انتصاف النهار، ها هو زين يقف بالقرب من مقابر أكتوبر، بالتحديد مع سمسار مقابر يجلس على رصيف الطريق المؤدية إلى المقابر، يبدأ السمسار في عرض بضاعته ما بين بيع، شراء، بناء، توفير حراسة دائمة .. إلخ.

يجاريه زين بعض الوقت مستفسرًا عن الأسعار والموقع الأفضل حتى يصل إلى الجملة التي يوجه بها الحديث إلى حيث يرغب:

Scanned by CamScanner

– أبحث عن موقع مميز.. فهناك مواقع تحدث فيها جرائم قتل بشعة مثل تلك التي تحدثت عنها الصحف من قبل.

يتأمله الرجل لحظة يرتبك خلالها زين، هل تسرع بحديثه في تلك الجزئية؟! قد يكون للرجل يَدٌ في هذه الجريمة ويظنه أحد رجال البحث الجنائي مثلًا.. قد يحدث ذلك وإن كان احتمالًا بعيد للغاية، لكن المصادفات دائمًا تحدث ببساطة وتأتي من حيث لا نتوقعها أبدًا.

لم يكن الرجل يتأمله متوجسًا، إنما محاولًا التذكر، لقد تأمله لحظة ثم أبحر في أعماق ذاكرته حتى عاد بعد لحظات كاد فيها أن يهرب زين خوفًا مما تخيله. يعود الرجل إلى المكان وقد رسم على ملامحه ابتسامة ظفر، يقول:

– تقصد القتيل الذي عثروا عليه ممزقًا في المنطقة جيم؟ اسمه مصطفى.. مصطفى الجندي..

يحاول زين التماسك بعدما اضطرب داخله، يهمهم بكلمات غير مفهومة يحثه على الاستمرار، الرجل لم يكن في حاجة إلى ذلك، هو ثرثار بطبيعة الحال، يجلسون النهار بطوله لا يجدون ما يفعلونه غير تبادل الأحاديث وتناول الشاي وحرق السجائر. يكمل الرجل:

Scanned by CamScanner

– لم يصدقوني وقتها .. أخبرتهم أن مصطفى مخاوٍ .. ولا أحد يستطيع أن يقتله ويمزقه بهذه الطريقة البشعة غيرهم.

لا يعلم الرجل نفسه عندما ذكر كلمة «غيرهم» لماذا نظر بعينيه إلى الاتجاه الآخر وأشاح بها في الفضاء قبل أن يعود إلى زين ويكمل:

– قالوا عني مجنونًا، ولم يكتبوا شهادتي في أوراقهم .. كما يرغبون .. يسكن بالقرب من هنا ونعرفه .. لقد أتى عند بداية الإنشاءات وأثار عدة مشكلات مع العمال .. كنت واحدًا منهم .. وقتها كنا ننعم بالصحة.

فعل الرجل حركة في أثناء كلماته الأخيرة، لاحظها زين بهدوء ولم يُظهر أي رد فعل، علامات محايدة ترتسم على وجهه طوال الوقت. الحركة التي قام بها الرجل هي أن أشار بيده في اتجاهٍ ما عندما قال: «يسكن بالقرب من هنا» .. من تلك الاشارة علم المنطقة التي تقع فيها الفيلا الخاصة بخاله الراحل.

بعد أن أفرغ الرجل محتواه، يحصل زين على كارت بياناته ويعدُه بالاتصال به، يرحل في اتجاه الغرب حيث أشار الرجل.

«ڤيلا مصطفى الجندي» بعد جولة في المنطقة يعثر على تلك الكلمات منقوشة بالخط الأسود على لوحة من الرخام الأبيض، بناية أنيقة من طابقين

Scanned by CamScanner

تخفيها أشجار كثيفة الأغصان، حديقتها ليست كبيرة لتتسع لكل هذه الأشجار، يبدو أن سكانها يتركون أشجار الحديقة بلا تهذيب منذ سنوات.

تمر الدقائق القليلة التالية عظيمة على زين، ماذا يجب أن يفعل بعدما يطرق باب المكان؟! ماذا سيقول لهم؟

هل يقول: أتيت إليكم بعد سنوات القطيعة تلك لأنني حلمتُ بأشياء غريبة! ماذا لو كانوا من ذلك النوع الصامت .. أو العدواني؟! ماذا لو قابلوه باستهجان أو سخرية؟! ترى .. مَن سيقابله؟ هل تقابله كرمة التي حلم بها؟

أفكار كثيرة وردود أفعال أكثر غرابة دارت في رأس «زين» .. ما يزال واقفًا أمام ڤيلا خاله الراحل، تطول المدة، يحاول نفض تلك الأفكار عن رأسه ليتحرك.

بهدوء، لم يُخفِ اضطرابه، يرفع يده، يقرع الباب عدة مرات تتزايد مع تزايد جرأته، حتى يأتيه صوتٌ أنثوي ناعم عبر جهاز Intercom يسأل عن الطارق في تكاسل دال على حالة استرخاء أو يقظة حديثة من نوم. يتلعثم زين وهو يبحث عن كلمات يصف بها نفسه، لم يتوقع أن يتم التعارف عبر الأسلاك، كل تفكيره كان منصبًا على لحظة اللقاء والمواجهة مع مَن سيفتح له

Scanned by CamScanner

الباب .. ثم يرسم ابتسامة عريضة قبل أن يقول: أنا زين .. والدتي هي هناء الجندي شقيقة صاحب المكان الراحل خالي مصطفى الجندي. كان سيقول ذلك ويمد يده للمصافحة، أما الآن ماذا يقول؟

يفيق على الصوت وقد زالت عنه علامات الاسترخاء لتحل محلها علامات الاستفهام، زالت نعومة الصوت أمام قوة التساؤل .. أجاب بحروف متقطعة باسمه ومدى صلته بصاحب المكان، يصمت ولا يعلم لماذا جمع يديه أمامه تضغط إحداهما الأخرى في انتظار الرد.

لكن لا رد .. صمت رهيب يغلف المكان، لن يدرك أصوات العصافير التي تعيش في قلب أشجار الحدائق، أو أصوات سيارات تمر بالجوار .. أو ذلك الصوت الذي ينادي «روبابيكيا .. بيكيا»، ولن يدرك مدى التشابه بينه وبين من يعملون في نفس المجال في قريته أو في أي مكان آخر وكأنهم ألف توأم متشابه ينطقون «روبابيكيا .. بيكيا» .. فقط يشعر بالصمت لأن جهاز الـ Intercom لم يأتِ بكلمة أخرى، أُصيب بخرس تامٍّ.

تتزايد حيرته، الوقت يمر و لا يعلم ماذا يفعل ... هو بالفعل لا يعلم ما يدور بالداخل .. لكنه يستشعر توترًا وانفعالًا حتى إنه تأمل جهاز الـ Intercom عله يشاهد عليه أي تفاصيل من تلك التي تبدو على الوجوه حال الصمت.

Scanned by CamScanner

فيي الداخل تقف السيدة إلهام صامتة مشدوهة، على ملامحها علامات هي مزيج من غضب ودهشة، يمرُّ ابنها جمال حاملًا فنجان قهوة صنعه بعناية، إنه يدرك ضرورة الاهتمام بكل تفاصيل صناعة فنجان قهوة متميز، بداية من غسل الفنجان أكثر من مرة قبل تجفيفه، يضع البن والسكر في الماء ويستمر في التقليب حتى قبل الغليان بلحظات، يصب جزءًا في الفنجان ثم يعود بها إلى النار مرة ثانية ليصنع الجزء المتبقي طبقة أخرى فيزداد «الوش» كثافة .. يضع بجوار الفنجان كوب ماء مثلج، يحمل الصينية ويخرج من المطبخ في طريقه إلى غرفته، يشاهد أمه على هذه الصورة، يتأملها لحظات قبل أن يسألها عما أصابها، بعد لحظات تعود إلى المكان كمن يفيق من غيبوبة، تتأمل في دهشة، تتحرك شفتيها بكلمات غير واضحة:

- كيف ذلك؟! ومَن أخبرهم بمكاننا هذا؟!

- مَن يا أمي؟

تشير نحو الباب، تتأمل أصبعها .. تلحظ أنها استطالت بعض الشيء، تقول:

- شخص بالخارج .. يُدعى «زين» .. يقول إنه أحد أقارب ولديك.

Scanned by CamScanner

تهتز الصينية في يد «چو» .. لماذا الآن؟! يتساءل في داخله: ماذا يحدث؟ ما القوة التي تجذبهم جميعًا إلى بعضهم البعض بهذا الشكل؟! كانت مجرد أحلام .. جعلته يسأل عن أقاربه .. مجرد سؤال من باب الفضول .. لكن أن يأتي أحدهم ويقرع بابهم الآن!

يضع الصينية في جانب ويتوجه ناحية الباب، لكن أمه في قفزة واحدة تقف لتحول بينه وبين الوصول إلى الباب وقد رفعت يديها أمامها، لم يلحظ «چو» تفاصيل القسوة المرسومة على ملامحها، كان جل تركيزه على الباب ومَن يقف أمامه، لكن أمه همست بقسوة:

- لن تخرج يا جمال .. دعه يذهب ..

- لكن يا ماما ..

- لا يا جمال .. سوف أخبره بأنه أخطأ في المكان .. أو أننا اشترينا المكان من أصحابه من سنوات ولا نعرف إلى أين رحلوا .. أو بشكل مباشر نقول له إنه غير مرغوب فيه.

يتأمل «چو» والدته لحظات وقد تزايدت دهشته من إصرارها على منعه بهذا الشكل وكأنه ذاهب إلى الجحيم، يُمسك بيديها المتشنجتين ويضغطهما بهدوء، يحاول امتصاص غضبها .. يبتسم قائلًا:

Scanned by CamScanner

- أمي .. لستُ خارج للقاء الشيطان .. إنه مجرد شخص يدَّعي أنه أحد أقاربنا .. لنرَ ما عنده و يرحل في هدوء .. هذا كل ما في الأمر يا إلهام.

ثم يُعقب بضحكة خفيفة وهو يجذبها بهدوء ليذهب بها نحو غرفتها، تسير معه كطفلة خارجة من نوبة غضب أخرجت فيها كل قوتها وترغب في لحظات راحة.

يعود «چو» ليفتح الباب وقد اضطرب داخله بشكل كبير، تُرى مَن بالباب؟ يُصدر الباب صريرًا على غير العادة .. من فتحته التي تتسع يظهر جسد "زين".

يتواجه الشابان .. يتأمل أحدهما الآخر لحظات قبل أن يتحدث «چو» وهو يمد يده ليصافح زين:

- أهلًا .. مَن أنت؟ وماذا تريد؟

كان زين يتوقع وجود الفتاة التي تدعى كرمة .. لكنها لم تظهر .. وهو لم يتحدث بشأنها .. قد تكون أضغاث أحلام .. عليه أن يركز في هذا الواقع الذي يعيشه الآن .. بعد تعارف سريع يستدعيه «چو» إلى الداخل .. يجلسان في بلكونة تغوص في قلب أغصان أشجار الحديقة، يأتي «چو» بكوب عصير بينما يتناول هو قهوته متأملًا ملامح زين.

Scanned by CamScanner

لا تستطيع إلهام صبرًا أكثر من ذلك، تخرج من غرفتها وقد علت الدماء إلى رأسها فاحمرت وجنتاها، كانت ترتدي بيجامة منزل بصدر مفتوح يُظهر جزءًا كبيرًا من جيدها، يتناثر شعرها ثائرًا في كل اتجاه، تقترب وهي تحاول أن تهدئ داخلها المشتعل، تقف في فتحة باب البلكون، تُغرس نظراتها في جسد زين الذي يقف متلعثمًا، تشير نحوه بنظرات نارية شرسة:

- ماذا تريد يا هذا؟

Scanned by CamScanner

(١٥)

«سعيد الجندي»

تتأمل هايدي أمها في حزن، لقد أصبحت شاردة بشكل مرضي، هايدي نفسها تغيرت وقد فارقتها الابتسامة التي ارتسمت على وجهها منذ سنوات وكأنها خُلِقت بها، ينقبض قلبها كلما تذكرت كلمات أمها عن انقضاء السنوات العشر، تراودها أحلامها وتأتيها صورة الفتاة المهزوزة لتؤكد لها أن القادم أسوأ.

مرت عدة أيام منذ عودة الأم إلى المنزل، لولا جسدها المترهل المريض بطبيعة الحال لتماثلت سريعًا للشفاء، لكن آلامها تضاعفت رغم جرحها الذي يلتئم بهدوء، لم تفارقها صورة الرأس بشعة المنظر التي تجسدت في قلب النيران، الجملة التي سمعتها عبر الصوت الفحيحي حول انقضاء سنوات

Scanned by CamScanner

العهد .. كل ذلك سحب من طاقتها الكثير حتى ما تبقى لها لم يعد يكفي تنفُّسها، تتناول جرعات العلاج بانتظام تستجلب عبرها قوة ترتكز عليها.

– أي عهد؟! و لِمَ تعاهد أحدهم يومًا ما.. وأي عشر سنوات؟! وأي موعد قد آن؟!

تسألها هايدي وقد أمسكت بيديها مستغيثة كي تفهم وإلا انفجرت، تهمس الأم من بين آهات الرعب:

– هناك أمر رهيب سوف يحدث.

– أي أمر؟!

تمط الأم شفتيها علامة الجهل .. تُعقِّب بصوت خفيض:

– ذلك ما ظهر من تلك الرسالة النيرانية.

تصمت الأم .. تغوص في بحر أفكارها الهائج، عشر سنوات مرت وآن الموعد! لا بد أن تعود بالذكرة عشر سنوات .. هناك .. عند هذه الجزئية من الزمن يرقد سر تلك الكلمات ..

– ماذا حدث في هذا التوقيت يا أمي ومَن قابلتِ وقطعتِ معه هذا الوعد؟!

Scanned by CamScanner

تكرر هايدي أسئلتها، تتأملها أمها، تمنت لو تعود كرمة من الخارج الآن .. هي أكثر هدوءًا ومحبة وقدرة على نشر الطمأنينة في المكان، أما هايدي فإنها تثيرها بشكل كبير .. تكرر سؤالها وقد انفعلت وتحركت يدها في الهواء بعصبية، لو تمتلك عصا سحرية لحملت أمها إلى ما قبل السنوات العشر، تمنت لو تحولت خرافات السفر عبر آلة الزمن إلى حقيقة.

بعد إلحاحها تشهق الأم، تؤكد لها أنها بعيدة عن الأمر .. لم تعطِ أحدًا عهدًا ذات يوم .. الأمر أكبر وأخطر مما تتخيلين يا صغيرتي .. تبكي الأم لحظات قبل أن تُلقي نفسها من قطار الذاكرة المنطلق بسرعة جنونية، تُلقي نفسها في محطة يسودها ظلام حالك، هناك.

طفلتاها كرمة وهايدي خلدتا إلى النوم بعد حركة وتوتر وبكاء وصراع على دُمية .. تجلس في الصالة وقد أظلمتها إلا من ضوء خفيف ينبعث عبر شاشة التلفزيون الذي يبث فيلمًا لا تتابعه، جسدها متناسق لا ترهلات فيه ولا خشونة مفاصل .. تنسى كوب الشاي أمامها حتى يبرد. لا تعلم لماذا ينقبض صدرها، لا تشعر بأنها رفعت أصابعها إلى فمها لتقضم أظفارها،

منذ أن تركا نزلة شرموخ هي وزوجها واستقرا في الإسكندرية وهي تتحرك سعيدة بتفاصيل حياتها الجديدة، تخطت أزمتها حينما شعرت بانطلاق

زوجها في حياته الجديدة غير عابئ بتقاليد أو أعراف .. عيناه لا تهبطان من فوق صدور العذارى وشفاههنَّ المكتنزة .. فقدت معه كل أمل وأيقنت أنها مهما فعلت لن تستطيع أن تقيد نظراته، ولم تكن تدرك أن النظرات سوف تتحول إلى أفعال في المستقبل، وعندما تحولت مستقبلًا وتزوج عليها لم تفعل شيئًا، لقد قدمت التنازل في البداية ولم تنقطع سلسلة التنازلات .. تحولت إلى ابنتيها ورأت فيهما دنياها.

في هذا اليوم المنقبض فيه صدرها تنتظر أن يعود زوجها من الخارج، فقد انتصف الليل، الإسكندرية غارقة تحت نوّة الحسوم وهي من أشد النوات التي تهبُّ على المدينة وإن كانت لا تخشاها مثلما تخشى نوة قاسم التي تهبُّ على مدينة الإسكندرية في الأسبوع الأول من شهر ديسمبر من كل عام وتستمر قرابة الأسبوع وفيها تعود ذكرى قاسم ابن أحد الصيادين والذي غرق في البحر في أثناء هذه النَّوَّة حتى سُميت باسمه. نوة الحسوم تجعل من الشوارع جحيمًا، لا عاقل يترك منزله الآن .. تُرى أين سعيد الآن؟!

تمر الساعات بطيئة، قلبها يكاد يهترئ من كثرة انتفاضه، جسدها المتجمد بردًا ينزُّ عرقًا من شدة انفعالها، فشلت محاولاتها كافةً لتصنُّع اللامبالاة والدخول إلى السرير والنوم .. فليعد سعيد وقتما يشاء .. تعجبت من نفسها

Scanned by CamScanner

التي عاندتها ورفضت أن تفعل ما تفعله كل يوم بهدوء وسكينة، كانت تُظهر اللامبالاة من قبل وإن كان على أثر تمزق نفسي داخلي، اليوم تنتظر لأنها تشعر بكارثة ما سوف تحدث أو قد تكون حدثت بالفعل.

تنظر إلى باب الشقة، تسترق السمع والنظر إلى الشارع عبر النافذة، تنتظر مَن يقرع بابها وخلفه أصوات متداخلة وهرج رهيب ليظهر من قلب الزحام بعضهم يحمل جسدًا يقطر دمًا وقد تمزقت ثيابه في كل مكان .. يحملون جثة زوجها .. تُرى أصدمته سيارة أم ضُبِط في أحضان واحدة فمزقوه بأسلحتهم البيضاء قبل أن يلقوا به إلى الشارع.

تهزُّ رأسها بعنف كي تنفض هذه الصور عنها، تليفونه مغلق .. لم يكن معتادًا اتصالها كي تطمئنَّ عليه لكنها سوف تختلق له أي سبب مثل ارتفاع حرارة طفلتهما الصغرى هايدي .. لكنه غير متاح .. أفاقت على ابتهالات تأتي من مئذنة جامع قريب، لقد اقترب الفجر .. ترهف السمع أكثر وكأن هذا هو الموعد الذي يجب ألا يتأخر عنه مهما كانت الأسباب، يصدق حدسها .. خطوات زوجها تقترب متثاقلة .. يُعمل مفتاحه في الباب، يدلف جسدًا لا يرى مما حوله شيئًا، حتى شهقة زوجته التي أطلقتها عندما شاهدتْ هيئته الرَّثة.

Scanned by CamScanner

كتفاه متهدلتان .. شعره مشعث .. وجهه مغطى في أكثر من مكان ببقع بنية وسوداء، جاكته مكرمش من الخلف وكأن أحدًا أمسكه منه ليدفعه بعيدًا، جانب القميص الأيسر خارج من البنطلون بشكل غريب .. حتى منتصف ساقيه متغير لونه وكأنه نزل بهما إلى ماء ثم عاد إلى أرض رملية .. هيئته غريبة وهو المتأنق باستمرار.

يدور على كعبه ليغلق بابه .. يلقي مفاتحه على منضدة جانبية، يعتدل .. يجدها أمامه تسدُّ عليه طريقه فجأة وكأنها وُلدت من رحم فضاء الصالة، يتسمر مكانه، يتأملها بصمت .. لا شيء يدهشه الليلة أكثر مما حدث.. «ما بك؟ ماذا حدث يا سعيد؟!» تتبعه متساءلة، يتفادها كي يلقي بجسده فوق أقرب مقعد.

تقف أمامه مباشرة، لا يرى غير جسدها .. صدرها العريض .. من مكانه يلحظ أنها طويلة .. تكرر سؤالها أكثر من مرة بأكثر من صيغة، انفعالها مثل انفعال محب قلق، تعجبت من توترها وقلقها الحقيقي عليه وهو الذي ألقاها من سفينة حياته منذ زمن .. لكنها الأزمات التي تقرب المسافات وتُلقي الخلافات جانبًا .. تُلقيها إلى حين .. فإن ذهبت الأزمة وعاد الهدوء يطفو الخلاف إلى السطح مرة أخرى.

Scanned by CamScanner

يُمسك بيديها بكلتا يديه وكأنه يتعلق بيدٍ تنقذه من قلب بحرٍ ثائر، يلقي رأسه إلى جسدها، في مستوى رأسه أسفل بطنها يشعر به طريًّا دافئًا، بعد لحظات طالت، لم تُرد أن تقطع عليه سكونه فيها، يجذبها بهدوء كي تجلس فوق المقعد المجاور، تجلس بهدوء مغالبةً توترها .. ينظر ناحية غرفة البنات .. تهزُّ رأسها بأنهم ناموا من فترة، الأهم الآن أن تتحدث يا سعيد.

يتحدث أخيرًا ..

كان في طريق عودته في منتصف اليوم كعادته، كي يتناول طعام الغذاء .. يستريح قليلًا، يأخذ حمامًا منعشًا ويرتدي ثيابه الأنيقة ويهبط إلى حيث لا تعلم .. كان في طريق عودته بعد مجهود شاقٍّ في عمله، يعبر بسيارته ذلك الطريق الذي يتوسط البحيرات غرب الإسكندرية، يدندن مع أغنية يبثها راديو السيارة، يفكر في سهرة الليلة، لم يدرك ما يحدث حوله إلا في اللحظة الأخيرة، فجأة.

فجأة يشاهد شقيقه مصطفى يعبر الطريق أمامه ويتأمله غاضبًا، بحركة لا إرادية يضغط فرامل السيارة لتصرخ عجلاتها بشكل مفزع، تدور السيارة حول نفسها لترتطم بحديد جانب الطريق، يعبر أخيه بمسافة .. يصطدم رأسه بعجلة القيادة قبل أن يرتد إلى المقعد، يشعر بألم رهيب وصوت انفجار

Scanned by CamScanner

في أذنيه، يضغط دواسة الفرامل أكثر ويلصق ظهره بمسند مقعده كي يحافظ على جسده من التأرجُح، بسرعه ينظر في المرآة العاكسة، هل تأتي خلفه سيارات قد تسحقه؟ لكن كانت مفاجأة أخرى في انتظاره، لقد اختفت السيارات من حوله، هو الوحيد في المكان .. تترنح السيارة مرة أخرى إلى يمين الطريق وما زالت عجلاتها تشق الأسفلت الذي يئنُّ تحتها صارخًا، قبل أن تقف مكانها صامتة صمت الموتى، يبحث عن مصطفى في المرآة العاكسة.

يصرخ فَزِعًا .. مصطفى لم يكن خلف السيارة .. شقيقه يقف أمامه في منتصف الطريق تمامًا .. ذهوله منع عن عقله منطقية ما يحدث .. يترك سيارته وقد تملكته رغبة حقيقية في احتضانه قبل أن يسأله عمّا أتى به إلى هنا .. أو يسأله بعد أن يدرك: كيف كان خلف السيارة ثم فجأة يظهر أمامها؟!

لكن كل ذلك لم يحدث لأن مصطفى ترك جانب الطريق وتوغَّل عبر الأعشاب النامية على جانب البحيرة ليختفي بداخلها، يتبعه بسرعة صارخًا، لكن لا إجابة .. يفيق سعيد عندما يجد ساقيه تغوصان في ماء البحيرة على أطرافها وقد توغَّلت أعواد البوص في جسده .. يدفعها بعيدًا .. يتأمل باحثًا عن أخيه فلا يجده .. يكرر النداء .. ألف مرة .. لا مُجيب.

Scanned by CamScanner

قبل عودته إلى الطريق يسمع صرخة مدوية تأتي من قلب الأحراش ثم يعم الصمت .. يطول انتظاره .. تفشل كل محاولات بحثه .. في النهاية لا يجد غير تبرير الوهم .. لقد توهَّم كل ما حدث .. لا يخبرها عن حبوب السعادة التي يتناولها بشكل مستمر، إنما يضغط باحثًا عن جملة يبرر بها ما يحدث .. يقول: يبدو أن أخي في حاجة إليَّ.

يُنهي حديثه إلى زوجته بهذه الكلمات .. تربت على كتفيه بهدوء وكأنها تؤكد أن ما يمر به بالفعل هو إرهاق العمل، ودت لو تركت لداخلها العنان، تصرخ فيه بأن ذلك نتيجة حتمية لحالة التسكع التي يعيشها.

قبل أن يغادرا مكانهما يرن هاتف المنزل في هذا التوقيت من الليل.. تشهق وهي تنظر إلى زوجها مستفسرة، كأنه يعلم ماهية المتصل .. يهز رأسه نافيًا، بعد لحظات الدهشة يتحرك بقدمين ثقيلتين معلق بها ألف حجر، يرفع سماعة الهاتف بلا كلمات يستمع، يأتيه صوت أحد أصدقائه يلومه بشأن تليفونه المحمول المغلق قبل أن يخبره بكلمات مثل خناجر بأمر رهيب قد حدث، تسقط سماعة الهاتف من يد سعيد، نظراته مثبتة على لا شيء وكأن روحه بدأت تغادر جسده، تسأله زوجته بعصبية أكثر من مرة قبل أن يجيبها:

- مصطفى .. اتقتل .. عثروا على أجزاء جسده ممزقة في المقابر.

Scanned by CamScanner

(١٦)

«چو»

يتأمل والدته طويلًا، لا يستوعبها غاضبة إلى هذه الدرجة، لكنها الآن على غير ما اعتاده منها، تتأمل زين وكأنه عدو، شخص بينها وبينه عداوة استمرت سنوات، رجل قام بأقذر ما يمكن أن يقوم به رجل، نظراتها نارية، ترفع يدها في الهواء بشراسة و هي تشير نحو زين بأن عليه المغادرة فورًا.. يبدو أن هناك الكثير ما يزال بداخل صندوق أسرارها.

بمجرد وصوله يتحدث "زين" بمشاعر متضاربة بين خوف مما يحدث وسعادة بلقاء ابن خاله للمرة الأولى في حياته، يسرد لـ «جمال» كل ما مر به حتى لحظته هذه، يشعر بشيء من الراحة بعد أن أفرغ كل توتره أمام شخص آخر تربطه به صلة دم، لها مذاق خاص صلة الدم هذه، يقول في نفسه،

Scanned by CamScanner

يستشعر أنه سوف يواجه معه الخوف الذي يذهب بقُوَّته، توزيع المصائب يخفف من حِدَّتها، لكنه ما كاد يفعل حتى دخلت إليهم السيدة «إلهام فضل حلمي» زوجة خالة الراحل مصطفى الجندي.

سَمِع بعضًا من حكايات أمه عنها، لكن الصفات والأفعال التي تحدثوا بها لا تتناسب مطلقًا مع هذا الوجه الملائكي، قيل له إنها جميلة وأنها تفتخر بجمالها وتستغله أسوأ استغلال.

لكن لا .. هو لا يرى ذلك .. لا يشعر بأي شيء مما قيل .. علامات التوتر والانفعال البادية على ملامحها لم تترك بداخله ذلك الأثر المنتظر، يشعر أنها أرق من ذلك، أكثر طيبة مما تحاول إظهاره، يبتسم وهو يزدرد لعابة فيشعر بجفاف حلقه، يقف ليواري توتره وهو يمد يده ليصافحها:

- أهلًا وسهلًا بحضرتك.

لا تمدُّ يدها وتكرر سؤالها، لقد سألتك: ماذا تريد؟! يرتبك زين لحظة وهو يعيد يده إلى جانبه، ينظر ناحية جمال وكأنه يستغيث به لإنقاذه مما هو فيه، يقف «چو» راسمًا ابتسامة حاول جعلها عريضة وهو يشير نحو زين ويتحدث إلى أمه قائلًا:

- زين ابن عمتي يا ماما.

Scanned by CamScanner

- ما الذي أتى به؟

قالتها بشدة وقد ضربت بيدها الهواء، لكن يدها طاحت حتى اصطدمت بحافة الباب، تصرخ بشدة وبحركة غاب فيها عنها إدراكها تلتفت ناحية الباب لتركله بقدمها، فتتأوَّه أكثر، يشهق جمال وزين في لحظة واحدة، يشعر زين بأنه مُقيَّد لا يستطيع الحركة، يُسرع جمال ليمسك بيد أمه محاولًا تهدئتها، برفق يدفعها إلى الداخل، يطلب منها الهدوء فهناك معلومات جديدة أتى بها زين يجب أن تعرفها.

تستقر في الصالة وما زالت تفرك يدها اليمنى بيدها اليسرى وابنها يساعدها في دعكها بلطف بينما تنزعها منه أكثر من مرة حتى تستسلم وتتركها بين راحتيه، يحكي لها ما سمعه من زين منذ لحظات وما يمر به في قريته نزلة شرموخ في الأيام الأخيرة والتي تتزامن مع ما يمرون به في مدينتهم، نفس التفاصيل تقريبًا مما يُزيد الأمر غموضًا، يجب أن يتم جمع المعلومات والتوافق لمعرفة طبيعة ما يحدث، في النهاية قرار الابتعاد والعزلة في أيديهم، لا أحد يجبرهم على بقاء التواصل.

تهدأ إلهام بعض الشيء .. لكنها لا تُظهر ذلك الهدوء دفعة واحدة، تتحدث بإصرار:

- دعك مما يقول .. ليرحل الآن.

Scanned by CamScanner

يواجهها جمال بإصرار لم تشاهده عليه من قبل، يخبرها بأنه لن يتركه، سوف يتعاون معه للوصول إلى سرٍّ ما يحدث، هنا تقف مشدوهة، غضبة عظيمة تحتويها، عاشوا في راحة منذ أن رحلوا عن نزلة شرموخ حتى اليوم الذي عاد فيه والده إلى هناك .. وبعد ساعات عثروا على جثته ممزقة، ثم مرت عشر سنوات حتى اليوم ..

تصرخ إلهام صرخة مكتومة وهي تضع يدها على فمها، الآن فقط تدرك مدة العشر سنوات، قُتل حموها وبعد عشر سنوات حدث ما حدث مع والدة مصطفى ومقتلها الغريب ومغادرتهم نزلة شرموخ، ثم عشر سنوات أخرى ويُقتل زوجها .. والآن عشر سنوات أخرى .. سوف يحدث أمر رهيب .. إنها اللعنة العشرية.

تلقي جسدها تحتضن ابنها .. يمسكها من كتفيها كي يجعل وجهها في مواجهته، يتأملها .. بعد لحظات يحاول تهدئتها وطمأنتها .. يفاجأ بها تمسك بيده وتسير به حتى المكان الذي ينتظرهما فيه زين، الذي كان ما يزال واقفًا لا يستطيع التحرك من مكانه.

يُفاجأ بها زين وهي تشير نحوه بالجلوس، تدفع إلهام ولدها بهدوء كي يجلس إلى جوار زين، بمنديل في يدها تجفف دمعها ورشح أنفها، ترفع خصلات شعرها وتلقيها إلى الخلف وهي تمتص من الهواء دفعات تملأ به

Scanned by CamScanner

صدرها، تجلس في مواجهتم، تشرح لهم ما توصلت إليه وأن هناك كارثة حقيقية سوف تحدث خلال الأيام التالية، ويجب الحذر لتفادي ذلك بأي شكل .. عليهم الابتعاد.

يعم الصمت ..

يذهب جمال خلف ما شرحته الأم وربطت الأحداث بعضها ببعض، وتأكيد المدة الزمنية الفاصلة بين كل حدث وآخر، لكنه لا يعلم سبب تلك الحماسة التي تولّدت بداخله فجأة، لم يكن من قبل مغامر، الآن يرغب في اكتشاف الأمر .. لا بد من استنطاق الماضي لمعرفة أسباب ما حدث من قبل وما سيحدث مستقبلًا، قَدَره المكتوب ألقاه إلى هذه المنطقة وعليه أن يكون على مستوى يليق بهذا الاختيار.

زين يتذكر ما مر به يوم الساقية المهجورة وخَرس الغولة وما شاهده في بيت جده القديم، السّرُّ يكمن في هذا البيت وبالتحديد في حجرة جده المغلقة منذ وفاته، يتذكر أيضًا خطيبته شيماء وكيف شاهدها داخل هذا المنزل وحولها أشباح مرعبة، ما دخل شيماء في الأمر؟! لا يعلم .. لكنه لا بد أن يعلم .. لن يستجيب لما تتحدث به السيدة إلهام زوجة خاله الراحل مصطفى الجندي .. سوف يستمر مهما تكن النتائج.

Scanned by CamScanner

تتحرك يد جمال تبحث عن يد زين لتمسك بها، كانت يد زين تتحرك في نفس اللحظة تبحث عن يد تعاونها، تتعانق الأيدي في قوة .. تتلاقى أعين الشابين .. تصمت إلهام وقد وصلتها رسائل إصرارهما عبر تشابك الأيدي ونظرات الأعين المليئة بالإصرار والتحدي، يسقط قلبها من بين أضلعها حينما تدرك أنها الآن أضعف من أن تقاوم رغبات الشباب.

تشهق بشدة وهي ترتعد مكانها .. مَن سيكون قتيل لعنة هذه الأيام؟

Scanned by CamScanner

(١٧)

«شيماء شعلان»

لم شيماء تكن تتخيل حسين شعلان، خطيبة «زين»، يومًا ما أنها سوف ترتبط بالمدعو زين هذا، ففي ريف مثل نزلة شرموخ العائلات تتآلف كما القلوب وتتنافر أيضًا، وعائلة شعلان لا رابط بينها وبين عائلة الجندي، فعائلة الجندي شرموخ .. أصل نزلة شرموخ تعتقد في نفسها، رغم ما مرت به ورغم انفراط عقدها، أنها من عِلية العائلات بينما عائلة مثل «الشعلانية» هم من أحقر العائلات فهم «أُجرية» يقتاتون من فُتات الأثرياء مقابل عملهم في حقولهم.

بالرغم من أن فرع الجندي، أحد فروع شرموخ، كان فرعًا في بدايته فقيرًا، فإن الجندي استطاع عبر سنوات قليلة وبدون عمل يُذكر أن يمتلك

Scanned by CamScanner

عشرات الأفدنة وكثيرًا من المشروعات المرتبطة بالإنتاج الزراعي، أولاده الفشلة، كما يراهم حسين شعلان وفقراء القرية، كانوا غير جديرين على الإطلاق بما يمتلكون، لذا عمَّت الفرحة، غير المعلنة بالطبع، الكثير من أهل نزلة شرموخ عند وفاة الجندي وبعد سنوات وفاة زوجته وهجرة أولاده، تاركين أختهم «هناء» فقط في عصمة زوجها لتربي أطفالها.

لا يعلم حسين شعلان أي شيطان ألقى تلك الفكرة إلى عقله، لكنه في يوم شديد البرودة على غير ما يتوقع الجميع، فلم يكن الشتاء قد أتى بعد، يدخل على «وهيبة» زوجته، قبيل انتصاف الليل، عائدًا من المقهى، يوقظها من نومها ليهمس في أذنها بما أوحى به شيطانه إليه، كانت تستمع إليه بضيق في البداية، بعد لحظات تغيَّرت ملامح وجهها وانفرجت أساريرها حينما طرح أمام مخيلتها ذاك النعيم المنتظر، لكنها بعد دقائق، وقد أفاقت بعض الشيء من سيطرة النوم عليها وأحلام يقظتها التي وسوس إليها بها زوجها، نظرت نحوه مشدوهة وكأنها سَمِعَت ما قاله منذ دقائق الآن فقط، ضربت بيدها على صدرها في دهشة، تكتم صرختها لتخرج كلماتها ضعيفة لئلا يصل صوتها خارج الغرفة فيُفتضح أمرهما أمام أولادهما، تقول:

- أذهب إلى «مسيحة الأعرج» لعمل حجاب لابنتنا شيماء؟!

Scanned by CamScanner

يضغط على يديها كي لا ترفع صوتها ثم يهمس بكلمات دقيقة:

- لها ولزين .. يرتبطان .. ويتحقق لنا المراد.

تتأمل فراغ الحجرة حتى تستقر عيناها على نقطة سوداء في السقف تظهر بوضوح رغم الإضاءة الخافتة المنتشرة في الغرفة، النقطة السوداء تنتشر في السقف لتشكل صورة لعنكبوت ضخم، تفزع السيدة مكانها وهي تنكمش في صدر زوجها، لا تبالي بما يتجسد في سقف الحجرة، هي تعلم أن ذلك مجرد وهم، لم يصل عقلها إلى درجة تخيل أن ذلك شيء حقيقي ينشر خيوطه السوداء ولعناته الكبرى في المكان.

لم تكن لتصدق قط أن زوجها جاد فيما يقول، تتأمله لحظة قبل أن تسأله سؤالًا يدل على موافقتها التامة ولكنها تبحث عن الحلول كافة حتى لا تحدث مشكلات ما في المستقبل:

- وماذا بعد أن يتحقق المراد؟

- تذهبين إلى مسيحة الأعرج كي تبطلي الحجاب وتعود لنا شيماء.

- وماذا عن زين حفيد الجنادي؟

لا يجيبها زوجها بكلمات .. إنما يبتسم لحظة قبل أن يرفع يده نحو رقبته علامة القتل، تشهق وهي ترتد إلى الخلف، لكنه يمسك بيديها بكلتا راحتيه، يهمس:

Scanned by CamScanner

- إنهم عائلة مُدنَّسة .. والقتل عندهم منتظر .. ولن نعدم الوسيلة لتدبر الأمر بعيدًا عنا.

لم تمر الساعة حتى تكون زوجة حسين شعلان قد اقتنعت تمامًا، بل كانت تبتكر وتضيف إلى تفاصيل الخطة، ولِمَ لا وقد شاهدت مستقبلهم بعد أيام من أثرياء النزلة، تشاهد ذراعيها وقد غاصت في أساور ذهبية وعلى صدرها تتدلى الذَّهبيات المرصعات على شكل مصحف.

في اليوم التالي وفي عمق الليل تجلس «وهيبة» والدة شيماء في غرفة صغيرة يتخذ منها مسيحة الأعرج مقرًّا لأعماله الشيطانية، منزل مسيحة يقع في منتصف قرية نزلة شرموخ وبالتحديد في الجهة الغربية للمقابر التي تتوسط القرية، قديمًا كانت المقابر على أطراف القرية، عددها كان قليلًا لا يُلفت الأنظار، مع مرور الزمن، وزيادة عدد سكان النزلة زاد عدد المقابر، تخطتها الرقعة السكانية حتى أضحت المقابر في منتصف القرية، تحركت عدة دعوات من أبناء النزلة المثقفين يطالبون فيها بنقل المقابر إلى خارج القرية وتحويل مكان المقابر الحالية إلى حديقة عامة تحتوي على عدد من المقاعد وألعاب الأطفال وكشك صغير يبث الموسيقا وكشك آخر يبيع المأكولات والمشروبات، لكن الدعوات كانت تُقابل بهجوم مضاد من أناس لا يتغيرون

Scanned by CamScanner

كل مرة، منهم مَن يتخذ من عظام الموتى وحُرمة التعامل معها ذريعة للرفض، ومنهم مَن له مآرب أخرى في الرفض، ومنهم مسيحة الأعرج، أعماله الشيطانية كلها تعتمد على المقابر التي يتجول فيها بعد انتصاف الليل بمنتهى الحرية، منها يحصل على عظام الموتى أو قطع من أجسادهم، وفيها يدفن أعماله السحرية.

لم يجرؤ أحد على مواجهته ذات يوم بما يفعله خشية ضرر قد يصيبه إن تمت المواجهة، لذا وصل الأمر بمسيحة الأعرج أن يُجاهِر بما يفعله.

مسيحة الأعرج لم يخشَ أحدًا في نزلة شرموخ قدر خشيته «الجندي عبدالحميد شرموخ» .. يعلم جيدًا مقداره في عالم السحر والتعامل مع الشياطين، هو الوحيد الذي كان يعلم مع مَن يتعامل الجندي، لقد أخبره أتباعه أن الجندي عبد الحميد شرموخ تخطى كل ما يتخيله العقل البشري وهو في طريقه لتسخير أقوى مردة الجان لتحقيق ما يحلم به، كل مَن انطلق في هذا الطريق يعلم أن مجرد التفكير في ذلك كافٍ للقتل في أقل من طرفة عين، ماذا يفعل الجندي؟ وكيف لا يخاف؟ ومَن من مردة الجان سيطيعه؟

هذا ما كان ينتظره الشاب مسيحة الأعرج وقتها، وما إن أُعلن خبر وفاة الجندي إثر أزمة قلبية حتى ابتسم في سعادة وهو يؤكد لنفسه أنه كان على حق

Scanned by CamScanner

وأن الجندي كان على خطأ، من جانب آخر بوفاة الجندي تخلو الساحة تمامًا لأعمال مسيحة الأعرج، الآن يتاح له التعامل مع الناس بدون أي خوف من آخر يكشف ألاعيبه وأعماله.

تجلس وهيبة في صمت بعد أن قدمت إلى مسيحة قطعة من ملابس ابنتها الداخلية وقميصًا يخصُّ «زين» استطاعت أن تحصل عليه من غسيل والدته هناء المنشور في شرفة المنزل التي تطل على الشارع.

تتصاعد الأدخنة وتتردد في الغرفة العبارات المبهمة وكلمات طلسمية، ينتفض مسيحة في مكانه وتنتفخ أوداجه بعدما تكسوها الدماء بشكل ملحوظ، رجل خمسيني نحيل الجسد، أبيض البشرة المغزولة بآثار بهاق، أعرج بسبب ضمور في ساقٍ أصيب به في طفولته، يتحرك مكانه في قلب الدخان مثل جني يظهر من العدم فتنكمش وهيبة في مكانها أكثر وأكثر.

بعد نصف ساعة تقريبًا تخرج وهيبة إلى الشارع باحثة عن هواء تملأ به صدرها المختنق، تغطي رأسها بشال أسود حتى لا يتعرف إليها أحد من أهالي القرية.

ينتظرها زوجها حسين شعلان على أحرّ من الجمر و قد تجسدت أمامه تفاصيل السيطرة على زين والوصول إلى تحقيق الثراء حتى إنه يشاهد نفسه

وقد أطلق رجاله وكلابه ينهشون أجساد أهالي نزلة شرموخ بينما يجلس هو في ملابسه الفاخرة الفضفاضة على مقعد عريض وفي يده اليمنى عصا وفي اليسرى طرف خرطوم النارجيلة وعلى جانبيه رجلان غليظان شديدان، وعلى أطراف القرية رجال ينزعون اللافتة المكتوب عليها «قرية نزلة شرموخ» و يضعون مكانها لافتة أخرى مكتوبًا عليها «قرية الشعلانية».

يفيق من أحلامه على زوجته وهي تغلق الباب خلفها وترفع عن رأسها شالها الأسود، تمدُّ يدها إلى صدرها تستخرج كيسًا أسود صغيرًا به أشياء غير واضحة المعالم، تُفرغ محتوى الكيس على المنضدة أمامه، ثم تبدأ في شرح التفاصيل التي حفظتها جيدًا خلف «مسيحة الأعرج».

في صباح اليوم التالي، على مائدة الإفطار الذي أصرَّ أن تشاركه فيها ابنته شيماء، يبدأ حسين شعلان في الحديث عن أسرة الجندي شمروخ وبالتحديد عن «زين» خيرة شباب هذه الأسرة والموجود على أرض القرية، تتعجب شيماء في البداية، فتلك عائلة بعيدة كل البعد عن محيط اهتمامات عائلتها، ماذا حدث اليوم لمثل هذا الكلام؟! لكنها لا تعلق.

في اليوم التالي يتحايل حسين شعلان، بناء على توجيهات زوجته، كي يقابل الشاب زين ويتحدث معه، في المساء يستقبله في بيته كي يعطيه ما عثر

Scanned by CamScanner

عليه من أشياء تخصُّه وجدها أثناء عودته إلى القرية مساء اليوم السابق، كانت وهيبة قد استطاعت أن تحصل على عدد من قطع ملابس تخصُّه ورتبتها في حقيبة صغيرة، وكأن شخصًا أعدَّها لسفر قصير، ومع الملابس وجدت ورقة صغيرة بها اسم زين كمؤشر للدلالة على صاحب الملابس.

لم يلحظ زين خلال الأيام الماضية اختفاء قطع من ملابسه، خاصة أنه مثل الكثير غيره يُلقي ما اتسخ في سلة الغسيل في حمام منزله ولا يعلم عنها شيئًا حتى تمضي أيام ويبحث في دولاب ملابسه عن شيء يرتديه فيجدها أمامه، لكن مؤكد لو مرت مدة أطول لكان لاحظ اختفاء هذه القطع من ملابسه. أمه أيضًا لم تلاحظ، لأنه لم يسألها، ولأنها لم تتوقع يومًا أن يظهر في قريتهم لصُّ ملابس.

يتعجب زين حينما يشاهد ملابسه وقد صُفت في هذه الحقيبة بهذا الشكل بينما يُمسك بيده تلك الورقة التي تحمل اسمه، لا يرفع عينيه نحو شيماء التي حملت إليه كوب العصير، هنا تدعوها الأم إلى الجلوس معهم، زين ليس بالغريب وهو رجل مؤتَمن، يوافقها الوالد فتجلس شيماء راسمة على وجهها ابتسامة عريضة.

شيماء تعلم أنها أصبحت فتاة جميلة ينظر نحوها شباب القرية بإعجاب شديد، لكنها تعلم أيضًا أنها لن تكون لشخص مثل زين، لأنه وعائلته في وادٍ

Scanned by CamScanner

وعائلتها في وادٍ آخر، وثانيًا لأن شيماء معجبة بشاب آخر من أبناء الجيران وتحلم بيوم يتقدم إلى والديها لخطبتها.

يتناول «زين» العصير بهدوء بينما كانت «وهيبة» تتأمله ومع كل رشفة تتزايد سعادتها، فقد أعدت العصير بنفس التفاصيل التي أخبرها بها «مسيحة الأعرج».

ينتهي زين من تناول المشروب ويقف حاملًا الحقيبة كي يرحل، لكن حسين شعلان يستبقيه قليلًا ليستفسر منه عن حال أسر أخواله مصطفى وسعيد، في نفس التوقيت تدفع «وهيبة» ابنتها للاقتراب من الشاب والتحدث معه.

تخرج وهيبة وبعد لحظة تستدعي زوجها لأمر مهمٍّ، يتركان ابنتهما مع زين في تمثيلية مفضوحة وساذجة، لكن أحدًا منهم لا يبالي، النتيجة المنتظرة هي أملهما، أملهما الآن معلق على قدرة ابنتهما على غواية زين، ولم تكن شيماء في حاجة إلى توجيه.

فتاة تلهو لارضاء رغبات أنوثتها بمباركة والديها وتحت أعينهما، اقتربت من زين تتدلل بشكل أربكه كما العذارى في بداية الأمر لكن دقائق ويترك يده بين راحتيها تمسحهما في رفق.

Scanned by CamScanner

كم كانت صدمة هناء الجندي حينما أخبرها ابنها برغبته في الارتباط بشيماء ابنة حسين شعلان، آخر فتاة يمكن أن تفكر فيها، لكنها شاهدت في عين ابنها إصرارًا غريبًا، علامات لم تعهدها فيه من قبل، رفضت بطبيعة الحال واستدعت شقيقه وأصدقاءه، لكنه لم يرجع عن قراره.

الحقيقة أن زين كان على قَدْرٍ كبير من الهدوء والتريث لكنه في جانب الاختلاط بالفتيات كان صفرًا، هو من تلك النوعية التي يبدو عليها اللباقة والقدرة على الاختلاط، لكنه في واقع الأمر لم يفعل ذلك مطلقًا، أي فتاة تقترب منه وتتحدث معه تكون فتاة أحلامه، ولو حدث وقابل غيرها بعد أيام وتقربت منه لنسي الأولى وتعلق بالثانية وهكذا حتى تستمر علاقته بإحداهن فيستقر ويعيش حياته بشكل نمطي.

أيام و يتم إعلان خطبة زين وشيماء .. باقي التفاصيل عادية جدًّا كان الهدف منها اقتراب زين من شيماء، حتى ذلك اليوم الذي يأتي فيه حسين شعلان إلى زوجته لتبدأ المرحلة الجديدة في خُطتهم، حيث تبدأ شيماء في التغير، لكن الأمر لم ينطلق كما خططوا له .. فلم يكن مجرد تغير في العلاقة، إنما تحولت شيماء إلى رفيقة جان رافقها بسبب تلك الأفعال الشيطانية التي انتهجها والداها مؤخرًا، بالتالي ظهرت أفعال لم يكن يخطر على بال أحد أن تأتي من تلك الفتاة التي تسكن منزل صغير في قرية نزلة شرموخ.

(١٨)

«إلهام»

قد تأتي لحظات على قطة ناعمة هادئة وتتحول فيها إلى قطة عدوانية شرسة تمزق بأظفارها تلك الأيدي التي كثيرًا ما ربتت عليها بعطف .. لا تعلم إلهام لماذا نظرت إلى أظفارها وتخيلتها لقطة شرسة متنمرة .. لكنها آثرت الصمت وتابعت ابنها جمال وهو يسأل زين عن وسيلة كي يصلوا بها إلى ابنة عمه كما استطاع الوصول إليه، زين يمطُّ شفتيه تعبيرًا عن أنه لا يمتلك أي معلومة، هو بصعوبةٍ أعمل عقله واستطاع أن يصل إليه كي يتعاونا معًا للوصول إلى كَرمة هذه إن صدقت الرؤيا وكانت هناك فتاة تُدعى كرمة.

لقد حاولت منعهما من الخوض في أي شأن يخص عائلة الجندي، لكنها في النهاية استسلمت وصمتت، عيناها شاردتان وقد غطتهما غلالة شفافة تُخفي كثيرًا مما بداخلها.

Scanned by CamScanner

ما بداخلها كان أكثر مما يتخيل أحد، تخشى أن تُظهر الكثير من الإصرار والعناد كي لا توجه أنظار ابنها نحوها، تغلق عليها بابها، تتمدد فوق سريرها، لا تشعر بدمعاتها التي تنحدر على وجنتيها، تعود بذاكرتها عشرين عامًا، بالتحديد في ذلك اليوم الرهيب الذي حدثت فيه أمور جنونية، جسد والدة زوجها مُسجًّى في الهواء، يطير بشكل جنوني وكأنه محمول فوق أعناق مجموعة من مردة الجان. فجأة تشعر إلهام بدفقة من الهواء تخترق أذنها، تشهق قبل أن تتأمل الجميع في فزع.

هناك تغيير ما يحدث بداخل إلهام وكأن شيئًا ما يتخلل جسدها، فزع الجميع مما يحدث جعلهم لا يلحظون شرودها وانتفاضها مما يحدث بداخل جسدها، هي نفسها هزت رأسها أكثر من مرة كي تفيق مبررة ما تشعر به على أنه نتيجة حتمية لما يدور حولها من جنون حقيقي، لكن الأمر فاق الوصف، أسراب نمل تسري في كل جزء من جسدها، نار حقيقية تنطلق كما الدماء في العروق، قمة الرأس يُدق من الداخل بمطرقة رهيبة، ذراعاها وساقاها مثل قطع مطاطية رخوة، غشاوة مثل ستائر سوداء تسقط فوق عينيها.

طفلها نائم في حجرتها، تترك ما يحدث وتسد أذنيها، لا ترغب في سماع أي شيء، تغلق باب غرفتها لتلقي جسدها إلى جوار ابنها .. رضيع لم يتخط

Scanned by CamScanner

عامه الثاني، تتأمله ولا تعلم أن عينيها قد تحولتا إلى جمرتين، تتحرك يداها إلى عنق طفلها في حركة جنونية، وكأن الطفل يشعر بما يحدث، يستيقظ .. يتأمل أمه في صمت .. يتأمل يديها اللتين تتوجهان نحوه بقسوة وعيناها الدمويتين .. وكأنها تداعبه يضحك .. تقترب أكثر .. فيضحك أكثر .. يتخللها صوت ضحكاته، تهز رأسها فجأة .. تنتفض في مكانها .. كأنها تفيق وتعود إلى الوعي، تجد يديها مُشهرتين نحو رقبة طفلها، ماذا كانت تفعل؟! تصرخ وهي ترتد إلى الخلف، يفزع الطفل وتضيع صرخاتها مع ما يحدث في الخارج، تشعر بجسدها وكأنه محموم، سخونة رهيبة تخرج من جسدها، تقف لتواجه نفسها في المرآة، تشاهد تفاصيل أخرى .. تفاصيل مفزعة .. شعر منفوش وعينين دمويتين وملامح قاسية كما الحجارة، تصرخ وتصرخ قبل أن تسقط أرضًا.

تمر ساعات لا تدرك فيها تفاصيل الوجود وإن كانت تعيش في قلب عالم آخر تشعر به حقيقي تمامًا، عالم غريب بلا كلمات .. ألوان صارخة ومجسمات غريبة .. مَن يتحرك ويتكلم يتخذ أشكال مجسمات غريبة وكأنها سقطت على سطح كوكب خيالي، تشاهد نفسها تتحرك بلا قدمين، تسقط من قمة عالية فتتلقفها ورقة شجر .. تتعجب .. أهي صغيرة إلى هذا الحد أم أن ورقة

Scanned by CamScanner

الشجر عملاقة؟! لا تعلم .. لا توجد مقاييس واضحة، فالإنسان يتعرف الأشياء من خلال المقارنة بما يدركه عقله.

تفيق بعد هذه الساعات ولا تعلم في أي عالَم تعيش، لا تجد طفلها بجوارها، سيدة مسنة جارة لهم، ترتدي ملابس سوداء، تجاعيد وجهها تُخفي دموعها .. تتأملها إلهام في صمت لحظات وهي تدور بعينيها في أرجاء الغرفة، أخيرًا تهمس فتشعر بألم رهيب: «ماذا يحدث يا خالة؟» بهدوء ترفع السيدة المسنة رأسها .. تخبرها بأن لا أحد في المنزل، الآن جميعهم في المقابر يدفنون والدة زوجها.

تشهق إلهام وهي تتذكر ما حدث وكيف أنها شاهدت جسد السيدة يطير في الهواء، الآن ماتت ويوارون جسدها التراب، تحكي لها السيدة أنهم أدركوا غيابها بعد دقائق من اختفائها في غرفتها وكانت تقوم بحركات غريبة خشوًا معها على الطفل فأبعدوه، واستقرت هي بالجوار حتى تمت عملية غسل المتوفاة والذهاب إلى المسجد للصلاة عليها ودفنها، تتأوّه السيدة المسنة وتؤكد لها أنها ما كانت ترفض مرافقة جارتها الغالية حتى قبرها لولا ألم شديد في عظامها، إنه أثر مرور الأعوام على هذا الجسد، تُشير إلى جسدها، الذي عاش أكثر مما يجب.

Scanned by CamScanner

لا توليها إلهام اهتمام .. تفكر فقط فيما آل إليه جسدُها .. ماذا جنت منذ أن تزوجت مصطفى الجندي وأصبحت أحد أفراد هذه العائلة؟ طفلها جمال .. نعم .. هو ثمرتها الوحيدة .. وهو أملها .. بل هو سبب ارتباطها بالحياة.

تتذكر هذه الأحداث الآن .. لكن هناك الكثير في جعبتها لم تتذكره بعد، الكثير الذي يقبض روحها عندما تتدرك بعضه فينفض رأسها بسرعة كي تهرب منه .. لكن هل تهرب كثيرًا .. أم تعود الذكرى لتتجسد أحداثًا حقيقية هذه الأيام على يد ابنها؟

تعود من نوبة شرودها إثر طرقات على باب الحجرة .. يأتيها صوت جمال يستأذن في الدخول .. تهمهم بكلمات دالة على السماح، يدلف إلى الحجرة بجسده الممصوص لكن عينيه تحملان أملًا، تتأمله صامتة .. على وجهه ابتسامة مُشجعة، يتمنى لو توافقه على ما يعتزم القيام به، سوف يفعل ما يريد .. لكنه يودُّ لو يفعله بموافقتها.

تشير براحتها اليسرى بأن يجلس إلى جوارها فوق حافة السرير، يجلس في صمت ويضمها إلى صدره، تتكوَّر بسرعة في صدره، كم كانت في احتياج إلى صدر يحتويها، يربت على ظهرها برفق! لم تشاهد عينيه الشاخصتين نحو نقطة ما في سقف الحجرة حينما قال:

Scanned by CamScanner

– لا تخشي الغد يا إلهام .. نتحرك داخل إطار مصائرنا ..

تهزُّ رأسها بهدوء علامة الموافقة، يضمها أكثر وهو يُقبّل رأسها ثم يقول:

– فقط .. لو تخبرينني بكل التفاصيل القديمة .. أعلم أن بداخلكِ ألف سِرٍّ.

تترك صدره وتتأمله لحظات، يبدو أن بداخلها تتصارع الرغبات، على وجهها تتوالى ألوان قاتمة .. تفتح شفتيها كي تتحدث، لكنها لا تجد طاقة لتتحدث بها، تومئ برأسها بأنها موافقة ثم تعود إلى صدره.

بعد ساعة تنتهي إلهام من إعداد الطعام، يساعدها جمال حيث يحمل الأطباق إلى المائدة، بداخل كُلٍّ منهما استعداد غير عادي للحديث المنتظر.. هل تصارحه إلهام بكل التفاصيل؟! بالطبع لا .. لن تخبره شيئًا عن حبها القديم .. ولا دخل له بما تعانيه عائلة الجندي شرموخ .. تحدد الموضوعات الخاصة باللعنة العشرية في رأسها .. تتوقف عند نقطة بداية اللعنة.

سوف تُبدي جهلها بالأمر وهو جهل عامٌّ لدى العائلة بأكملها، فلا أحد يعلم أسباب اللعنة .. وهو اللغز الذي سوف يتخذ جمال قراره بالبحث عن حَلٍّ له مستعينًا بزين ابن عمته، لكن في البداية يجب التحقق من تلك الرسائل الآتية من تلك الشخصيات التي تَدَّعي صِلتها بعائلة الجندي شرموخ.

Scanned by CamScanner

(١٩)

«كَرمة»

ذَبُلَ جسد كرمة مثل عود أخضر يحمل زهور القلب النازف وقد جَفَّ، أيام تمرُّ وآلام الانتظار أسوأ .. لو يحدث الأمر السيئ وينتهي أفضل ألف مرة من انتظاره، تتضرع إلى الله في صلاتها بأن يُخفِّف عناء أسرتها البائسة.

تقرر مواجهة والدها .. لِمَ يتهرب من المواجهة بشكل مستمر؟! هو شقٌّ أصيل في عائلة الجندي شرموخ، هروبه لن يحميه من شر اللعنة، لا بد أن يشاركهم آلامهم .. مهما كانت حياته عابثة فهو مؤكد يمتلك معلومات .. سوف تسأله عن التفاصيل كافة .. وسوف يخبرها عن عمها وأسرته وعمتها وأسرتها .. لا بد أن تكتمل الصورة .. ما حكته لها الأم غير كافٍ.

تتصل به وبكلمات كلها حزم تطلب لقاءه في مكان خارج المنزل .. جعلت كلماتها صارمة حتى لا يتعلل بأي عمل، لم يرفض بينما تكسو وجهه دهشة

Scanned by CamScanner

من أمر اللقاء خارج المنزل .. أصرت كرمة على ذلك .. يوافق على أن يختار هو مكان اللقاء، تخشى أن يختار أحد الكافيهات الصاخبة التي يقصدها، يفكر لحظات قبل أن يختار خيمة بدوية على بحيرة مريوط الموازية للساحل الشمالي، مسيرة نصف ساعة بالسيارة من مسكنهم في مدينة الإسكندرية.

قبيل الغروب يعود سعيد الجندي بعد أن يُنهي بعض أعماله، يتصل بابنته كرمة طالبًا منها النزول، ينتظرها في سيارته الخاصة أسفل البناية. يتأمل المارة وهو يملأ صدره بهواء البحر الذي يحتوي على الأيونات السالبة التي تعمل على زيادة سرعة القدرة على امتصاص الأكسجين، الأغلب لا يعلم تفاصيل فائدة هذا الهواء، لكنهم بطبيعة الحال يشعرون براحة كبرى إن هم تنفسوه فترة من الوقت، سعيد الجندي يملأ صدره به ليل نهار، منذ سنوات وهو يخشى مفارقة البحر، يصاب بالجنون إن لم يأكل من ثمار البحر وأسماكه يومًا بعد يوم، تنتعش حالته المزاجية بسبب ذلك وبسبب إقباله على الدنيا ليعب منها قدر ما يستطيع.

لكن .. وهناك في أعماقه تستكين الهموم التي يرفض أن يستدعي بعضها، ما قد فات يُدفن مع مَن رحلوا. اليوم حياة وغدًا حياة أخرى .. إلى أن تنتهي الرحلة على هذه الأرض، ربما هناك رحلات أخرى في مكان آخر أو على هذه الأرض، لم يُجهد نفسه في البحث عن إجابة شافية يؤمن بها.

Scanned by CamScanner

تظهر كَرمة من مدخل البناية .. ترتدي فستانًا بلون النسكافيه من الكتان يتدلى حتى أسفل الركبة بقليل مع حذاء بوت طويل، مصنوع من الجلد الطبيعي، بني اللون مزين بسلسلة بلون الذهب وكأنها خلخال، تضع على كتفيها شالًا بنيًا يتماشى مع لون الحذاء في الأسفل، تلف الشال بشكل رقيق حول رقبتها وهي تدلف إلى داخل السيارة بينما يتهادى شعرها على وجنتيها في رفق. تُلقي بالتحية نحو والدها وقد كست وجهها بشيء من الجدية، تخشى مراوغته إن هي ابتسمت له، لا يستطيع أن يُخفي ابتسامته، جميلة هي كرمة، روحها في اتساع الكون، محظوظ مَن يحتويها مستقبلًا.

تشير كرمه إلى أبيها بالانطلاق .. يهز رأسه عائدًا إلى المكان وهو يتمتم بكلمات مبهمة، فهمت كرمه بعضها، يُثني على جمالها، تشخص بوجهها إلى الأمام لتقطع عليه أي فرصة في الاسترسال، لن تبدأ الحديث الآن، حينما تجلس في مواجهته كي تحصي كل انفعالاته، لن تدع له فرصة الهروب أو المواربة أو التمثيل، الحقيقة كاملة هي ما ترغب.

بعد نصف ساعة تصل سيارة سعيد الجندي – و هي سيارة فارهة تدل على بذخ صاحبها – إلى ساحة انتظار السيارات أمام خيمة «قرية قرطبة» للمأكولات البدوية، كانا قد قضيا الطريق بين صمت وكلمات تخص حادث

الأم الأخير، يؤكد سعيد لابنته أنه لم ولن يهمل زوجته أبدًا، لكنها لا تدرك طبيعة الرجل في تلك المرحلة العمرية.

وضع الزوج في قفص حديدي تحت مسميات الأسرة والواجب الاجتماعي، وهو في الأصل يُوضع داخل هذا القفص خوفًا من الشرود إلى عالم آخر، هو أمر أصله غريزة الاحتواء عند الأنثى، هذا الاحتواء إن زاد عن حده الطبيعي انقلب تمامًا، وهنا تظهر حالات الانفصال، لكن في حالتي ولأنني رجل يعلم حقيقة الأمر ويُقدر وضع الأسرة نزعتُ عني أصفادي وخرجت من سجن الزوجة، يقهقه مثل طفل وهو يكمل: ولكني مكثتُ غير بعيد، أرقب بعين وأعيش حياتي بالأخرى. تهز كرمة رأسها توافقه بينما هي شاردة فيما عزمت عليه.

يغلق سيارته وهو يحتوي ابنته بذراعه اليمنى، يستقبلهما «حمدون»، شاب عشريني يرتدي جلبابًا أبيض وعلى رأسه شال أبيض، تبدو أصابع قدميه من بين سيور صندل بلاستيكي، يرحب بهم بلهجته البدوية، ينادي أحد العمال كي يستقبل الضيوف. يسألهم العامل عن رغبتهم في ترابيزة أم خيمة؟ تسارع كرمة بالرد باختيار خيمة في زاوية هادئة.

الخيمة بين العديد من الخيام مفتوحة من الأمام على مساحة واسعة تتوسط منطقة الخيام ومن الخلف يرفع العامل قماش الجدار الخلفي ليبدو مشهد رائع

Scanned by CamScanner

ولولا ما في قلب كرمة من حزن لتأملت المشهد لساعات حيث تبدو البحيرة مترامية الأطراف في مستوى جلوسهما تمامًا وكأنها صفحة فُرشت أمامهما.

يتهادى الهواء على صفحة الماء ليختلط بروائح الشواء المنتشرة في المكان مع رائحة شاي الزردة الذي تتميز به الخيمات البدوية. يطلب سعيد من العامل لحم التيس المندي مع الأرز البسمتي بالخلطة، إضافة إلى أطباق المائدة المتعارف عليها في المكان من سلاطات ومخللات وخبز مع زجاجات الماء المثلج، يرحل العامل سريعًا وقد دوَّن الطلبات على صفحة من صفحات عقله الذي تربى على حفظ الأوردرات بدون كتابة.

تضع كرمة حقيبة يديها فوق منضدة تتوسط الخيمة ثم تهبط بجسدها إلى وسائد المجلس العربي الأرضي، ترتكن بكوعها إلى المخدات الطرية، تستلقي بحرية وهي تعبُّ من هواء المكان، تُلقي ظهرها إلى الخلف وتمدُّ ساقيها إلى الأمام، تشعر براحة عجيبة تتسلل إلى داخلها، تتمنى لو تستمر تلك الراحة مدى العمر، لكنها ما أتت بحثًا عن راحة يصنعها المكان، أتت باحثة عن راحة تنبع من معلومات يخبرها بها والدها، تهز رأسها كي تعود إلى المكان لتتأمل والدها، تشاهده وهو يتمدد وقد جعل رأسه في مواجهة البحيرة. تتساءل في داخلها عما يفكر فيه الآن؟ هل يبحث عن قصة يسردها

Scanned by CamScanner

لها أم أنه يستمتع بجمال الطبيعة؟! عجيب أمر والدها .. إنه يبدو شخص آخر وليس ابن أحداث عظيمة .. لقد استطاع أن ينتزع نفسه كي يعيش هذه الحياة التي يحياها!

تنقل كرمة المخدات إلى الأمام قليلًا بحيث تكون في مواجهة أبيها تمامًا ثم تبدأ مباشرة:

- بابا .. نحن نمرُّ بأزمة رهيبة .. أمور معقدة وأسرار كثيرة خفية .. أغلبها بداخلك.

تشير نحو صدره في إشارة مباغتة وعلى ملامحها ترسم علامات الاستفسار وانتظار الرد، كان يشعر بداخله أنها ما طلبت لقاءه إلا لأحد أمرين .. أولهما أن يكون هناك شاب في حياتها وتودُّ أن تُحدِّثه بشأنه، وثانيهما أن تسأله عما تمر به عائلته هذه الأيام؟

لذا لم يفاجأ بسؤالها، بل يعتدل مثل نصف نائم ويبدأ حديثه بكلمات هادئة توحي عن استقرار نفسي بسبب مزاج معتدل يتنفس الطبيعة بكل تفاصيلها، لكنه ما إن يتوغل في الحديث حتى يعتدل أكثر ليواجه ابنته وتظهر آثار الدماء المتدفقة إلى الرأس على الوجه الذي تتزايد حمرته مع الوقت:

Scanned by CamScanner

- في بداية الأمر كنتُ أتصرف بشكل هادئ، حياتي مثل أي شاب في قريتنا، أمتلكُ قلبًا بِكْرًا وأحلامًا تكفي لإعمار الأرض، لم أحمل يومًا ضغينة لأحدٍ، أخي مصطفى .. عمكِ يا كرمة .. يكبرني بعامين، فترة زمنية قصيرة تجعل منا صديقين، كنتُ أحمل ذلك في قلبي، لكن مصطفى لم يكن يتعامل بذلك القدر .. معي أو مع غيري .. صموتًا كان .. له رغبات وأحلام تخصُّه .. أهم ما كان يميزه أنه عاشق للجمال .. خاصة ناحية النساء .. ما كان يشاهد فتاة جميلة حتى تحتل حياته، يحلم بها ليل نهار .. قد يبذل كل ما يملك في سبيل احتواء إحدى الجميلات.

يتلعثم قليلًا وهو يرنو نحو ابنته .. قبل أن تشجعه على استكمال الحديث يأتي الشاب البدوي، يعمل في همة ونشاط، يلقي قطرات ماء فوق المنضدة التي تتوسط الخيمة ثم يفرش سفرة بلاستيكية فوقها، تلتصق بفعل قطرات الماء فلا تتأثر بفعل الهواء، الخطوة التالية كانت سريعة حيث يضع أطباق السلطات والمقبلات فوق المائدة، طبق من الخوص يحتوي على عدد من الأرغفة المصنوعة خصيصى في فرن بلدي على أطراف المكان، يغادر الفتى ليحمل المتبقي من الطعام وهو الطبق الرئيسي في الوجبة، هنا تومئ كرمة لأبيها كي يستكمل، يتناول رغيفًا من طبق الخبز، يجده ساخنًا طريًا، يقطع

Scanned by CamScanner

جزءًا صغيرًا ليغمسه في طبق الجبن القديم المهروس في الطحينة وقطع الطماطم، يلوكها لحظات ثم يستكمل حديثه:

- كان يهوى الجميلات و ..

تقاطعه كرمة بشدة وهي تزين وجهها بابتسامة تؤكد بها أنها نضجت بما يكفي لتبادل تفاصيل الحديث الذي يخص الكبار كما يطلقون عليه، تسأله:

- قد يبذل كل ما يملك في سبيل احتواء إحدى الجميلات .. ثم ماذا؟

يضحك والدها وهو يعب الهواء ملء صدره .. تنحشر بقايا قطعة الخبز في فمه فيسعل بشدة، تصب كرمة من زجاجة ماء معدنية في كأس من زجاج شفاف نضحت على جداره قطرات خفيفة بسبب برودة الماء، يتناول والدها الكأس ويبتلع دفعات الماء على فترات وهو يتحدث قائلًا:

- نعم .. عمك مصطفى كان يبذل كل ما يمتلك في سبيل احتواء الجميلات .. لقد كان يدخر كل ما يصله من مال ليدفعه لإحدى المومسات لقضاء ليلة من الليالي الحمراء.

يتجاهل حمرة الخجل التي علت وجه كرمة رغم محاولتها التصرف بعقلية الكبار أو المتزوجات .. تهز رأسها وكأن هناك ناموسة أو ذبابة تهشها ثم تومئ بأنها تتابع في اهتمام، يقول والدها:

Scanned by CamScanner

- رغم ما كان يُشاع عني من أني فتى لعوب وأتبع الفتيات فإنني كنتُ أمقت تطور العلاقة حتى ارتكاب الفعل المحرم، لذا كنتُ باستمرار أرفض دعوته لي بمصاحبته في هذا الطريق، رفضي لذلك جعله يبتعد عني .. مَن ينطلق في طريق خطأ يود لو يرافقه الجميع، بذلك يقل شعوره بالذنب ما دام آخرون يفعلون، حتى أتى اليوم الموعود، حينها شاهد جميلته .. إلهام .. فتاة عشرينية .. زهرة يتزين بها الربيع .. جسد قُد من نور ملائكي.

يصمت سعيد وهو يتأمل ابنته لحظات قبل أن تغمر وجهه ابتسامة عريضة، يُكمل:

- مثلك يا كرمتي.

تبتسم كرمة في خجل تواريه بضحكة خفيفة، تعلق متساءلة:

- مثلي أنا؟!

- نعم .. مثلكِ يا كرمتي .. كانت .. وقتها .. أصغر بقليل منكِ الآن .. أخذني أخي مصطفى كي أشاهدها .. في البداية كنت أظنُّ أنه يأخذني إلى فتاة من عاهراته فامتنعت، إلا أنه أقسم عليَّ بمرافقته وأنني سوف أجد مفاجأة سارة في انتظاري .. على مضض ذهبت معه .. من بعيد أشار نحوها .. شاهدتُها .. فوقفتُ في حالة ذهول.

Scanned by CamScanner

يصمت سعيد حينما يشاهد العامل يقترب حاملًا الطبق الرئيسي، صينية فوقها هرم من أرز البسمتي المنثور عليه المكسرات، فوق كل هذا قطع لحم التيس المندي وقد غلب اللون الأصفر والأحمر القاني على الطبق، تتصاعد منه روائح شهية مع هذا البخار المتصاعد دلالة على درجة حرارته المرتفعة.

لا يستطيع سعيد تلبية طلب ابنته في الاستمرار في سرد التفاصيل أمام هذا الطعام الشهي، يبدأ في تناول طعامه بشوق وتلذُّذ، سمة المقبل على الحياة، يشير إلى كرمة كي تتناول الطعام، لن تستطيع إقناعه بالحديث قبل الطعام، تطلب منه أن يستمر وهما يأكلان، يوافقها وهو يبلع قطعة اللحم التي انتهى من مضغها:

- تمام .. أكمل لكِ .. حينما شاهدتُ «إلهام» نظرتُ نحوها فترة حتى غادرتِ المكان، لم تكن تعلم بطبيعة الحال أننا نتابعها بأعيننا .. توجهتُ كلية إلى مصطفى وقد علتني دهشة .. من روعة اختياره .. وكيف له بتلك الفاتنة؟! قسمًا .. لم أكن حاقدًا عليه .. إنما هو دون ذلك المستوى .. أعلم حقيقته .. وقد حاولتُ مرارًا أن أُبعده لكنه يأبى .. حديثي يا ابنتي لا يعني أنه كان شيطان وأنني ملاك .. لا .. كان هو كما ذكرتُ .. وكانت لي سوءاتي بطبيعة الحال .. لكنها لم تكن بنفس درجة التدني التي وصل إليها مصطفى ..

Scanned by CamScanner

كنا في بداية الشباب .. لنا أب مشغول عنا كلية في عالمه الخاص داخل غرفة خاصة بالمنزل .. لنا أم صامتة تتأمل فقط .. صمت الجهل لا صمت العالم بالأمور .. أم تابعة لرجل مات ميتة غامضة.

حينما يبدأ في تفاصيل وفاة والده الجندي شرموخ، تقاطعه كرمة:

- دَعْ وفاة جدي في تسلسل الأحداث الطبيعي، أكمل لي تفاصيل حكاية عمي مصطفى وما حدث بينه وبين تلك الفتاة الجميلة؟

يبتسم لها و هو يرفع طبق الشوربة إلى فمه، بعد لحظات يحتسي فيها دفقات .. يتلذذ .. يقول:

- عُدنا إلى المنزل، يتحدث مصطفى إلى أمنا برغبته في الزواج بتلك الفتاة الجميلة، إلهام، يصفها أكثر فتسعد بها، وإن كانت أي فتاة أخرى كانت سوف تسعد بها، الأمر لم يكن يتوقف على جمال الفتاة بل يرتبط برغبة مصطفى في الزواج والاستقرار، وهو أمر كان مستبعدًا تمامًا، في مساء نفس اليوم تتوجه أمي بصحبة أبي وخلفهما مصطفى إلى منزل أسرة إلهام.... لكن ما حدث يا كرمة كان غريبًا .. فقد رفضت أسرة إلهام طلب الزواج .. وانتشر في القرية بسرعة مريبة أن الرفض تم لأن هذا الشاب، عمك مصطفى، سيئ السمعة .. سلوكه شائن وهو أمر معروف.

يشعر سعيد بأن كرمة تتابع ولا تأكل فيحمل قطعة لحم ضخمة يُلقيها أمامها ثم يقرب نحوها طبق الشوربة الذي يحوي قليل من لسان العصفور مع قطع اللحم المسلوق، يثير فضولها قائلًا:

- لن أكمل حديثي إن لم تشربي هذا الطبق كاملًا .. إنه رائع جدًّا يا حبيبتي .. هيا حتى أستكمل باقي التفاصيل، وعلى فكرة هي الأكثر أهمية وإثارة.

Scanned by CamScanner

(٢٠)

«إلهام»

تتأمله طويلًا .. جمال .. سبب سعادتها .. تشعر أمامه بضعف شديد، هو سبب بقائها حتى اليوم إن كان هناك سبب للبقاء، هو ما جعلها تتحمل مرارة الأيام الماضية منذ أن أفاقت فوجدت نفسها في بيت قديم تمتلكه عائلة تُدعى عائلة الجندي، ومتزوجة بالابن الأكبر لهذه العائلة ويُدعى مصطفى الجندي.

تهذي بكلمات في هذا الإطار بينما أصابعها تتخلل شعر جمال الذي يُلقي رأسه على صدرها، يشعر براحة عظيمة عندما تحتويه، الاحتواء شعور وليس مجرد وضع جسدي، موجات عاطفية تخرج من جسدها، بالتحديد من مركز الأمومة والعاطفة، من قلبها، تغزو هذه الموجات جسد جمال لتحتويه فيشعر براحة عظيمة.

Scanned by CamScanner

لكنه فجأة يعتدل عندما يمعن النظر في تلك الكلمات الأخيرة التي نطقت بها أمه .. «أفاقت فوجدت نفسها في بيت قديم» يتأملها مليًّا، يسألها بهدوء:

- ماذا تعني كلمة أفاقت يا إلهام؟

هنا تسري رعشة خفيفة في جسد إلهام وكأنها تفيق من شرودها .. ماذا قالت؟ وكيف قالت؟! تتساءل .. يجيبها بما تحدثت به منذ لحظات، تهز رأسها في رفض لكنه يصرُّ على أنها ذكرت هذه الكلمات ولا بد من توضيح تلك المعاني الغامضة.

يبدو أن لا مهرب أمام رغبته، تعلم أنه في حيرة منذ أن تبدلت حياتهم في الأيام الأخيرة .. تعلم أن سنوات عشر قد مرت وتتوقع موجة جديدة من اللعنة العشرية .. لقد آن أوانها .. وآن أوان كشف الغطاء عما كانت ترفض حتى الإفصاح عنه لنفسها.

منذ ما يقرب من أربعة وعشرين عامًا .. كانت إلهام .. تلك الفتاة الجميلة المتألقة .. تخرج مع زميلاتها من فتيات الثانوية العامة، جسد رقيق معجون من أحلام الطيور زاهية الألوان وعبق الزهور رائعة الحسن .. لا تعلم غير اللون الأبيض، اللون الأسود والألوان القاتمة لا وجود لها في قاموس حياتها.

Scanned by CamScanner

تتذكر إلهام بقلب مفطور صورته حينما كان ينتظرها على الجانب الأيمن من بوابة الخروج، علمت أنه «سامح عبدالفتاح» طالب جامعي، نظراته تحمل ألف كلمة، كانت تتعجل لحظة الخروج من المدرسة حتى تراه، مع الأيام تعلَّق به قلبها، حينما يمر شهر كامل يتجرأ سامح، يقترب منها في منتصف الطريق وأمام دهشتها وقبل أن تفطن زميلاتها لوجوده، يهمس بالقرب منها بكلمة هي مفتاح القلوب مهما تكن مستعصية .. «أحبك» .. سقطت منها حقيبتها التي كانت تحملها على صدرها .. يترك «سامح» المكان ويرحل، تشعر به كتلة مشاعر ملتهبة تبتعد في رفق، تضحك الرفيقات وقد أدركن بعض تفاصيل الصورة.

تمرُّ الأيام ويتزايد القُرب حتى تتلاقى الأيدي وتتعانق الأصابع، وخلسة تتلاقى الشفاه لتنقل ما يعتمل بداخل الأرواح وتعجز الكلمات عن التعبير عنه.

تتهامس الفتيات بقصة الحب بين سامح وإلهام .. تصمت إلهام ويكسو وجهها اللون الأحمر تعبيرًا عن الخجل واشتعال الروح بآهات العشق المحموم .. عشق الشباب الأول الذي ينمو مع الجسد في انتظار لحظة الميلاد الأولى، وُلِدَ العشق منذ أن وُلد سامح من رحم الطبيعة لينمو أمام بوابة مدرستها.

Scanned by CamScanner

أيام لا تعلم ما هي أو كيف هي .. فقط تشعر بالروعة .. تشعر بأنها ما خُلِقَتْ إلا لتعيش تلك اللحظات، جسدها أصبح مثل فراشة تحوم كي تُقبل الزهر بشفتين عذريتين كحبتي عنب قرمزي، كل الكائنات من حولها لها رائحة رائعة تميزها، حتى الهواء والطعام أصبح لهما رائحة وطعم غير ما كانت تعرفه.

وبينما كانت منتشية .. تعشق الحياة .. تشكر خالق الكون أن كشف لها جزءًا من الحجاب عن ذلك الجمال الكوني والروعة اللانهائية .. إلا وتجد شابًا يُدعى مصطفى الجندي يتبعها .. تلفظه لفظ النواة، تتمنى لو تنشق الأرض من تحته ليختفي عن الوجود إلى الأبد.

أسبوع يمرُّ ومعه تشعر بسعادة لا توصف مع سامح .. وغضب لا نهاية له حال مراقبة مصطفى لها .. في نهاية الأسبوع يدق باب منزلهم سيدة عجوز .. تتحدث بصوت جعلته مرتفعًا ومن فرط ما حاولت جعله سعيدًا فقد بدا صارخًا مزعجًا، بجوارها يجلس رجل غريب الأطوار وفي ذيلهما هذا المدعو مصطفى .. لماذا يقرعون بابنا .. سألتُ أمي .. لم تشعر بسعادة مثل أي أم يتقدم لخطبة ابنتها خطيب حتى وإن تم رفضه.

والد إلهام يعلم جيدًا أن عائلة الجندي ليست هي العائلة المناسبة لابنته على الاطلاق، لا من الناحية المادية، إنما لأنه لا بد من وجود تآلف بين العائلات

Scanned by CamScanner

.. هذا التآلف مفقود تمامًا، فما يُشاع عنهم في نزلة شرموخ لا يحتمله عقل، رغم إدراكه رفض ابنته إلا أنه يسألها .. ترفض بقوة.

يترك الجندي وأسرته المنزل منكسي الرؤوس، بداخل كل منهم ألف قرار .. الأم تقرر ألا تذهب بابنها وزوجها إلى فتاة أخرى إلا بعد أن تتأكد من موافقتهم الكاملة. مصطفى يزداد قوة وتمسكًا بإلهام، كيف ترفضه تلك الفتاة التي تعلق بها قلبُه؟!

الأب .. الجندي .. يبتسم في هدوء .. ابتسام الواثق .. يعلم جيدًا أنه يستطيع أن يحقق حلم ابنه بالزواج بهذه الفتاة، لم يشعر بالضيق لحظة واحدة حين تم رفضهم، لقد أغلقوا أمامه الأبواب كافة إلا بابًا واحدًا .. بابًا لا يستطيع أحد اجتيازه إلا هو .. إنه السحر الأسود.

يصل الرَّكْبُ إلى المنزل، ينهار مصطفى فوق أقرب مقعد من الباب، تُلقي الأم جسدها بجواره على أرض الصالة، يخرج سعيد من حجرته إثر حركتهم ليتابع ما يحدث في صمت، يدلف الجندي إلى الصالة ولم تفارقه ابتسامته العريضة، ينظر إليهما باستياء، يجذب مصطفى قبالته بعنف لا يتناسب مع ابتسامته وسني عمره، يركل زوجته بقدمه كي تفرد وجهها، يوجه كلامه إليهم جميعًا:

Scanned by CamScanner

- لم يُخلق بعد مَن يرفض للجندي وأولاده أمرًا .. إن كنتُ أصبرُ على نزلة شرموخ فذلك لأنهم أقل من أن أهتمَّ بهم .. أما الآن .. و بعد أن تجرأ هذا البرص ورفض .. سوف يعمُّ العقاب أهل نزلة شرموخ قاطبة.

خرجت منه الكلمات بقوة، مع الجملة الأخيرة قذف مصطفى ليلقيه في مكانه مرة أخرى، حركة مباغتة أخبرته بأن لا مجال للضعف أو الانكسار ..

منذ هذه اللحظة وتعلَّقت آمال مصطفى بأبيه، يلجأ إليه ويُلقي مقود حياته بين يديه، وكم كانت مصيبته حينما تُوفي والده! ضياع ما بعده ضياع، وفي أحلك أوقاته لجأ إلى روح أبيه الكامنة في حجرته الخاصة.

لا تشعر إلهام بتلك الدموع التي تسيل على وجنتيها وهي تغوص في بحر الذكريات الهائج أمام ابنها جمال الذي ينصت متأملًا وكأنه يشاهد فيلمًا خياليًا على شاشة عرض بحجم الذاكرة.

تُكمل إلهام ..

- لم أكن أعلم من تلك الأمور شيئًا بالطبع، لكن مصطفى أخبرني .. يوم أفقت وتساءلتُ: أين أنا؟! أخبرني بأن أباه، الجندي .. ذلك الرجل الذي لا يتحدث إلا بالقليل، الرجل الذي يدخل غرفته ويغلقها خلفه بسبعة أقفال

Scanned by CamScanner

ليقضي فيها معظم ليله وجزءًا كبيرًا من نهاره، هذا الرجل ينتفض ويحول نهار نزلة شرموخ إلى ليل حالك السواد، يُشعل النيران في حقول قمحها .. يُهيِّج بهائمها حتى تتحول إلى وحوش قاتلة تفتك بأصحابها قبل جيرانهم، يُخرج الغولة وأبناءها من بئر الساقية المهجورة لتتجول بين البيوت فيموت سكانها رعبًا. عاشت نزلة شرموخ حظر تجوال يبدأ مع غروب الشمس ويستمر معظم ساعات النهار، لا يخرج إلا المضطر، أغنياء القرية هجروها بعدما فشل رجالهم في التصدي لحرق حقولهم وتدمير منازلهم باشتعال النيران فيها، حتى علاقاتهم بزوجاتهم أصابها الخبل، قوة وحميمية لحظة اللقاء تخمد، يتحول الصلب إلى شيء هلامي، هجروها إلى وقت غير معلوم.

تَذْكُرُ «إلهام» الجزئية التالية وقد علا نحيبها حتى ضاق تنفسها، يحاول «جمال» تهدئتها باحتوائها على صدره لكنها ترفض وتستمر في سرد التفاصيل، مرجل يغلي بعنف ليطرد ما بداخله، تودُّ لو تلفظ كل شيءٍ فتشعر براحة تفتقدها منذ عقود.

فجأة .. ولم يكن أحد يعلم وقتها ماذا حدث، تتحول « إلهام » فتاة الثانوية العامة، عاشقة «سامح» .. إلى فتاة شرسة، تواجه والديها وأهالي القرية، تطلب، في وقاحة بعين صلبة وأصابع تتحرك في الهواء بحركات عنكبوتية، الزواج بمصطفى الجندي، تواجه «سامح» في اليوم التالي وترميه بأبشع

الألفاظ وأوقحها، زميلات الدراسة يبتعدن عنها في رعب، لقد تغيرت «إلهام» .. أضحت بقوة شقيٍّ يتزعم عصابة بعدما أمضى نصف عمره في السجون، لم تعد تُرسل عيناها رحيقَ العشق بل تُرسل ألسنة لهبٍ.

يخرج الجندي من حجرته، يستدعي زوجته، الجالسة تتسلى بتفحص المارة عبر كوة صغيرة، يخبرها بنفسٍ هادئة وابتسامة تملأ وجهه، بحركة استعراضية وهو يتوسط الصالة ينظر نحو باب حجرة أولاده فيُفتح الباب فجأة وبدون أن يمسسه بشرٌ، مصطفى وسعيد، يجلسان فوق السرير يتبادلان الحديث، ينظران وعلى وجهيهما الدهشة وتساؤل عن كيفية فتح الباب، يستدعيهما أبوهما بنظرة حادة، يقف الشابان إلى جوار أمهما، عن اليمين واليسار .. يواجههم الأب مثل جبار يُلقي تعاليمه، يخبرهم بكلمات لا تقبل مناقشة:

- تذهبون إلى المدعوة «إلهام» لإنهاء تفاصيل الزواج بمصطفى.

يتأملونه لحظات وعلى ملامحهم تفور الدهشة حتى تبلغ الحواف، ماذا حدث حتى يطلب منهم ذلك؟! قبل أن ينبس أحدهم يُكمل الجندي:

- هي .. وأسرتها في انتظاركم.

يتركهم ويدخل غرفته، يغلق بابها خلفه بهدوء، ترتسم علامات السعادة فوق وجه مصطفى فينحني ليُقبّل أمه من فرط سعادته، الأم صامتة لا تجد ما

Scanned by CamScanner

تُعبِّر به عما يعتمل بداخلها، تدرك - بدون أدنى شكٍّ - أن زوجها قادر على تحقيق ذلك، ليس بجديد عليه أن يفعل مثل ذلك وهو في حجرته قابع.

سعيد الذي يقف مشدوهًا، ألجمت المفاجأة لسانه، ماذا يقول والده ومن أين أتته تلك الثقة؟ وإن كان ذلك حقيقيًا، فذاك أدعى للدهشة .. كيف حدث هذا التغير الغريب في موقف «إلهام» وأسرتها، لقد وجد في رفضهم إبقاء على عدد من القيم والأخلاق، ليس حقدًا دفينًا ناحية أخيه، بل انتصارًا للقيم .. الآن تغيرت الأمور وينتصر مصطفى .. شقيقه .. رفيق العاهرات .. تشتعل اللمبة الخضراء كي تفتح له طريق المرور للوصول إلى هذه الزهرة كي يقتطفها .. كي تكون ملكه؟!

ينهار سعيد و لا يستطيع الهروب من كآبةٍ تحتويه، يظَلُّ فريستها سنوات .. يبذل كل ما يستطيع خلال السنوات التالية لكنه يفشل .. لأن الأمر عظيم .. ولأن مصطفى مثل أسدٍ يقبع أمام عرينٍ يضمُّ لبؤته.

يُقام حفل زفاف تتحدث عنه نزلة شرموخ لأسابيع تالية، يضم مصطفى «إلهام» الشاردة بلا قلب .. بلا عقل، لا قلب يحتويها في ذلك المكان الموبوء إلا قلبًا وحيدًا يشعر بموجات ألمها .. هو سعيد الجندي الذي لا يمتلك أي قدرة غير الملاحظة عن بُعد، خاصة بعدما يتعمد مصطفى أن يواريها عن الأنظار كافة حتى عن أنظاره هو بعد فترة.

Scanned by CamScanner

(٢١)

«زين»

على غير عادة من حسين شعلان والد شيماء، يفاجأ به زين يستدعيه على وجه السرعة، زين كان قد بدأ يقلل من زيارات خطيبته، لما آلت إليه مؤخرًا، و أيضًا لما شُغِلَ به في الأيام الأخيرة.

حسين شعلان يبدأ في التحرك الفعلي كي يحقق مبتغاه، تتوتر وهيبة زوجته وهي تشاهد تلك التغيرات التي تحدث لابنتها مؤخرًا، لكنه باستمرار يطمئنها بابتسامته العريضة وأحلامهم التي باتت قريبة، تتذكر كلمات مسيحة الأعرج بأنه يستطيع إعادة ابنتها إليها وقتما تشاء فتطمئن أكثر.

شيماء تحولت إلى فتاة شرسة، حادة الطباع، متنمرة النظرات، شرهة للطعام، تتقرب من زين بشكل مبالغ فيه لدرجة أنها تُعانقه وتُبادِلة قُبلات حارة في

Scanned by CamScanner

مدخل المنزل بعيدًا عن أعين والديها، أحيانًا آخرى تنفر منه ولولا تدخُّل أمها لقذفته بأقرب شيء إلى يدها، نظراتها حانية مرة ومرات دامية، في كل الأحوال تتملك الدهشة زين حتى تتحول إلى أخطبوط يحتوي كل تفاصيله، لم يعد قادرًا على التفكير بشكل معتدل، يتمنى لو تحتويه شيماء باستمرار، أضحى أضعف من فراشة حال تلاقي الشفاه، يذوب لدرجة الانصهار.

فجأة تنقلب شيماء إلى جمرة ملتهبة فينتظر متألمًا عودتها إلى الصفاء كي يستقي من رحيقها، ذاك الرحيق الذي ما عرفه إلا منها .. فأضحى أسيرها .. طعم القبلة الأولى في حياته، لصيق روحه، كان من شفتيها المضمومتين مثل حبتي كرز.. آه .. يتأوَّه زين بشدة .. لولا ما يحدث لها مؤخرًا لصفت له الحياة وعاشا معًا الحب بكل تفاصيله .. سوف يُعجِّل بالزواج كي تستقر روحه .. وإلى ذلك الحين سوف يتقرب منها أكثر .. يتنزهان معًا .. لا بد أن هناك شيئًا ما يحدث .. عليه معرفته .. وعليه إنقاذها مما تمر به .. مهما يكن.

لم يحكِ زين لـ جمال غير ما يشاهده على شيماء من تغيرات أسماها تغيرات شيطانية، أما دقائق الود والعناق فهي خاصة بهما ولا يجب أن يبوح بها.

انشغال زين بالسفر من نزلة شرموخ إلى مدينة السادس من أكتوبر .. عقله المشغول فيما يشاهده في نومه كالحقيقة تمامًا شغله عن شيماء بعض الوقت ..

لكنه لم يفقد إحساس النشوة الذي يسري في جسده كلما تذكر لحظات تلاقي الأيدي وعِناق الشفاه.

الآن يُرسل والدها في طلبه، ترى ماذا يريد؟

مائدة عامرة بطعام شهي، أطباق خزفية مزينة برسوم حمراء مملوءة بالمرق موزعة بانتظام، قدور من الفخار معمرة بالأرز المغطى بطبقة ذهبية من السمن والقشدة، صينية تتوسط المائدة بها من البط المحمر والحمام المحشو الكثير وقد نُثِر عليها فتات البقدونس الأخضر مع ذرات الفلفل الأسود الناعم الذي تنتشر رائحته النفاذة في المكان.

الستائر مسدلة والإضاءة تنبعث من أماكن مختلفة .. يتأمل زين المكان وقد غطت الدهشة ملامحه، لا يترك له حسين شعلان الفرصة كي يُعمل تفكيره، يشير إليه بالجلوس في صدر المائدة قبل أن يقول:

- اسمعني جيدًا يا زين .. الأمر خطير .. لقد علمنا أن ما يحدث لابنتي شيماءمؤخرًا .. ما هو إلا مَسٌّ جانٌّ.

لا يهتم بتلك الشهقة التي صدرت عن زين ويكمل:

- وعلمنا أيضًا مَن المتسبب في ذلك.

Scanned by CamScanner

يرتبك زين خوفًا من أن تتوجه نحوه أصابع الاتهام .. هو لم يفعل شيئًا لكن تزعزع ثقته بنفسه جعله يتوقع أن يتهمه والد شيماء، يبتسم الرجل وهو يدرك بعض مما يدور في تفكير زين وارتسم على ملامحه بعض منه، يقول وهو يُمسك بسكين صغير ويشير به في الهواء بشكل عفوي:

- لكننا لن نستطيع مواجهته هكذا .. المواجهة تكون بنفس السلاح .. وهذا السلاح .. عندك أنت.

كان يتحدث بهدوء وعيناه مثبتتان على وجه زين كي يزيد من وقع كلماته، يرتبك داخل زين أكثر وتتصاعد الدماء إلى وجهه، يمتصُّ لعابه فيجد حلقه جافًا رغم أن المائدة العامرة يسيل لها اللعاب، يقطع الرجل عليه تفكيره و يقول:

- لا تبتئس يا ولدي .. الآن طعام .. وبعد قليل نبدأ طريق الخلاص، وهو سهلٌ بعدما علمنا السبب.

ينادي حسين شعلان زوجته وهيبة وابنته شيماء، آن وقت الاجتماع لتناول الطعام، لا يعلم زين أن كل ما يحدث هو مُعدٌّ سلفًا، كلمات حسين شعلان كلمات منتقاة متفق عليها، انتظار الأم والابنة بالخارج حتى يستدعيهما الرجل .. دخول شيماء وقد تزينت كعروس .. جلوسها إلى جواره .. الطعام الذي تحمله إليه .. العصائر .. كل شيء مُدبَّر.

Scanned by CamScanner

تمرُّ الدقائق على زين بين قلق وسعادة، غير ما تقدمه شيماء من رعاية ودلال غير عابئة بوجود والديها، كانت تركن فخذها اليسرى إلى فخذ زين اليمنى فتنطلق في جسده شحنات طاقة غير عادية.

يستطيع حسين شعلان وزوجته إضفاء حالة من البهجة على مائدة الطعام كي تكتمل تفاصيل الطقس .. طقس بداية النهاية.

ينتهون من تناول الطعام والعصائر .. يُمسك حسين بيد زين وشيماء ويتحرك بهما نحو غرفة الصالون بينما تنهمك زوجته وهيبة في إخلاء المائدة وكأنها بعيدة عما يحدث، حقيقة الأمر أن ما يحدث حتى وهي بعيدة كانت قد اتفقت عليه مسبقًا مع زوجها.

الآن سوف يجلس حسين وعن يمينه شيماء وعن يساره زين .. سوف يتحدث عن أن مسَّ الجانِّ الذي وقعت ابنته فريسة له هو فعل شيطاني قام به أحد شاب القرية، لن يستطيع ذكر اسمه كي لا تحدث فتنة في نزلة شرموخ، تعلق قلبه بشيماء وما فعل فعلته إلا بعدما خطبها زين واقترب موعد الزواج.

سوف ينفعل زين ويطلب معرفة اسم هذا الشاب كي يجبره على ... وسوف يقاطعه حسين بأنه أخبره قبل تناول الطعام أن الحل يكون بنفس

Scanned by CamScanner

السلاح المستخدم .. السحر الأسود لا يُعالج إلا بالسحر الأسود .. ولا يوجد مَن يمتلك أدواته قدر امتلاك الجد الجندي الراحل.

تتزايد دهشة زين ويتأمل وجه الرجل بعلامات دالة على خواء فكري، يعجز عن تفسير الأمر .. ما لجده الراحل منذ عقود وما يحدث اليوم؟ وما لجده والسحر الأسود من الأصل؟!

يبتسم حسين وهو يؤكد أن الجندي الراحل له في منزله القديم حجرة خاصة لم يدخلها أحد غيره، حتى بعد وفاته .. هُجر المنزل بأكمله وتشتت العائلة وما تزال الغرفة مغلقة.

بعد برهة صمت ينتفض فيها قلب زين ولا تستطيع ابتسامة شيماء المشجعة أن ترشده، يُكمل الرجل حديثه بأنه يريد كل محتويات هذه الغرفة ولن يأتيه بها إلا زين.

بعد ساعة وقد غابت الشمس وعمَّ الظلام نزلة شرموخ، تقل الحركة ويعلو نباح الكلاب، يتحرك زين شاردًا .. يفكر في الخطوة القادمة. يتذكر إصراره على معرفة اسم الشاب المتسبب في كل ما يحدث لشيماء، لكن الرجل شرح له ببساطة أن هذا الشاب لا يجب أن يعرف أي شيء عن تحركاتهم وإلا زاد عناده وبطشه، ثم إنه لا يريد أن يحدث لهذا الشاب أي مكروه .. نجاة

Scanned by CamScanner

ابنته معلقة بهذا الشاب، في النهاية يَعِدُه بأنه بعد شفاء شيماء بشكل تام سوف يعلم مَن هو لأنه، أي حسين شعلان، سوف ينتقم منه على الملأ.

يدخل زين من الباب ويغلقه بهدوء، لم يلحظ والدته إلا بعد أن تحدثت .. تسأله عن شروده .. يقترب منها في صمت وهو في الحقيقة لا يعلم لماذا يقترب .. ولكنه لم يلحظ أن عينيه قد تحولتا إلى عينين دمويتين بشكل مخيف.

(٢٢)

«كَرمة»

– ثم ماذا؟

بهذا تساءلت كرمة وهي تنتهي من تناول طعامها البدوي، بإشارة سريعة تستدعي أحد العمال كي يأتي لها بالشاي .. في لمح البصر يعود العامل حاملًا صينية عليها برادان وأكواب صغيرة، براد شاي أسود وآخر أخضر، وكلاهما شاي زردة.

تبدأ في صبِّ الشاي الزردة الأسود في ذلك الكوب الصغير الذي ترفعه إلى فمها مرتين أو ثلاثًا على الأكثر حتى ينتهي، فتعاود الصبَّ من البراد الآخر الذي يحتوي الشاي الأخضر المطعم بالنعناع، تنبعث رائحة الشاي لتختلط بروائح الطعام وهواء البحر الذي يعم المكان.

Scanned by CamScanner

تستمتع كرمة بالشاي وتتذكر أنه في بعض بلدان العالم يطلقون عليه: شاهي. بينما يستمر والدها في ملء بطنه بهذا الطعام الشهي، من بين مضغ وبلع يتحدث بكلمات يشرح فيها ما بداخله، للمرة الأولى يخبر ابنته بكلمات قليلة معبرة عن حاله القَلِق المضطرب، فزعه اللانهائي من أن تصيبه اللعنة و كون ضحيتها التالية، يهرب إلى اللهو والإسراف خاصة بعد أن تجاهلته أُمُّها مُعلِّلة تجاهلها برعايتها لطفلتيها، لم يستطع أن يقول زوجته، فهي أمٌّ أكثر منها زوجة، يتقرب من سيدات أو فتيات .. لكنه في نهاية الأمر يلهو في حدود، وإن تعددت علاقاته فهي .. يصمت ويطلب منها وعدًا بحفظ السِّرّ ..

تتأمله كرمة وهي تتوقع أمرًا عظيمًا، لكنها لا تجد غير أن تعده .. يمسح فمه بمناديل ورقية .. يشير ناحية الشاي فتصبُّ له كرمة ويتزايد القلق بداخله، وكأنه يُلقي الشاي المغلي في جوفه ليشعل داخله، يضع يده على فمه وهو يتجشأ، يقول:

- تظُنُّ أنني أمارسُ علاقات محرمة .. لكن الحقيقة يا ابنتي أنني تزوجتُ.

يُلقي الكلمة الأخيرة في هدوء وتوتر .. يصمت لحظة يتأمل فيها ملامح ابنته، يلملم من على وجهها حصاد الألم المنتظر، لكنه يُفاجأ بشبح ابتسامة

Scanned by CamScanner

يعتلي تفاصيل وجه كرمة، نعم .. لقد ارتاحت كرمة حينما اعترف والدها بما يظنُّه سرًّا لا يعلمه غيره، مجرد اعترافه أسعدها .. تبتسم .. قبل أن تبحث عن كلمة تُعلِّق بها على حديث والدها، يُكمل كأنه لم يتوقف إلا قَدْرَ شهيقٍ، يقول:

– مرتين ..

هنا تشهق كرمة .. تشهق تعجبًا وليس غضبًا .. كيف ذلك ولا يعلمن؟! تساءلت بذلك حتى تجعله يستمر في اعترافه، وهي أيضا تعلم أمر زيجة واحدة ولا تعلم عن الثانية شيئًا، أجابها الأب بأن هناك ظروفًا وتفاصيل معقدة لا وقت لسردها الآن.

حقيقة الأمر أنه لم ولن يخبرها بتلك التفاصيل، لقد قدَّم أكثر من قربان كي يحصل على مراده من علاقاته النسائية وإن كان قد تزوج مرتين فإن هذا ما استطاع أن يصل إليه في النهاية، لكن هناك أحداثًا عظيمة قد مَرَّ بها مع فتيات ليل وبائعات أجساد .. نعم لم يصل معهن إلى لحظة السقوط الكبرى، لكنهن امتصصن ماله مثل أسفنجة جافة وُضعت على قطرات ماء، ظَنَّ كثيرًا أنه يعلم خفايا النساء، لكنه خُدع أكثر من مرة، والحصيلة فَقْدُ مبالغ ليست بالقليلة، لم يشعر بالحزن على هذه المبالغ المفقودة قَدْرَ حزنه على سذاجتهن،

Scanned by CamScanner

لذلك يُلقي اللوم على نفسه دومًا، هن الخاسرات على الدوام، يخسرنه إن ابتعدن عنه و هو صاحب قلب كبير، باحث عن راحة لجسده المتقد عبر علاقات خُلِقت كي تكون المنفذ الطبيعي .. إنما هن يبحثن عن أموال .. فليذهبوا مع ما حصلوا عليه غير مأسوف عليهن.

عبر تلك العلاقات المتعددة ينجح في الزواج مرتين .. استمرت الأولى ثلاثة أشهر .. لفظته بعدها فتاته .. كانت في السادسة والعشرين من عمرها .. تحلم بحياة الثراء .. لكنها لم تجد لديه غير القليل الذي يكفي حياة هادئة. كعادته يبرر سعيد لنفسه أنه ما خسر شيئًا، إن احتسب مرات اللقاء الجسدي مع تلك الفتاة ودفع في كل مرة مقابلًا ماديًا يكون الناتج معادلًا لما سلبته منه من أموال عبر تلك الشهور الماضية.

أما زواجه للمرة الثانية أو الثالثة إن احتسبنا زيجته الأصلية المستمرة، نجد أنه درس الأمر بعناية هذه المرة واختار أرملة أربعينية لديها طفلان وفي حاجة إلى الاستقرار المادي، كانت جميلة، وعيناها تدعوان لممارسة الجنس، سوف تكون هذه ملاذه الدائم، لكنه فوجئ بعد أيام قليلة من الزواج بفتور غريب .. ثم تكثر أسباب التدلُّل، ومن بعدها الامتناع الصريح عن ممارسة الجنس .. حاول لمدة عام أن تستمر العلاقة لكن على النحو الذي

Scanned by CamScanner

يرضيه، وحاولت هي لمدة عام أن تجعل العلاقة مستمرة على النحو الذي يضمن لها ظِلَّ رجلٍ ومبلغًا شهريًا يساعدها على نفقتها وطفليها، اتفقت رغبة الاستمرار واختلفت أسبابها، يمر العام حتى يقرر الانفصال، توافقه الزوجة أم الأطفال بعد أن كانت قد حصلت منه على مصروفات عام وقطع ذهبية وشقة صغيرة من شقق إسكان المحافظة كان قد اشتراها لها كي يقابلها على انفراد ليمارسا الجنس فيها كما كان يحلم.

لم ولن يخبر كرمة بهذا .. كرمة التي تتأمله متعجبة ولم تجد ما تقوله إلا تعقيبًا يُعبِّر عن دهشتها:

– مرتين؟!

يمط شفتيه ويخفض عينيه لحظة قبل أن يمد يده ليصبَّ الشاي مرة أخرى كي ينشغل عنها، الحقيقة أنه لو لم يكن يرغب في تغيير مجرى الحديث لطلبت منه كرمة أن يعيد الحديث إلى مجراه الأصلي، ما يحدث هذه الأيام للعائلة؟

يبتسم وهو يرتشف الشاي .. يتأمل أشعة الشمس الذهبية التي بدأت تتسلل إلى الخيمة مع هبوط الشمس نحو المغيب، يأتي العامل كي يرفع الأطباق وبقايا الطعام. يعمُّ الصمت لحظات لا يتخلله غير كلمات عن طلبات أخرى من العامل وشكر من سعيد الذي يستخرج ورقة نقدية

يعطيها العامل كنوعٍ من الشكر، يسعد العامل بذلك فتراه يمارس عمله وكأنه يرقص على عزف سيمفوني.

يضع سعيد الكوب من يده ويتمدد تمامًا شاعرًا بذلك الخدر الذي يسري في الجسد بعد وجبة شهية مثل تلك التي انتهى منها، و بعد شاي يتخلل الجسد ليزيد حالة الخدر، يستكمل حديثه بينما يشخص ببصره إلى سقف الخيمة، وكأنها لوحة يشاهد عليها تفاصيل ماضيه، يخبر ابنته بأن ما حدث مع إلهام، زوجة أخيه مصطفى، جعلها تتحول إلى ذلك الشيء الأسطوري الذي يجبرهم جميعًا على الالتفاف حوله.

يقول سعيد في هدوء:

- بعد وفاة أمي بهذا الشكل الغريب، لم يلحظ أحد اختفاء إلهام من موقع الحدث إلا بعد مرور ساعات، في اليوم التالي وقد عُدنا إلى أرض الواقع، أو تستطيعين القول بأننا أفقنا .. علمنا أن إلهام سقطت وتُلازِمُ الفراش وإلى جوارها جارتنا المسنة، طبيعي جدًّا ألا نولي الأمر عناية كبيرة .. فمع حالات الوفاة وخاصة حالات صعبة ومؤثرة كما حدث لنا، تحدث أمور عظيمة .. من ذلك ما تعرضت له إلهام وبدا جليًا خلال الأيام التالية، رغم تألمي الشديد مما تمر به إلهام، لأنني أعلم أنها مسيرة بقوى سحر أسود، لم أكن أمتلك غير أن أحبس ألمي بداخلي، وما كنت أستطيع قط التصدي لوالدي وأفعاله.

Scanned by CamScanner

كنا في بداية الشباب وننظر إلى الغد عبر عيون الآباء، ومات والدي ميتة غريبة، جعلتنا نفغر أفواهنا دهشة قبل أن نبحث بداخلنا عن تفاصيل الحزن، لقد مات غريقًا في حجرته كما تعلمين، مات حاملًا معه سره الأبدي .. كيف استطاع أن يسلب إلهام إرادتها ويجعلها توافق على الزواج بمصطفى، تعلمين يا كرمة ويعلم الجميع أن أعمال السحر الأسود هذه يستطيع فاعلها أن يُبطلها باستخدام تعاويذ معينة، وكما يقولون من أحضر العفريت عليه أن يقوم بصرفه، مات والدي ولم يُبطل تعويذة أسر إلهام، لم يصرف العفريت، وبقيت إلهام أسيرة.

تتألم كرمة وتشعر برغبة حقيقية في مقابلة إلهام وأن تحتويها كي تُعوّضها عما لاقته من ظلم .. ترنو برفق نحو والدها تسأله استكمال الحديث، فيقول:

– سنوات تمر تستطيع فيها والدة إلهام أن تقف إلى جوارها و تؤجل حملها عبر استخدامها وسائل منع الحمل السنوية خوفًا من أن تُمنع من زيارتها .. خلال ذلك كانت تبحث مع أسماء ذات صيت في مجال السحر الأسود كيفية خلاص إلهام مما تعيش فيه، لكنهم جميعًا، وبعد محاولات، يفشلون في تحقيق ذلك، يضاف إلى ذلك موقف مصطفى .. لقد كان يدرك جيدًا أن يوم خلاص إلهام من أسر تعويذتها يكون هو يوم تركها له، وهو لم يكن يريد

Scanned by CamScanner

ذلك .. لقد تعلق بها .. واعلمي أن تعلقه بها زاد مع الأيام .. لقد .. لقد كانت إلهام وهي أسيرة تعويذة شيطانية تمثل حالة نادرة .. فهي تأخذ أعين الناظرين إعجابًا وشفقة .. تستلب القلوب .. تُشعر كل مَن حولها بضعفهم .. هل تدركين تلك الحالة يا كرمة؟ كيف يكون داخلك حينما تشاهدين قطة جميلة بشعر ذهبي لامع وعينين خضراوين بلون أوراق الشجر، هذه القطة تغرق في بئر مدنَّسة بينما تنظر نحوك بهاتين العينين الحزينتين مستغيثة.. كيف يكون داخلك وأنتِ مقيدة بسلاسل لا تستطيعين إدراكها؟! إن كان ذلك يحدث مع قطة .. ما بالك إن حدث ذلك مع فتاة تمتلك جمال إلهام ورقتهت وعجزها .. نعم يا كرمة .. عجز المرأة يزيدها جمالًا .. وذاك الجمال يزيد مَن حولها حزنًا وعجزًا .. هي مسألة صعبة .. كان مصطفى يستسيغ الأمر الواقع .. يحتوي إلهام .. زهرته التي جُنَّ بها وحاول قدر ما يستطيع أن يُبعد عنها كل الأيادي .. بل وصل به الأمر أن حاول أن يمنع الأعين كافة من النظر نحوها.

يصمت سعيد بعض الوقت وقد ارتعش صوته وأظهر ما بداخله من شفقة مرت عليها سنوات ولم تتلاشَ، يستجمع قواه ليكمل حديثه وهو يعتدل ليواجه ابنته:

Scanned by CamScanner

– لم ينجح مصطفى كثيرًا في أن يُخفي إلهام عن الجميع، كانت هناك حالة غير طبيعية تنتاب إلهام تمزق قلوبنا جميعًا، بجسدها البض وبشرتها البيضاء مع هاتين العينين تتحول إلى كتلة تهتز بشدة، ترتعد مثل شخص سقط في بئر ثلج في أيام الشتاء، كانت تزوم مُصْدِرةً همهمات لا معنى لها، كنتُ أستجمع منها كلمة واحدة «إلحقوني»، ولا أعلم إن كان غيري يستمع إليها أم لا .. تطفو الدماء إلى بشرتها البيضاء لتتحول إلى بشرة حمراء كأنها فريسة يتم شواؤها على النار بعد سلخها، في بعض الأحيان تتزايد آلام نوبتها حتى يسيل من جانب فمها سائل أبيض كمن شرب مادة سامة.

حينما تستطيع إلهام أن تستجمع قوتها تصرخ بشدة تزلزل بها المكان حتى تهتز قطع الأثاث في غرفتها. يفشل الأطباء في الوصول إلى علاج ناجع معها، إلا أنهم يقدمون كثير من المهدئات التي تفلح معها في البدايات، لكنها مع تعوُّد الجسد إياها لم تعد تُجدي نفعًا، تم تغيير الأطباء فتم تغيير المهدئات إلى مسكنات ذات مفعول أكبر حتى إنني خشيتُ مع مرور الزمن أن تدمنها إلهام، وهذا ما حدث بالفعل .. أدمنتها طوال تلك الفترة التي عاشتها بيننا حتى انقطعت عنا أخبارها مع رحيلها عن نزلة شرموخ بصحبة عمك وطفلها جمال عن نزلة شرموخ و..

لم تسمع كرمة كلمة واحدة من أبيها بعدما نطق باسم جمال ابن عمها .. هذا الاسم ليس غريبًا على أذنها أو حتى على لسانها، تشعر أنها نطقت به أكثر من مرة من قبل، كأنها كانت في مكان ما تُنادي شابًا يُدعى جمال، الآن تعلم أن لها ابن عم يُدعى جمال.

لم تسمع والدها وهو يكمل بأن عقد الأسرة قد انفرط بعد وفاة أمه ورحيل مصطفى وزوجته، يمكث هو غير قليل في نزلة شرموخ حتى يتزوج ويرحل حاملًا معه ميراثه ليبدأ حياة جديدة في مكان بعيد عن أعين أهالي القرية الذين لا يملون النظر نحوهم على أنهم أبناء ساحر أسود، نظرات لم يكن أحدهم يجرؤ على أن ينظر بها نحوهم في حياة والدهم، والغريب أنها ظلت حبيسة أعينهم حتى بعد وفاة الأب سنوات عشر .. ظهرت جلية بعد وفاة الأم .. ولا يعلم لماذا ظلت حبيسة تلك الفترة؟ ولماذا تأجّل هجوم أهل القرية عليهم حتى ماتت الأم إن كانوا يخشون الرجل .. الجندي نفسه؟!

كرمة ما تزال تفكر في جمال ابن عمها .. أين سمعت اسمه من قبل .. سألت والدها مستفسرة: هل أخبرهم باسمه من قبل؟ ينفي الرجل مؤكدًا أنه تعمد خلال السنوات الماضية أن يُخفي عنهم تلك التفاصيل .. لكن ما حدث مؤخرًا من أمور رهيبة طالت أم كرمة بالأذى .. بل طالت كرمة وهايدي أنفسهما .. وأمام إصرار كرمة على معرفة التفاصيل .. كان عليه أن

Scanned by CamScanner

يُخرج ما بداخله .. الآن .. يشعر ببعض الراحة .. يؤجل ذلك الخوف من الغد .. يخفي حتى عن نفسه أن هناك كارثة سوف تحدث خلال أيام .. فقد حَلَّ موعد اللعنة العشرية.

كرمة تهزُّ رأسها ترغب في المزيد، يتفحصها والدها بين سعادة بابنته التي تستجوبه وبين إصرارها على الخوض في تلك الجزئيات .. كَبِرت كرمة وأصبحت تتحدث حديث ذوي الشأن .. يقول الأب في نفسه ذلك .. يؤكد لها أن لا جديد لديه بعد كل ما أسره لها .. الآن عليها أن تحفظ سره ولا تبوح بها إلى أمِّها أو أختها هايدي.

تَعِدُه كرمة بذلك .. تطلب من العامل أن يأتي إليهما بقدحي قهوة في إشارة منها إلى رغبتها في استمرار اللقاء حتى تعلم ما يخفيه عنها .. يمط شفتيه متعجبًا أكثر، لكنها تسأله:

– ماذا عن هذه اللعنة؟ أخبرني عن جدي وماذا كان يفعل .. وما أدواته في ذلك؟ وإلى أي مدى وصل في سحره الأسود؟

يخبرها عما كان يعرفه وهو قليل مقارنة بالحقيقة .. يخبرها عن حجرة والده الخاصة التي كان يُغلقها بسبعة أقفال، تنصت إليه باهتمام بالغ. قبل أن يغادرا المكان تُقرِّر كرمة السفر إلى نزلة شرموخ.

Scanned by CamScanner

(٢٣)

«چو»

صرخة مدوية تطلقها إلهام وهي تتعلق بيد ابنها جمال، تشهق وهي تعيد صرختها لكن هذه المرة تصوغها في جملة: «لن تذهب يا جمال» .. لكن جمال يجذب جسده في اتجاه الباب وهو يحاول نزع يده من قبضتها برفق حتى لا تفقد توازنها، بينما يده الأخرى تُعدِّل من وضع حقيبته الصغيرة على كتفه، تهرول إلهام لتسدَّ عليه الطريق نحو الباب، تلتصق بظهرها إلى الباب فاردة ذراعيها مثل تمثال من حجر. يعلو صدرها ويهبط بعنف، يجفُّ حلقها بشكل كبير، تتمنى لو يعطيها أحد شربة ماء، تضمُّ يديها أمام صدرها متوسلة إلى جمال بألا يتركها.

منذ دقائق قليلة كانت تجلس معه تحكي له كيف أن قرابة العشرين عامًا من عمرها لا تعلم عنهم شيئًا، منذ أن كانت طالبة في المرحلة الثانوية غادرت

Scanned by CamScanner

روحها جسدها لتسير إلى جوارها على الدوام تشاهد ما يحدث لهذا الجسد بدون قدرة على التدخل .. روح مكتوفة من قوى خفية لا تعرف طبيعتها ولا طريقًا للخلاص منها.

حقيقي كانت القيود تخف أحيانًا، لكن ما إن ترغب الروح في العودة إلى الجسد حتى تنتفض القوى الخفية لتُكبّلها بعنف أكثر عن ذي قبل. تحكي لابنها آلامها و جسدها يتمزق إلى أشلاء كل يوم حينما تُمسك تلك القوى بأطرافها الأربعة، تصرخ وترتعد .. يأتون إليها بالأطباء سنوات .. ثم يأتي إليها السحرة من كل صوب .. وأخيرًا تعيش تحت رحمة المسكنات التي تتحول مع الزمن إلى أهم شيء في حياتها، أدمنتها كما قال لها آخر طبيب محذرًا من خطورتها، امتنعت عن زيارة الأطباء وبدأت تبتاع تلك الحبوب من الصيدليات بشكل مباشر.

سألها بشكل تلقائي عن نوع الحبوب التي كانت تأخذها ومتى توقفت عن تناولها؟ ارتبكت لحظة وهي تبحث عن اسم من الذاكرة لحبوب مهدئة فتذكرت حبوب LEXOTANIL تنطق اسمها وقد تعثّرت في نطقها بشكل جعل ابنها يضحك من قلبه، تصمت لحظات سعيدة بأنه لم يسألها أكثر عما تأخذه من حبوب.

Scanned by CamScanner

لن تخبره عن حقيقة تطور الحبوب معها وما تأخذه حتى اليوم منها بشكل سري في أوقات توترها، خاصة هذه الأيام، ولم تخبره أيضًا وهي تحكي له عن السنوات الماضية، لقد أتى عليها وقتٌ أدمنت تلك الحياة الرهيبة التي كانت تعيشها، أَلِفَت القوى الخفية التي تسيطر عليها وأَلِفَت نوبات سقوطها و رعشتها، كم تمنت أن تطبق اليد الخفية على رقبتها حتى الموت كي تغادر هذه الأرض التي ما طعمت منها غير المعاناة.. ولم ولن تخبره عن أدق وأهم جزئية تحتفظ بها لنفسها فقط ولن تبوح بها أبدًا.

تنتهي من حديثها بعبارات مبتورة .. فلم تكتمل القصة بعد، جمال يتعجب .. فهناك الكثير يحدث حاليًا ولا بد من البحث عن أسبابه والتصدي لما يحدث، فما يزال يعاني أثر حالات الاختناق التي مر بها، تلك الأيادي الحديدية التي كانت تطبق على رقبته وأماكن متفرقة من جسده آثارها باقية زرقاء اللون آخذة طريقها إلى اللون الأسود، قلبه ينتفض في صدره كلما عاودته تلك الصور المفزعة لأشكال رهيبة، تراوده أحلامه حال نومه وحال يقظته، يكتم صراخه لئلا تنهار أمه إن كان في المنزل أو يندهش أصدقاؤه إن كان في الخارج، يكتم صراخه بداخله حتى أصبح مثل برميل يغلي ما بداخله يكاد ينفجر. لا بد من اتخاذ خطوة للأمام مهما يكن الثمن .. لقد اتخذ قراره

Scanned by CamScanner

بالسفر إلى نزلة شرموخ، سوف يلتقي بزين ابن عمته في منزله، يُدبِّران معًا ما يجب عمله، هناك في نزلة شرموخ أصل البلاء وهناك سيكون العلاج.

اتخذ قراره وجهز حقيبته في دقائق، وها هو الآن يغادر، وها هي إلهام تعترض طريقه وتقف أمام الباب ودموعها تغرق وجهها، يبدو أنها من شدة انفعالها قد تعرقت عرقًا شديدًا، خصلات شعرها تجمعت والتصقت بجانبي وجهها، القميص المنزلي الخفيف الذي ترتديه يلتصق بجسدها في أكثر من مكان، كانت كمن ارتدت ملابسها بعد حمام بدون أن تجفف جسدها، ما تزال ترفع يديها أمامها في رجاء وتوسُّل.

يقترب منها جمال فترتعد وتضغط الباب بظهرها بشدة، لكن جمال يبتسم ويضع حقيبته في جانب ويحتوي أمه التي تبتسم فجأة مثل طفل بكى كثيرًا من أجل الحصول على لعبة، وما إن تناولها حتى توارت حالته الهستيرية وابتسم وضحك .. وضع يده اليمنى على كتفيها فتكورت في لحظة على صدره وكأنها كانت تنتظر تلك اللحظة، أخذها بهدوء إلى شيزلونج قريب وأجلسها إلى جواره .. ضمَّها إلى صدره أكثر كي يبث الطمأنينة بداخلها، ثم يرتد إلى الخلف ليتأمل تعبيرات وجهها وهو يقول:

- إلهام .. أمي .. حبيبتي الغالية .. اهدئي لحظة واتركي مشاعرك لنفكر بالعقل ..

Scanned by CamScanner

شعرت إلهام بأن القادم سيئ وأنه يمهد لتحقيق رغبته، ارتبك داخلها بعد لحظات راحة قليلة، لكنها لم تجد ما تقوله، فانتظرته يكمل، أمسك براحتيها بين يديه ورسم على وجهه شبح ابتسامة وهو يقول:

- هرب والدي من نزلة شرموخ وأنتِ وأنا معه .. هرب بأسرته الصغيرة مُخلِّفًا خلفه حياته الماضية وأسرته وقرية عاش فيها طفولته وشبابه .. هرب من اللعنة القاتلة .. لكن ماذا حدث؟ لقد أتته اللعنة هنا .. ومرت السنوات ونحن هنا بعيدون كل البعد عن نزلة شرموخ .. عن مقر اللعنة التي تؤكدين أنها أصل البلاء .. وماذا يحدث؟ تطارنا اللعنة حتى في غرفة نومي .. هنا يا أمي.

يضمُّ يديها إلى شفتيه ليقبلهما ثم يضعهما على صدره .. يشعر بصدرها المضطرب يهدأ قليلًا، يُكمل قائلًا:

- لم ولن يفلح الهروب يا أمي .. المواجهة هي أفضل حَلٍّ .. لنبحث عن سبب اللعنة ونبحث عن حَلٍّ له وإلا ما انتهت اللعنة مدى الحياة.

- لكن يا جمال ...

- لكن ماذا يا أمي؟! أكرر .. الهروب لم يمنع أن تطول اللعنة والدي .. ولن يمنع أن تصل إلينا إن كنا هدفها هذه المرة أو المرات المقبلة. ولن أكون

Scanned by CamScanner

وحيدًا .. هناك زين وعمتي وأهالي نزلة شرموخ كلهم سوف يقدمون يد العون.

تهدأ إلهام قليلًا، ينتقل إليها جزء من الاستقرار المنبعث من ابنها، لن تعدم اللعنة الوسيلة للوصول إليهم أينما كانوا، الأفضل .. المواجهة، لكن لا بد أن تعتمد المواجهة على الحقائق:

- الحقائق مفزعة يا جمال.

تتوجه إلى ابنها بتلك الجملة، يتأملها مستغربًا، من بعيد يأتي صوت دَوِّي عظيم يبدو أنه ارتطام سيارة ضخمة لأن هناك صوت فرامل .. بحركة لا إرادية ينظر جمال نحو النافذة المغلقة، لكنه يتجاهل ما يحدث، يسأل أمه هامسًا:

- أي حقائق يا أمي؟! هل هناك ما تخفينه عني!

تبدأ إلهام في سرد تفاصيل جديدة، في سنوات أسرها، كانت مكبلة .. مقيدة .. فوجئت بنفسها تتحول من تلك الطالبة، العاشقة، المقبلة على الحياة توافق على شخص سمج يُدعى مصطفى الجندي، تجد نفسها مسوقة إلى بيته، تشاهد في أحلامها أو في غفواتها، لأنها لم تكن لتنام كما كانت من قبل، أشخاص ومجسمات لأشباح مرعبة، في البداية كانت تُرجع الأمر إلى سوء

Scanned by CamScanner

حالتها النفسية، لكن نفس الأشكال كانت تتكرر في أحلامها، تأتيها من كل مكان، حتى تطورت رؤيتهم فأضحت تراهم حال يقظتها، تتلبس تلك الأشكال المفزعة شخوص حولها، أو حتى حيوانات أو جماد .. فكانت ترى أشكالًا بشعة في كل مكان .. وإن هربت بنظرها إلى سقف الحجرة كانت تراهم هناك مثل رسوم متحركة.

تتذكر جيدًا حينما كانت تذهب في تلك الإغماءة .. كانت تترك جسدها في سريرها تحت يد الأطباء، كانت تترك جسدها وتنتقل عنوة مع تلك الأشباح إلى أماكن غريبة، عوالم خفية لو تحدثت عنها أمام أحد لوصفها بالجنون، لذا كانت تُفضّل الصمت على البوح.

تذهب معهم إلى بنايات أسطورية مثل قصور منحوتة في أعالي الجبال، وكأن لها أجنحة تُحلّق في الهواء وتهبط بهدوء في صالة متسعة مفروشة بأثاث يغلب عليه اللون الناري مع مرايا مؤطَّرة بإطارات مذهبة في كل مكان تعكس ألسنة اللهب المنتشرة في الأركان والزوايا، تتصاعد الأدخنة لتملأ المكان، والغريب أن تلك الأدخنة لم تكن لتحجب رؤية عينيها.

ذات يوم، وكان قد مَرَّ على عذابها اليومي المستمر منذ أن تزوجت بمصطفى الجندي سنوات، كاد مصطفى فيها أن يُجنَّ لأنه لم يصل إلى قلبها

Scanned by CamScanner

بعدُ، ولم تجد بذوره أرضًا خصبًا بداخلها كي تنبت، ينفعل عليها في هذا اليوم ويفقد القدرة على التحكم في أعصابه فيضربها بعنف، يتخذ منها خصمًا أو عدوًّا يكيل له اللكمات في الوجه والضربات بالقدم تغوص في بطنها لتسقط أرضًا مصدرة آهاتٍ مكتومة، يجذبها من شعرها ويرفعها لأعلى ثم يلقيها أرضًا، يستعمل قدميه مرات متتالية وهو يصرخ بأقذر كلمات السب واللعن، حتى وجهها لم ينجُ من ركلاته، كان يضربها بغيظ مَن تبعثرت رجولته أو تهدَّم مبنى أحلامه ملقيًا عليها باللوم لأنها السبب في تعاسته التي يعيشها منذ أن تزوج بها، تفعل ما تفعله من أجل أن يُطلقها، ولن يُحقق لها ما ترجوه أبدًا، سوف تعيش تحت قدمية ذليلة إلى وفاتها، وسوف تنجب له ما يريد من الأولاد.

فجأة تغيب عن الوعي تاركةً له جسدها ليستمر في تعذيبه، للمرة الأولى تذهب إلى ذلك المكان أعالي الجبال هادئة النفس، مهما يكن ما ينتظرها هناك من عذابات هو أرفق بها مما تعيشه تحت قدمي مصطفى الجندي، لكنها لم تشاهد الأشكال المرعبة في كل مكان، حتى النيران المشتعلة لم تشاهدها أو الأدخنة المنتشرة في المكان، كان كل شيء هادئًا، فقط الألوان الدموية تسيطر، تشاهد شخصًا ما، يأتي على وجهه ابتسامة عريضة، تشهق وبحركة لا إرادية

Scanned by CamScanner

ترفع راحتيها لتحتوي وجهها من فرط دهشتها، إنه سامح عبدالفتاح حبيبها الأول، للحظة تتخيل نفسها تحلم، تتأمل المكان مرة أخرى .. مؤكد هي تحلم .. لكن «سامح» يقترب منها و قد مد ذراعيه أمامه .. يتحدث .. لكن بصوت آخر غير صوت سامح، صوت أشبه بفحيح الأفاعي، ترتعد إلهام مكانها، تهمس: «مَن أنت؟» يبتسم .. يضمُّها إلى صدره وقد استسلمت تمامًا .. ماذا تملك كي تعترض؟! لا شيء .. وكأنه سمع ما يدور بداخلها، أمسكها من كتفيها وتأمل وجهها وقد علت ملامحه تعبيرات شفقة، بهدوء أجلسها على أقرب مقعد .. صادف أن كانت أمام مرآة ضخمة بحجم جدار، للمرة الأولى تشاهد نفسها .. ترتدي ملابس زرقاء .. إنها ملابس المدرسة الثانوية .. حتى شعرها على نفس هيئته كذيل فرس عربي أصيل، وكأن الزمن قد عاد للخلف سنوات، يجلس سامح أمامها على مقعد خُلِق من العدم في طرفة عين، يضع يديه على راحتيها وهو يتأملها أكثر .. يقول:

– إلهام .. لقد ظُلمتِ كثيرًا .. أعلمُ ذلك.

تتألم إلهام .. كلمة ظلم قليلة مقارنة بما تعانيه، تأملت سامح بنظرات ذات معنى، تودُّ لو تسأله: لماذا تركها؟ لماذا لم يحارب من أجلها مثل فرسان الحكايات؟ لكن لسانها لم يتحرك، يُكمل فيقول:

– ما لا تعلمينه أنني الأداة المستخدمة في تعذيبك .. لكن هناك أمورًا خارجة عن إرادتنا نحن الـ ...

يصمت لحظة وقد لاحظ دهشة تعتريها .. يجبر نفسه على التصريح بكل شيء دفعة واحدة قائلًا:

– خارجة عن إرادتنا نحن معشر الجن.

تشهق إلهام وترتد إلى الخلف في مقعدها حتى تحولت إلى كتلة صغيرة، يُكمل:

– نعم .. أنتِ هنا في عالمنا يا إلهام .. اسمي «سعدى» .. وأنا الجني الموكل به أمركِ وأمر أخيكِ سعيد .. رغمًا عني .. تعويذة قوية واتفاق بين ملكنا وذلك الإنسي المدعو الجندي شرموخ، أعلمُ كل ما تمُرِّين به بل أساعد في تنفيذه .. لم أظهر لكِ اليوم على طبيعتي .. أشفقتُ عليكِ .. يكفي ما تعانينه من الإنسي مصطفى الجندي من عذاب .. قررتُ الظهور على أفضل صورة تعشقها عيناكِ .. سامح.

يبتسم الجني «سعدى» المتجسد في صورة حبيبها، يدقُّ قلبها بعنف، تتذكر لحظات العشق .. تندهش مما آل إليه حالها، يحركها الجني برفق ليخرجها من شرودها، يتحدث بهدوء لا يتناسب مع ما يحدث:

Scanned by CamScanner

- ألا ترغبين في رؤية سامح؟

- هه؟!

لم تمتلك القدرة على النطق بكلمة، فخرج حرف الهاء مكررًا على شكل سؤال وتعجُّب في نفس اللحظة، ماذا يحدث؟! وكيف لجني مجند لعذابها أن يُعاملها بهذا القدر من الهدوء؟!

كان يعلم ما يدور بداخلها، فقد تجسَّد فيها و تجسدت فيه سنوات، يحركها كيف يشاء .. بل يجعلها تفكر فيما يشاء، الآن فقط يترك روحها كي تجلس بهدوء بعيدًا عن ذلك الجسد المعذب بيدي مصطفى الجندي وقدميه، مصطفى الذي ما إن شعر بحركتها تسكن ولا تُبدى أي رد فعل، حتى يرتبك، يساوره الشك في أنها فارقت الحياة، يضع يده أمام أنفها كي يتأكد من أنها تتنفس، ولمَّا يتأكد يحملها ليضعها فوق السرير، يأتي مسرعًا بمنشفة ليمسح الدماء التي تنزف من أنفها وأسنانها حتى يتوقف النزيف، يخرج لأمه كي تجلس معها حتى يأتي بالطبيب.

يشير الجني المتجسد في صورة الشاب سامح بيده في الهواء فتظهر صورة هلامية .. يظهر سامح في جلبابه الأبيض يسير بين الحقول على أطراف نزلة شرموخ، نحف جسده وزادت سُمرته، عظام وجهه برزت وضاع البريق

من عينيه، يسير حزينًا يتأمل الأشجار، العصافير، أسراب الحمام، يُمسك بعصا صغيرة يحركها في الهواء .. على ملامحه ارتسم الحزن، يقذف بالعصى إلى صفحة ماء الجدول الذي يسير إلى جواره.

يهمس لها الجني:

– هذا سامح .. يسير هائمًا منذ أن رحلتِ عنه.

عقدت الدهشة لسان إلهام وهي تتأمل سامح الحقيقي في الصورة الهلامية وسامح الصورة المتجسد أمامها. يُكمل كلماته همسًا كأنما يرقُّ لحالها:

– ألا تودين التحدث إليه؟

– أنا؟!

قالتها إلهام بدهشة، كيف؟! لا بد أنها في حلم كبير .. ماذا يفيد حديث مع سامح الآن؟ لقد انتهت علاقتهما ولن تعود، تخطت مرحلة العذرية، وتلك في قريتهم تكفي لبناء جدار عظيم يقف حائلًا دون زواجهما، تهز رأسها بشدة كي تفيق، تحرك يديها فتشعر وكأن هناك مَن يمسك بهما بقوة .. تتأمل فلا تستطيع أن تفتح عينيها لتشاهد مَن يُمسك يديها .. يعقب قائلًا:

– جسدك ملقًى على السرير الآن.

Scanned by CamScanner

أشار بيديه في الهواء أمامه فتلاشت صورة سامح وحلت محلها صورة إلهام في غرفة نومها، ممدة على السرير وآثار الدماء على وجهها وملابسها، وعلى حافة السرير تجلس والدة مصطفى وقد أمسكت برأسها بينما يقوم مصطفى بشل حركتها وهو يمسك يديها بعنف، بينما يقف رجل غريب الملامح له نظرات قبيحة تتناسب مع جسده البشع، يكمل الجني:

- لم يأتِ بطبيب .. أتى بـ «مسيحة الأعرج» .. رجل يتعامل مع عالمنا .. عالم الجان.

تهمس إلهام متعجبة:

- مسيحه الأعرج؟!

تشاهد نفسها فوق السرير وقد هدأت حركتها وتُردِّد الكلمات «مسيحة الأعرج؟!» فيصعق الرجل وينظر حوله في كل مكان .. يسأل مصطفى وأمه وهو يشير ناحية إلهام «هل أخبرها أحد بأنني سوف آتي إلى هنا؟» يجيبونه بهز رؤوسهم بالنفي، يعود إلى الخلف مذعورًا مثل فأر قد تم حصاره بشكل كبير، يبحث عن مخرج، يقفز نحو الباب بخفة لا تتناسب مع ساقة العرجاء، يهتف قبل أن يختفي: «عليها جانٌّ جبار» .. يهتز مصطفى مكانه حينما يسمع كلمة جبار، هو يعلم أنها تحت تأثير تعويذة والده الراحل، يتعامل مع الأمر

Scanned by CamScanner

وكأنه لا يرغبه وإن كان داخله يستمرئه لعلمه أن إلهام إن أفاقت تركته .. لقد أتى بمسيحة الأعرج لعلمه أن ما بها هو أمر شيطاني وأوحى له وهم في الطريق أنه يودُّ لو تكون زوجته أكثر هدوءًا وطاعة له .. تنجب له الأطفال .. ولو امتلك مصطفى الجرأة أكثر لطالب مسيحة بتعويذة أكثر قوة وأن يكون مفتاحها بيده هو كي يحركها كيف يشاء .. لكن ها هو مسيحة يفر هاربًا.

يحرك الجني يده في الهواء فتنقشع الصورة، تعود إلهام إلى المكان لتتأمله، بداخلها أكثر من سؤال، أول سؤال لماذا يتعامل معها هذا السعدى بهذه الطريقة اليوم؟! يبتسم وهو يقف فيتلاشى المقعد، يسير في المكان بهدوء لحظات قبل أن يعود ليواجهها متحدثًا بكلمات واضحة:

- لديكم في عالمكم .. وظائف يمتهنها الكثير رغم كراهيتهم لها .. السجان .. رجل الإعدام الذي تطلقون عليه لقب «عشماوي» .. حتى الزبال .. مهن يقومون بها على الرغم من رفضهم .. أيضا هناك وظائف ينفذ صاحبها القرارات بدون أي نقاش .. تنفيذ أوامر بشكل مباشر حتى وإن كان في ذلك ضررًا كبيرًا لآخرين .. تأملي .. إن كان هذا يحدث في عالمكم .. فليس بغريب أن يحدث في عالمنا .. أنا أُمارس معكِ مهمة واجبة التنفيذ .. لكن داخلي لا يُقرُّها .. و بعد مقتل الجندي شرموخ أصبحتُ أكثر أمنًا وإن

Scanned by CamScanner

كنتُ ما أزال تحت تأثير تعويذته، لكن لا متابعة مثلما كان حيًا .. أقصد أنني أصبحت حرًا في أفعالي ولكن لا أستطيع الفراق..

إلهام التي يبدو أن لسانها كان معقودٌ تمامًا كما في الأحلام يظهر على ملامحها تساؤل جديد، إن كان مجبرًا على ذلك ماذا يريد منها الآن، كان سيكمل لو لم تتساءل فيقول:

– تعويذة أسرك تحت مصطفى الجندي، فعلها أبوه وحَفِظَ سِرّها وحده .. مات وما تزال تعويذته فعّالة.. سوف يستمر الوضع إلى الأبد .. ممارسة ذلك بالنسبة لنا في عالمنا ليس بمشكلة مثل ما تمثله في عالمكم .. فأعماركم قصيرة وقدراتكم محدودة .. لقد تشاورت مع مليكي بشأنك .. ترك لي حرية التصرف شريطة ألا أفكَّ أسرك من مصطفى الجندي وإلا قد تحدث كوارث حقيقية هنا .. ومليكي مرتبط بعهد هو الآخر .. وبعد مقتل الجندي على يد خلاباش أصبحنا أسرى تعويذات مفقودة وآل أمرنا إلى قاتله .. أعني خلاباش .. أصبحتُ وعددًا غير قليل معلقين لا نستطيع البقاء أو الخلاص.

يصمت لحظة كمن يفكر في الأمر .. ثم يقول:

– سوف أعقدُ معكِ اتفاقًا يرد إليكِ بعض صحتك المفقودة في صراع لن ينتهي .. لن أنتظر موافقتكِ لأنك لا تمتلكين حرية التفكير من ناحية ولأنني أرى أن ما أطرحه عليكِ هو أفضل مما أنتِ فيه بمراحل.

Scanned by CamScanner

للمرة الأولى تشعر إلهام بجزء من الراحة يسري بداخلها، تتمطع وكأنها تتقلب على فراشها في هدوء، وكان ذاك حال جسدها وهي تسحب الغطاء لتُغطي جسدها فيهدأ مصطفى ويشير نحو أمه بأن عليهم مغادرة الغرفة وتركها لتنام.

- لقد أُمِرتُ بأمرك كله .. وأُمِرَ جنيٌّ آخر، أعرفه، برئاسة فريق كامل كُلِّف بحراسة غرفة الجندي .. كان قبل وفاته يغلقها بسبعة أقفال وعلى كل قفل تعويذة .. و كل تعويذة تخصُّ جنيًا .. بحيث يضمن إن مات أحدهم أو ضَعُفت مقاومته أمام أي هجوم لأحد جنود قبائل الجن الآخرين يكون باقي الفريق في مأمن أو حتى بعضهم، ثم إنهم بتجمعهم هذا يمثلون قوة غير متوقعة لحراسة غرفة واحدة .. ولأن الغرفة تحتوي على كثير مما يخصُّ الرجل ولأنه يعلم طبيعة أولاده وفضولهم .. قرر أن يفعل ذلك .. بالإضافة إلى أنه منذ أن دخل إلى أرض السحر الأسود وهو يتباهى بقدراته الفائقة .. حتى حينما كان يقرر تجنيد أحدنا لمساعدته لم يكن يُسخِّر إلا ملوك القبائل .. حتى أخذه غروره إلى ذلك الأمر الرهيب الذي أودى بحياته.

كانت إلهام تُنصت وقد غلبها الفضول بعد أن شعرت ببعض الهدوء، فلن ترى من عذاب بقدر ما شاهدت وعانت في السنوات الماضية، ولم تعد

Scanned by CamScanner

تملك ما تخسره، كم مرة أقدمت على الانتحار ولولا جبنها وخشيتها من عقوبة تلك الجريمة المترسبة بداخلها لفعلت.

- اعلمي يا إلهام أنني سوف أخفف قيودي عنك بشرط البقاء في حياتك كما أنتِ .. حتى ينزع القدر عنكِ قيودك .. وهذا يأتي يوم أن يلحق مصطفى الجندي بأبيه .. في هذا اليوم يُفك عنكِ القيد يا إلهام.

يتأملها لحظات يواري بداخله ارتباكًا ما .. ثم يكمل:

- أمر أخير أودُّ أن أخبركِ به .. إننا نعاني في عالم الجان تلك التعاويذة التي يتفنن فيها أبناء البشر، ولو نمتلك الخلاص منها لفعلنا .. لكن صاحبها يعقد العهد مع مردة من الجان لهم قوة وسطوة جبارة لا قوة لدينا لمواجهتها، وحينما أقدم الجندي على تلك الخطوة الكبرى وسخر لها مارد جبار من مردة الجن .. ذهب ابن هذا المارد مجبرًا كي يأتي للجندي بما أراد .. بأسرار السماء .. حدث الأمر العظيم .. صُعِقَ عدد كبير من رفقاء المارد وتحولوا إلى حفنة تراب في أقل من طرفة عين .. وخلاباش كبير قبيلة شرسة حادة الطباع، اجتمعت تلك القبيلة وقررت أن تنتقم، فتحايلت القبيلة وبعد اجتماع سري أرسلت ابن خلاباش إلى الجندي شرموخ يخبره فيها بقدوم كبيرهم «خلاباش» في اليوم التالي ليحقق له مطلبه، وما حدث في هذا اليوم أمر رهيب حينما استطاع خلاباش مغافلة الجندي وجنوده من الجان وقتله

Scanned by CamScanner

غرقًا في غرفته كما تعلمين .. وكان حدثًا كبيرًا أُقيمت له الأفراح لأسابيع بين أفراد تلك القبيلة .. أما السبعة الموكلون بحراسة باب غرفته فما يزالون قابعون على الباب .. أصبحوا طوع أمر خلاباش بعد أن قضى على سيدهم الجندي، الولاء للأقوى، وزيادة في الانتقام منهم لأنهم كانوا تحت يد الجندي شرموخ من قبل ربط خلاباش مصير هؤلاء السبعة بتعويذة من طلاسم لا يعلمها إلا هو .. لن تُحل أي تعويذة من التعويذات السبع إلا بموت الجني المأسور بها، وحينما طالب الحراس السبعة بتقديم القرابين مقابل العفو عنهم والخروج من الأسر وافقهم خلاباش على أن يكون القربان المقدم أحد أفراد أسرة الجندي مقابل فك أسر واحدٍ من هؤلاء السبعة، ويكون ذلك في يوم الصفح، وهو يوم واحد يتكرر كل عشرة أعوام من أيامكم، في ليل هذا اليوم يكون فيه الظلام حالك .. القمر يختنق .. تهرول أقوام الجن إلى أوكارها .. في هذا اليوم يكثر الصفح ويخرج الكثير من أسر التعاويذ عبر دماء يقدمونها كقرابين طاعة .. وافق الحراس السبعة على أن يتعاونوا جميعًا يوم الاختناق العشري للقمر كي يفك أحدهم أسره ويرحل عن تلك الغرفة، وقبل أن أحدثكِ عن التفاصيل يجب أن أضمن سرية حديثنا .. فأنت لا تعلمين ماذا فعلت حتى أختفي بكِ عن العيون في هذا المكان .. ولا تعلمين كم من الحراس يؤمنون لنا هذا اللقاء.

Scanned by CamScanner

تهزُّ إلهام رأسها علامة الموافقة وإن كانت أكثر تعبيرًا عن حالة الاستسلام اللانهائي التي وصلت إليها، يبتسم ثم يقول:

- سوف تشعرين براحة كبيرة حينما يتحقق الهدف وتخف القيود مع الوقت والآن لنعد إلى الاتفاق فيما بيننا.

هنا تتوقف إلهام بإشارة من يدها بأن يكفي هذا، تتوقف عن سرد الأحداث لجمال وقد شعرت بإرهاق شديد .. كان حديثها يخرج وكأنه نَزْعٌ للكلمات من فوق جدران صلبة .. كان جمال ينصت وقد علته الدهشة .. لولا أنه عاش تلك التجربة وأطبقت عليه الأشباح حد الاختناق لقال بأن كل ما سمعه هو من نسج خيال أمه لمرضٍ أصابها.

الآن عَلم أن هناك لعنة حقيقية، وعلم أن هناك خمسة من الجان يحرسون باب الغرفة بعد أن تحرر اثنان بعد موت جدته الغامض، ومقتل أبيه الأكثر غموضًا.

لكن إلهام لم تُكمل له ما تحمله من أسرار ولو أكملت اليوم لعلم أن هناك ستة من الحراس وليس خمسة، وعلى ذلك فهناك ست ضحايا سوف يقتلون، موت الجدة لم يدخل ضمن قرابين العفو .. موتها كان لسبب آخر .. سبب أكثر غرابة لم يتخيله أحد على الإطلاق.

يتأمل ملامح إلهام .. هل يستكين ويستمع إليها ولا يذهب أم يظل على تصميمه ويذهب إلى هناك .. إلى نزلة شرموخ؟

Scanned by CamScanner

(٢٤)

«زين»

جسده ينتفض وكأنه محموم، رعشة تنتاب كل خلية من خلايا جسده، حتى الدماء تسير في عروقه وكأنها زيت يغلي، يتأمل أمه التي تنظر نحوه مفزوعة، لا يشعر بها إلا وهي ترتد إلى الخلف صارخة، لو امتلك أحدٌ ريموت كنترول أسطوريًا واستطاع أن يضغط زر الـ pause كي يتم إيقاف صورة حركتهم كي يسئل الأم في هذه اللحظة عما تشعر به ولماذا صرخت؟ لأجابت:

- في اللحظة الأولى التي دخل عليَّ فيها زين شعرتُ بارتفاع رهيب في درجة حرارة الغرفة وكأني قد مرت بي فجأة كتلة لهب عظيمة، لكني أرجعت ذلك لأي شيء لا يدركه عقلي بعيدًا عن ولدي، لكن ما حدث في

Scanned by CamScanner

اللحظة التالية جعلني أوقن أن ما يحدث له علاقة بـ «زين»، لقد جحظت عيناه وانتفخت أوداجه حتى إنني شاهدتُ عروق رقبته تنتفض، يداه كانتا متشنجتين وتتحركان ببطء شديد في الهواء وكأنهما تستعدان كي تطبقا على شيء ما، ولا أعلم لماذا شعرتُ بأنهما سوف تطبقان على رقبتي، رفعتُ يدي بحركة لا إرادية كي أحمي رقبتي من قبضتيه وأنا أعود إلى الخلف، في اللحظة التي اقترب فيها تغيرت ملامحه بشكل غريب وكأنني رأيتُ قرون بشعة تنبت أعلى رأسه وأنيابه تطول حتى تظهر من فمه، صرختُ بشدة.

الآن نطلب من حامل الريموت كنترول الأسطوري أن يضغط مرة أخرى على زر الـ pause كي يترك الحركة تعود إلى طبيعتها، سوف يرتعد زين إثر صرخة أمه المدوية، ينتفض في مكانه .. يهتز بشدة .. يشعر باختناق رهيب، يرفع يديه إلى رقبته يدلكها وهو يتنفس بشدة، يريد هواء يملأ به صدره، بظهر كفه يمسح هذا العرق الغزير الذي بدأ يسيل على جبهته، فجأة تخور قواه وكأن قدميه مثل قدمي دمية محشوة بالقليل من القطن، تتلوى ولا تستقيم، يسقط على ركبتيه، يرفع يديه في الهواء متوسلًا لأمه بأن تحتويه، لكنها ما تزال تقف متسمرة في مكانها تضغط الحائط بظهرها باحثة عن مهرب.

في هذه اللحظة، ولا يعلم أحدهم من أين أتى! يظهر «حسن» شقيق زين الأكبر، يأتي وجسده يهتز من أثر تنفسه بشدة وكأنه أتى مهرولًا، يرمي

Scanned by CamScanner

جسده على زين وبذراعيه يقيده من الخلف، يظل على هذا الوضع دقيقة كاملة تمر كأنها ساعة حتى يشعر به حسن بين ذراعيه وقد هدأ تمامًا، أيضًا يشاهد أمه وقد هدأت قليلًا وإن كانت دموعها قد انهمرت على وجهها بدون أن يصحبها صوت.

لحظات أخرى تمر حتى يحرك زين رأسه بهدوء يمينًا ويسارًا، يتأمل المكان وكأنه عائد من غيبوبة طالت مدتها، يتأمل يديه المتشنجتين، أمه الواقفة أمامه ودموعها تغرق وجهها، ذراعا شقيقه اللتان تطوقانه بدأ ضغطهما يخفُّ على صدره.

بعد دقائق يجلسون في صالة المنزل، في أيديهم أكواب الشاي ما تزال الأبخرة تتصاعد منه، يحكي لهم زين أنه لا يعلم ما حدث له، كل ما يتذكره أنه أتى من الخارج كي يحصل على مفتاح منزل جده القديم، يتعجب بعدها من تلك الصورة التي وصفتها أمه بأنه كان عليها حال دخوله إليها.

ترتبك الأم وتتذكر يوم أن دخل عليها شقيقها مصطفى قبيل الفجر طالبًا منها مفتاح البيت القديم، لقد مرت عشر سنوات على ذلك اليوم وتشعر كأنه الأمس، تُحرك يديها في الهواء بشكل عصبي وهي تقول:

- لن تدخل البيت المهجور طالما كنتُ على قيد الحياة يا زين؟

Scanned by CamScanner

– يا أمي .. بدون انفعال .. أنا فقط أريد الحصول على كتاب معين من حجرة جدي.

– أي كتاب؟! ومَن أخبرك أن حجرة جدك يوجود بها كتب؟ وهذا الكتاب الذي تريده بالذات .. مَن أخبرك أنه هناك؟!

كانت تتحدث بشدة وحزم، فقد اتخذت قرارها على الفور بأنها سوف تمنع زين وإن قدَّمت حياتها مقابل ذلك، لا تعلم تفاصيل اللعنة، فقد تفرقت الأسرة ومات من مات وذهب من ذهب ولم يحدثها أحد بما لديه من أسرار، لكنها تعلم أن هذه الغرفة .. بل هذا المنزل بأكمله .. هو منزل هبط إلى الأرض من جهنم .. لا يدخله أحد ويخرج سالمًا .. تصيبه اللعنه ولو بعد حين، يكفيها ما أصابها من أهل قريتها بعد موت أمها وهرب إخوتها .. أمر كان متوقعًا حدوثه بعد وفاة الأب الجندي شرموخ ولكنه تأجل إلى ما بعد وفاة الأم .. لا أحد يعلم سبب ذلك .. لكن هذا ما حدث.

يحاول زين تبسيط الأمر لوالدته، لكنها تقاطعه بحسم .. فجأة وكأنها تذكرت أن حسن موجود .. نظرت نحوه بنظرة تحثُّه على الوقوف إلى جانبها والتصدي لرغبة زين .. ولكنها ما إن تتأمله لحظة حتى تتذكر دخوله منفعلًا ليكبل حركة زين وكأنه آتٍ من أجل ذلك .. تأملت لحظة ثم تساءلت:

Scanned by CamScanner

- أخبرنا يا حسن عن سبب مجيئك .. ولو كنت استدعيتُك ما أتيت في مثل هذا التوقيت يا ولدي؟!

و كأن السؤال مفاجئ لـ زين .. فالتفت ناحية أخيه مستفسرًا. يتأملهم حسن لحظة قبل أن يزفر تعبيرًا عن حالة الغليان التي كانت تعتمل بداخله، يقول:

- الكارثة أكبر بكثير يا أمي.

- أي كارثة يا حسن؟!

يشير برأسه ناحية زين بينما عيناه تنظران نحو أمه، يُكمل فيقول:

- تخافين على زين من لعنة تسكن منزل جدي المهجور.

تجيبه مؤكدة ومستفسرة بتعبيرات وجهها:

- هذا حقيقي.

- لكن هناك ما هو أخطر من ذلك.

تشهق الأم وهي تغمر ولديها بنظراتها وكأنها تدفع عنهما الأذى، تخرج الكلمة تحمل رعبًا لا حَدَّ له:

- أخطر؟!

- نعم يا أمي .. جريمة قتل.

Scanned by CamScanner

تصرخ الأم بكلمة «قتل» و هي تنظر نحو زين .. بداخلها يتصارع سؤلان .. «أقاتل أم مقتول يا ابن بطني؟» لكن لسانها يعجز عن النطق بأيٍّ منهما، و كأنما شُلَّ لسانها .. لكن عينيها كانتا أكثر قدرة على التعبير عما يعتمل بداخلها، فقد ارتسم بداخلهما ذعر حقيقي تسرب بعد لحظة إلى تفاصيل وجهها ثم إلى جسدها لتشعر برعشة تسري في أوصالها، تنتفض كالمحموم وهي تحاول النطق بكلمات مبهمة لكن لسانها يعجز عن الحركة داخل فمها، يخرج صوتها مثل مواء باكٍ لقطة في ظلمة الليل. تدرك جزءًا مما يحدث لها .. إن جسدها يتعرض إلى شيء لم تخبره من قبل وإن كانت قد سمعت عن شيء من أعراضه، إنها الجلطة .. تُحرك يدها في الهواء بصعوبة شديدة .. تشير نحو ولديها، ترغب في أن تحتضنهما مرة أخيرة قبل أن تفارق روحها الجسد، لكنهما لا يدركان طلبها، بل ينتفضان لنجدتها.

يحملها حسن ولا يعلم من أين أتته القوة على حملها، وكأنها طفلة صغيرة، رغم ثقل وزنها، وفي نفس اللحظة يشير إلى زين برأسه متحدثًا بكلمات من القوة أن تخشب زين مكانه، لا يتحرك حتى يضع حسن أمه فوق الكنبة بهدوء ويلتفت ليجد شقيقه متصلبًا مثل تمثال، فيصرخ فيه ثانية:

– بسرعة أحضر الدكتور ماهر .. وأخبره أنها انفعلت بشدة.

Scanned by CamScanner

يهرول زين خارجًا حتى إنه يتعثر في طرف جلبابه، يرفع طرفها لتبدو ساقاه الرفيعتان مشعرتين سوداوين يدق بهما الأرض كأنهما مطرقتين حادتين، تخيل للحظة أن قدميه سوف تغوصان في الأرض، بينما جسده من السرعة يوشك ألا يمس الأرض، يكاد يطير. سوف يأتي بالدكتور ماهر في لمح البصر وإن حمله على عنقه وهرول به.

يُسرع حسن إلى درج يعلم أنه يحتوي على أصناف مختلفة من الأدوية، يبحث بينها بعصبية حتى إن بعضها يسقط أرضًا، حتى يعثر على ما يريد .. حبوب الأسبرين .. يحملها مسرعًا مع كوب الماء، يضع ثلاث حبات في فم أمه قبل أن يرفعها من ظهرها بيده اليمنى بينما اليسرى ترفع كوبًا الماء إلى فمها، يعود بالجسد إلى الكنبة مرة ثانية، يضع الكوب جانبًا بلا تركيز فيسقط أرضًا بما فيه من ماء ولكنه لا يتهشم، يضغط صدرها في محاولة لتنشيط الدورة الدموية، يدلك أطرافها، اليد والقدم .. يدلك مؤخرة رقبتها .. يحدثها كي لا يتركها تذهب .. يجب أن تظل منتبهة .. تخرج الكلمات سريعة:

– يا أمي أنا اليوم هنا لانقاذ زين .. نعم هناك جريمة قتل يتم تدبيرها لكن أراد الله أن يكشف أمامي الأسرار قبل أن تحدث الكارثة وقد جئت كي أتحدث معكِ لندبر الأمر .. فوجدته على ما كان عليه .. وكأن الله أرسلني

Scanned by CamScanner

مبكرًا لمنع جريمة كانت سوف تحدث أولًا قبل الأخرى التي علمت تفاصيلها.

يبدو أن كلمات الابن قد تسللت إلى قلب الأم فعاد ينتفض، فتحت عينيها بصعوبة، كانت جفونها مثل صخرتين ثقيلتين يصعب زحزحتها، لم تكن تعلم أنها ما تزال تصدر أنينًا مؤلمًا، عيناها تحثّان حسن على الاستمرار في كلماته، يبتسم لها مشجعًا، يحتضن كفة يدها اليسرى إلى صدره وما زال يدلكها، يقول:

– سوف أنقذ أخي .. لا تخافي .. ولو أن الله يريد لنا السوء ما كُشِف أمامي الأمر ..

تحرك عينيها مستفسرة أكثر .. فيخبرها ..

على غير عادة حسن في ذلك الوقت من الليل أن يشعر بضيق رهيب يتملكه، يثور بسبب أي شيء، لقد انتهى يوم عمله والأحاديث المتناثرة مع الأصدقاء أو الجيران، يستقر أمام التلفزيون متابعًا فضائيات الأفلام الأجنبية، كانت هذه سهرته اليومية المعتادة، إلى جواره زوجته وأطفاله ومعهم المسليات أو المشروبات.

Scanned by CamScanner

بعد شعوره بتلك الحالة من الاختناق يقرر الخروج من المنزل، ولأن منزله على حافة القرية، ولأنه قريب من الساقية المهجورة المسكونة بالغولة وأولادها فقط، ولأن الوقت متأخر حاولت زوجته أن تمنعه من الخروج لكنه ثار في وجهها فتكوَّمت في جانب وهي تضم أطفالها إلى جنبيها مثل بطة تفرد جناحيها على أفراخها.

يسير حسن بلا إدراك .. حتى إنه لم يسمع تحية المساء التي ألقاها عليه بعض معارفه وهو يسير في الشارع مثل المجذوب. تأخذه قدماه من شارع إلى آخر .. يشاهد بعين خياله فتاة عشرينية جميلة ترتدي ملابس حريرية بيضاء وشعرها مسدل على كتفيها تسير أمامه، وبين لحظة و أخرى تقف مُلْتَفِتَةً تستدعيه بنظراتها بأن يتبعها، تعبيرات وجهه كانت انعكاسًا لرغباتها ما بين استجابة ودهشة وإعجاب .. لم يستمع لهمس اثنين من المارة حينما ألقوا عليه بالسلام، ولمَّا لم يُجِبْ توقفا يتتبعان حركته في دهشة قبل أن يهمسوا بأن حسن «ندهته النداهة» .. ليس بمستغرب على حفيد الجندي شرموخ .. ثم يرحلان وهما يحوقلان.

حين ترحل الحسناء بملابسها الحريرية البيضاء الشفافة، يفيق حسن فيجد نفسه جالسًا على الأرض في وضع القرفصاء، مرتكنًا بظهره إلى جدار

Scanned by CamScanner

منزل قديم .. يلتفت حوله يمنة ويسرة حتى يدرك المكان رغم ظلمة الليل التي تغطي المكان، فلم يكن أحدهم يمتلك رفاهية إنارة لمبة واحدة للطريق، لكن بعض الأشعة المتسربة من بعض النوافذ الزجاجية كشفت جزءًا من ظلمة المكان .. إنه الآن يجلس بجوار منزل حسين شعلان، نسيب أخيه زين، يرتكن إلى جداره، بالتحديد أسفل نافذة خشبية مغلقة لكنها لا تمنع تسرب صوت حسين شعلان وهو يتحدث إلى زوجته:

- كلها ساعة ويحصل زين على مفتاح المنزل القديم من أمه .. يدخله ويأتينا بكنوز جده الجندي شرموخ.

بدا كأنه يتحدث إلى شخص يجلس في مكان بعيد عنه بعض الشيء، فكان صوته مرتفعًا ويوحي إلى أنه كان يرفع رأسه إلى أعلى قليلًا، وهذا حقيقي .. فقد انتهى حسين شعلان من احتفاله باقتراب تحقيق أحلامه، وكان الاحتفال عبارة عن لقاء جسدي بزوجته، لكنه اليوم مختلف، فقد كان بطعم الشباب .. تم الجماع بأساليب البدايات، فنهرته زوجته أكثر من مرة وهي تتألم في غنجٍ وتضمُّه أكثر وأكثر.

الآن هي عائدة من المطبخ حاملة معها صينية عليها بعض المأكولات والعصائر، لقد شعرت بالجوع بعد هذا المجهود الذي بذلته، حسين يتناول

منها الصينية وأكل بشهية شاب فَرِح وتجرع العصير، فعاجلته زوجته بسؤال قالته بصوت مرتفع وهي تسحب دورق العصير من يده قبل أن يقضي عليه، فقد انتظرت أن يناولها إياه لكنه كان مأخوذًا بأفكاره فكان يتناول العصير بشكل لا إرادي .. أخذت العصير ورفعته إلى فمها مباشرة تعبُّ منه لترتوي .. كانت تشعر بظمأ شديد .. شعرت به يسري في جسدها فينعشها .. وكان سؤالها:

– هل سينجح في الدخول إلى غرفة جده؟

– تقصدين الأرواح الحارسة لبابها؟

– نعم.

– لقد أسقيناه تعويذة مسيحة الأعرج .."يتنهد شاخصًا ببصره إلى فضاء الغرفة" سوف يأتي زين بالمطلوب و نحقق أحلامنا ..

– وزين؟!

– لقد اتفقنا من قبل .. سوف نتخلص منه .. وأنا دبرت الأمر كله.

– أخاف من أم زين .. قد ترفض ذهابه إلى منزل جده .. أقله .. تخفي عنه المفتاح.

Scanned by CamScanner

يضحك حسين شعلان حتى يسعل .. يداعب صدرها فترتد إلى الخلف .. تتأمله متعجبة .. لقد كان رائق المزاج بشكل كبير، ولِمَ لا وقد أوشك على الحصول على كتب السحر الأسود الخاصة بالجندي شرموخ وسوف يستخدمها مباشرة لتحقيق أحلامه .. وفي الثراء راحة كما في الفقر هَمٌّ .. يضمها إلى صدره فتطاوعه، يقول:

- زين الآن غير موجود .. لقد تلبَّسته الجانُّ بعد تلك التعويذة التي شرب ماءها .. عقله غائب .. ينفذ المطلوب وإن اعترضته أمه .. فهناك وسائل أخرى يتعامل معها بها وإن لزم الأمر استخدام القوة سوف يستخدمها وإن قتلها.

هنا ينتفض حسن، يشهق .. يتأمل المكان حوله .. ماذا يحدث؟! لا يشعر بنفسه إلا وقد أطلق ساقيه للريح متخذًا أقصر الطرق إلى منزل عائلته كي يلحق بزين قبل حدوث الكارثة.

- وما بقي تعرفينه يا أمي.

يصمت حسن وما يزال يدلك كف أمه وعينه تنتقل بينها و ين الباب في انتظار زين والدكتور ماهر. التفاصيل كانت سريعة ومتلاحقة بشكل لم يترك له فرصة التفكير في تلك الجميلة ذات الشعر المسدل والرداء الحريري

Scanned by CamScanner

الأبيض الشفاف الذي استدعته خلفها حتى تركته أسفل نافذة حسين شعلان، توجيه حقيقي من كائن خفي يريد أن يُطلعه على ما يتم الترتيب له، فتاة جميلة أتته كي ينقذ أمه و ينقذ أخيه .. مَن هي؟ ولماذا أتته على هذه الصورة التي قاربت الحقيقة قبل أن يدرك أنها طيف؟! يهز رأسه بشدة ليعود إلى المكان .. لتكن أي شيء.. نداهة .. ملاكًا .. شيطانة .. أي شيء .. الآن فقط عليه أن يفكر فيما يتم تدبيره .. ما سوف يقضي على أحب الناس إليه .. ومَن يعلم .. فقد يكون هو المطلوب مستقبلًا أو أحد أطفاله.

الأم نفسها كانت تدرك جزءًا مما يفكر فيه بحدسها منذ أن صمم زين على الارتباط بشيماء ابنة حسين شعلان، قالت في نفسها أكثر من مرة إن أسرة مثل هذه لا يُستبعد عنها أن تلجأ لأعمال السحر الأسود كي تُوقع بابنها في أحبالهم، اليوم يَصْدُق حدسها، تحمد الله في قلبها أن الأمر وصل إلى هذا الحد وأن الضرر لحق بها هي بدلًا من ابنها زين.

زين كان يهرول في طريقه إلى منزل الدكتور ماهر، ها هو يقترب من المنزل، يتنفس بصعوبة و صدره يعلو ويهبط بشكل كبير وأنفاسه متسارعة كأنها لشخص في سباق، هواء الليل أعاد إليه بعض من تركيزه، لا مارة في هذا التوقيت، اعتادت نزلة شرموخ السكون مع هبوط الليل، يخشون الحركة

Scanned by CamScanner

ليلًا، وكأنهم يرغبون في إكمال الصورة القاتمة اعتادوا جعل الطرقات مظلمة، لا قنديل واحد يبدد ظلمة الليل، حتى السماء تضن عليهم بأشعتها الليلية عن نجم أو قمر، منزل الدكتور ماهر في زقاق صغير يتلوى من مؤخرة ساحة الجامع القديم، الآن يمر زين عبر تلك الساحة، منذ زمن وكان طفلًا، كان يلعب هنا مع أقرانه في ليالي رمضان، فلا شياطين ولا جان في رمضان، يُكبلون بالسلاسل. بعد أن ينتهي المصلون من صلاة العشاء والتراويح في الجامع القديم، يغلق خادم المسجد الأبواب ويترك لمبة وحيدة أعلى الباب الكبير للمسجد لتنير الساحة، يجتمع الأطفال ويلعبون «القطة العمياء» و«الاستغماية».

يتذكر زين وهو يجرى مسرعًا بأنه كان بارعًا في لعبة الاستغماية نظرًا لسرعته وقُدرته على الروغان من خصمه، يسهرون لا يملون ولا يكلون اللعب حتى يأتي العم «عبد المعطي» المسحراتي على حماره النحيل، رجل سبعيني نشف عوده وتلاشى جسده حتى أصبح مثل رسم بالقلم الرصاص على لوحة، تجاعيد وجهه غائرة لا يشاهدها إلا المتأمل، فقد طغى سواد بشرته على تلك الحفر والتعاريج، يتكوم العم عبدالمعطي فوق حماره وقد تغطًى بالكثير من قطع الثياب البالية، لا يبدو بوضوح غير وجهه وكفيه،

Scanned by CamScanner

يضع أمامه، على ظهر حماره، طبلة كبيرة مربوطة بحبل فَتَلَهُ من القطن كي يكون رحيمًا على رقبته التي يعلق فيها حبل الطبلة، يضم ساقيه بقوة على بطن الحمار كي يحفظ توازنه، في يديه قطعتا خشب طولهما أربعون سنتميترًا تقريبًا، يلف على طرفيهما سيور من القماش في حجم قبضة يد طفل، يستخدم قطعتي الخشب في دق الطبلة .. كان لدقاته صدًى عظيم، فقد شدَّ طبلته ذات الروحين على النار قبل خروجه من منزله، طقس شد الطبلة على النار كل يوم قبيل خروجه كان من الأمور المحببة إلى الأطفال لكن العم عبد المعطي، صاحب السبعين عامًا الذي لم يجد الابتسام طريق وجهه، كان يرفض أن يحضر الأطفال طقس شد الطبلة، عدد قليل جدًّا من صفوة أقاربه كان هو المحظوظ بالحضور، يتركوننا في ساحة الجامع نلعب ويهرولون إلى بيت عم عبد المعطي المسحراتي لمساعدته في إشعال النار وحمل الطبلة العظيمة وتعريضها للنار على ارتفاع محدد يشرف عليه العم بمنتهى التركيز والحذر، فإن ابتعدت عن النار لن يُشدَّ جلدها كما يرغب وإن اقتربت احترق في لمح البصر، يعرضونها قليلًا ثم يضعونها أمامه فيتحسسها براحة يده اليمنى كمن يتحسس بشرة معشوقة تسكن حنايا قلبه. يمر بنا العم عبد المعطي يدق طبلته بقطعتي الخشب، وهذا قبل أن يكون نداء للأهالي بالاستيقاظ للسحور، فهو إعلان بانتهاء ألعابنا وعودتنا إلى بيوتنا، كان للعم عبد المعطي

Scanned by CamScanner

خطٌّ سيرٍ لا يحيد عنه استمر منذ وعينا وأدركنا وحتى مماته، وفي خط سيره بعد ساحة الجامع يأخذ الشارع الجنوبي الذي يمر على « الزِّقة » وهي حارة تضم عدة بيوت قديمة وتعدُّ من أقدم الأماكن في القرية، بعدها يتخذ طريقه ناحية بيتنا، كنا نسير خلفه ونقلد الألحان التي ينفذها على طبلته باستخدام أكفنا، نصفق على نفس نغمته، وإذا ما نادى فلانًا أو علانًا نادينا معه، تغلب أصواتنا الضحكات والمشاكسات، فكان ينهرنا بشدة كي نصمت أو نعود من خلفه .. كنا نزداد إصرارًا وصخبًا .. حتى يأتي يوم، وأصبحت عادة بعد ذلك، أن حمل العم عبد المعطي في حجره على ظهر الحمار قطع من الطوب والحصى والزلط ليقذفنا بها كي يفرقنا أو ننفض من حوله، لكن ضحكاتنا زادت وصخبنا أضحى أكثر ظهورًا، فقد كانت خطوة مثيرة اتخذنا منها لعبة وتسلية، قدرنا المسافة التي يستطيع أن تصل إليها مقذوفاته .. رسمنا خطًّا وهميًّا على حدود المسافة .. ومن بعد المسافة نحن في أمان من قطع الطوب والزلط .. نمارس كل تفاصيل السهرة اليومية حتى ينقضي رمضان. تعود بعدها نزلة شرموخ إلى صمتها الرهيب مع حلول الظلام كما هي الآن، ولِمَ لا وقد أُطلقت الشياطين من سلاسلها؟

يصل إلى منزل الدكتور ماهر يدقُّ بابه بهدوء في البداية ثم متعجلًا، يظهر الطبيب من فتحة صغيرة مستفسرًا غير غاضب .. يخبره زين بما حدث، يُهدئه

الرجل بكلمات سريعة .. لا خطر على الأم ما دمنا في بداية الأزمة .. الخطر كله إن مرت ساعات ست .. يطلب منه الدخول حتى يستبدل ثيابه ويحمل أدواته، لكنه يعتذر .. سوف ينتظر أمام البيت.

يستيقظ زين .. وكأن اليقظة الماضية كانت داخل حلم ثم ها هو الآن يستيقظ ثانية! ترى هل هناك يقظات أخرى؟! يتساءل متعجبًا مما كان يمر به وما يزال .. ماذا حدث وكيف؟! حتى منذ لحظات وهو يمر بساحة الجامع القديم يتذكر تفاصيل من مرحلة الطفولة في وقت يجب أن يكون فيه تفكيره منصبًّا على أمه التي سقطت منذ دقائق، كيف ينطلق العقل في بحر الذاكرة مستدعيًا أحداثًا تغطي على فظاعة ما يحدث؟! قد يكون ذلك نوع من الهروب .. أو قد يكون رحمة لئلا نسقط ضحية آلام اللحظة؟

هناك أسئلة أخرى تحتاج إلى إجابات واضحة، يتحدث زين إلى نفسه بصوتٍ واهن، ماذا كان سيفعل بأمه؟ ولماذا طوقه أخوه حسن من الخلف هكذا؟ ماذا حدث منذ أن كان في بيت نسيبه حسين شعلان؟ آخر ما تذكَّره أنه تناول طعام العشاء ثم احتسى العصير وهو جالس بينهم .. لا شيء يتذكره بعد ذلك .. لكن يبدو أن هناك كارثة ما يتم تدبيرها وقد حدث جزءٌ منها.

Scanned by CamScanner

(٢٥)

«هايدي»

تنصت هايدي باهتمام بالغ إلى أختها كَرمة وهي تسرد ما توصلت إليه بعد حديث والدها، كان معظم حديثها منصبًّا على تلك المعلومات الجديدة، التي كانت من قبل مبهمة، حول أفراد العائلة، كانت هايدي تعلم، كما تعلم كرمة، أن لوالدهما أخًا وأختًا .. لا تفاصيل .. لا أسماء .. لم يتطرق والدهما سعيد الجندي أو حتى والدتهما إلى حديث يحمل تفاصيل أخرى.

اليوم تحكي كرمة أن لهما ابن عم يُدعى جمال .. تمامًا كما ظهر في نومهم من قبل، ولو أن اسم ابن العم كان مختلفًا لبدا الأمر طبيعيًّا، لكن أن يتطابق الاسم في ظروف كتلك .. فهو أمر يثير الرعب بداخل هايدي الآن حتى إنها تأملت شقيقتها بفزع، تودُّ لو تعيد على أسماعها الكلمات مرة أخرى، تود لو

Scanned by CamScanner

تقسم لها بأغلظ قسمٍ يصل إليه عقلها، تودُّ لو تمسك برأسها لتهزه بعنف كي تفيق من ذهولها؛ فهي لا تعلم إن كانت تعيش حلمًا أم واقعًا.

تناديها كرمة أكثر من مرة كي تخرجها من شرودها، بل من ذهولها، تقول كرمة بهدوء مَن أيقن بقرب الهلاك:

– يبدو أننا مجبرون على المرور بهذه الأحداث يا أختي.

تأملتها هايدي وقلبها ينتفض وهي تتذكر أدق التفاصيل التي استمعت إليها من كرمة، حول جَدٍّ يتحالف مع الشيطان وفتاة جميلة تتزوج بعمها بعد أن تُغيب عبر السحر الأسود، والجد يموت غريقًا في غرفته ذات الأقفال السبعة، والجدة يطير جسدها متخبطًا في حوائط الغرفة قبل أن تموت جاحظة العينين، مشعثة الشعر الأبيض الخشن، تسيل الدماء من أنفها .. وعمٌّ يُقتل ويُعثر على أشلاء جثته في طرقات المقابر.

– أي أحداث مرت بها هذه العائلة؟!

تهمس هايدي بهذه الكلمات، ولا تعلم هي نفسها إن كان سؤالًا، أم هي جملة تعجبية، لكن كرمة تتلقى الكلمات وبداخلها تشتعل نيران أخرى، تمد يدها لتحتوي راحة أختها ثم تجذبها نحوها بهدوء لتضمها إلى صدرها، تربت

Scanned by CamScanner

على ظهرها بحنان أم .. بعد لحظات تدفعها إلى الخلف بهدوء شديد حتى تتلاقى أعينهم، بنبرة حاولت أن تتماسك لكن الكلمات خرجت مشروخة قالت كرمة:

– ما مَرَّ .. قد مَرَّ و انتهى يا أختي .. مصيبتنا فيما هو آتٍ.. ما علينا مواجهته يا هايدي.

كانت هايدي تعلم أن القادم صعب لكن عقلها لم يتوغل في تخيل أحداثه، الآن كرمة تؤكد لها أن الغد سيكون شيئًا رهيبًا وعليهم مواجهته، تسألها هايدي وقد بدا عليها أنها استسلمت تمامًا للقادم من الأحداث مهما تكن:

– لا مفر من المواجهة؟!

– حقيقي يا هايدي .. لقد هرب مصطفى الجندي بزوجته إلهام وابنهما جمال .. ولحقته اللعنة حتى قُتل في مدينته البعيدة.

فجأة تفتح النافذة بعنف وتطير الستارة الشفافة حتى تلتصق بالسقف، يندفع الهواء عنيفًا من النافذة محدثًا صوتًا مفزعًا، تتطاير أوراق وتتسارع صفحات كتب في حركتها و ترتفع ملاءة السرير و كأنها تُفسح الطريق لشيءٍ ما كي يتوارى أسفله، يصفق باب الحجرة الموارب بشدة، تصرخ هايدي

Scanned by CamScanner

وهي تُلقي بجسدها على صدر كرمة، كرمة التي انتفض داخلها وهي تشعر بحرارة رهيبة تخترق جسدها، بسرعة يعمل عقلها، تُبعد هايدي برفق ثم تُسرع لتغلق النافذة، كان الهواء يندفع بشدة حتى إنها وجدت مقاومة من الشباك وكأن هناك مَن يدفعه ضدها، وكلما ضمت ضلفتيه زادت المقاومة وعلا صفير الهواء بسبب اندفاعه الشديد عبر الفتحة الضيقة، أخيرًا تنجح كرمة في غلق النافذة ثم تسند ظهرها عليها، تنظر نحو أختها محاولة رسم ابتسامة على وجهها كي تطمئنها بأن الأمور طبيعية ولا شيء يستدعي خوفها، قبل أن تتحرك لتجلس مكانها مرة أخرى إلى جوار هايدي فوق حافة السرير يُفتح باب الحجرة فجأة مع صوت مفزوع يسأل:

- ماذا يا بنات؟!

كانت أمهما التي كانت تتحرك بصعوبة خارجة من حجرتها في طريقها إلى الحمام، سمعت فجأة صوت خبط مع صرخة من هايدي، على قدر ما تملك من قوة أتت مسرعة لتسأل، تصل في هذه اللحظة وهي تعاني آلام العظام وما شاهدته من أحداث مرعبة خلال الأيام الماضية والجرح الذي ما يزال يؤلمها في رأسها، وتعاني فوق ما سبق آلام الرعب المتولِّد عن استقبال صرخة من ابنتها.

Scanned by CamScanner

في أوقات .. أوقات صعبة .. يمر بها الفرد .. يتحول جسده ومشاعره إلى شيءٍ لَيِّنٍ طيِّعٍ في يد تفاصيل هذه الأحداث .. فإن كانت مبهجة تراه سعيدًا يضحك على أي موقف .. أما إن كانت مفزعة فتراه ينتفض من أي شيء، يرتعد من قطة تموء أو من كلب أسود يمر .. بل يفزع إن وقعت عيناه على ظله الأسود فجأة .. يصرخ أن فُتِحت نافذة الغرفة بشكل مفاجئ كما حدث لهذه الأسرة المنكوبة منذ لحظات.

تجذب كرمها أمها وتُجلسها فوق السرير، تسحب الغطاء عليها، تندس هايدي بسرعة إلى جوار أمها وتدفن وجهها بين ثناياها وهي تشهق بصوت مكتوم، تضمها الأم وهي تنصت إلى كرمة التي تحاول تبسيط الأمر مشيرة إلى أن النافذة لم تكن مغلقة بشكل تامٍّ مما جعل هواء العاصفة يدفعها بهذا الشكل العنيف.

تتأملهم الأم وتتأمل النافذة بفزع وهي تسأل كرمة:

- أي عاصفة يا كرمة؟!

- أتت منذ لحظات و ..

تقاطعها أمها بشدة:

- نحن في الصيف يا كرمة .. لا عواصف يا ابنتي.

Scanned by CamScanner

تصمت كرمة وهي تدرك الآن فقط أنهم في شهور الصيف ولا عواصف بالفعل، كيف أنها وهايدي لم تنتبها لهذه الجزئية!

هايدي ترتعد وتدفن وجهها أكثر في ثنايا جسد أمها حتى إنها تشعر بسخونة الهواء أسفل الغطاء الخفيف الذي تغطي به جسدها كله. تمدُّ الأم يدها لتحتوي كرمة إلى جانبها الخالي، تتمدد كرمة إلى جوارها وعقلها شارد فيما حدث منذ لحظات، تنظر ناحية أمها، تحكي لها بالضبط ما حدث كي تبحث معها عن تفسير له، لحظات تضم الأم ابنتيها بشدة وهي تتأمل فراغ الغرفة بفزع.

بعد دقائق كانت شفتاها تتحركان، تنصت كرمة فتجدها تقرأ بلا صوت آيات من القرآن .. تدرك كرمة أن أمها توصلت إلى تفسير وها هي تحاول دفع الأذى بالقرآن الكريم. تنظر في عين أمها مباشرة، تهمس:

- هل .. هل ما حدث هو من صنع الجـ ...؟

ولم تُكمل الكلمة بل التصقت أكثر بجسد أمها وهي تتأمل الفراغ من حولها، لا تجيبها الأم، إنما تضمها أكثر، هايدي ما تزال مختفية أسفل الغطاء، تشعر أمها برعشتها لالتصاق جسديهما، لكن ما لم تعلمه الأم ولا كرمة أن هايدي كانت تبكي بلا صوت، تنهمر دموعها من شدة الرعب وهي تتصور

Scanned by CamScanner

أن في الغرفة .. معهم الآن .. جانٌّ دخل مثل عاصفة كادت تحطم النافذة وتقلب محتويات المكان.

الاستسلام التام قد يريح صاحبه أكثر من محاولات المقاومة، فقد يقاوم الفرد ويواجه الكثير من العقبات ويؤذي جسده بل يمزقه في سبيل الخلاص، لكن في النهاية لا خلاص .. إذن لا داعي لمثل هذه المواجهة المحسومة من قبل لصالح الطرف الأقوى .. تستسلم ليفعل ما سيفعله في النهاية .. في هذا تفكر هايدي.

لكن كرمة على الطرف الآخر كانت تفكر في تفاصيل القرار الذي أخبرت به والدها من قبل وهو السفر إلى نزلة شرموخ، لا يجب أن تنتظر هكذا مكتوفة الأيدي في انتظار ما يقرره طرف شرس همجي لا يفكر إلا في القتل والحرق والدمار بمختلف ألوانه. لم تكن قد أخبرت هايدي بقرارها بعد، كانت في مرحلة سرد التفاصيل من أجل الوصول إلى لحظة إعلان القرار، لكن في لحظة بدت أنها الحاسمة اخترق المكان أرواح مؤكد أنها تضمر شَرًّا ما.

الأم بينهما تقرأ القرآن في همس وما تزال عيناها تجولان في الغرفة وتفاصيل الرعب مغزولة على ملامحها، كانت تخشى على بناتها أكثر من خشيتها على نفسها، تعلم .. نعم تعلم أن الأيام القادمة تحمل الأسوأ .. لكنها لا تعلم

Scanned by CamScanner

كيف سيكون هذا الأسوأ ومع مَن وعلى أي شكل هو؟

تقطع كرمة الصمت الذي يسيطر عليهما وهي تدور في مكانها على السرير كي تواجهها، تسحب الغطاء من فوق رأس هايدي التي تنازعها في خوف، تصر كرمة على كشف وجه هايدي، لا مجال لمثل هذا الذعر الآن:

– الصورة واضحة يا جماعة .. اللعنة اقترب موعدها .. ولابد لها من ضحية ..

– اللعنة تخصهم .. تخصُّ الجندي و ..

تصرخ الأم بهذا فتقاطعها هايدي باكية:

– ونحن مَن يا أمي؟ نحن أحفاد الجندي واللعنة مستمرة منذ أن قُتِل الجد.

– يا كرمة.

تهتف الأم باسم ابنتها وكأنها سوف تتحدث بالكثير ولكنها تتوقف فجأة، فقد شعرت بخواء تامٍّ في عقلها وقوتها، لم تجد كلمة تقولها أو قوة تتحدث بها، تصمت عاجزة حتى عن التنفس .. كانت تسحب الهواء إلى صدرها بصعوبة، تربت كرمة على يدها وتُكمل:

Scanned by CamScanner

- أسرة الجندي كلها هدف لهم .. أسرة ملعونة أبد الدهر.

- والحل؟

أخيرًا نطقت هايدي بهذه الكلمة متسائلة، ابتسمت كرمة لأن هايدي أخيرًا تفاعلت معها، تقول كرمة بلهجة مَن اتخذ القرار ولا مجال للنقاش فيه:

- سوف أسافر صباح الغد إلى نزلة شرموخ.

تشهق الأم .. تتأمل ابنتها في رعب، ولِمَ لا وهي تشاهد ابنتها مقدمة على الانتحار، لكن كرمة لا تدع لها مجالًا للنقاش وتستمر في كلماتها:

- سوف أبحث عن جذور تلك اللعنة .. مؤكد هناك حَلٌّ.

- لن تسافري يا كرمة.

تصرخ أمها فتضمها كرمة إلى صدرها وهي تقترب منها بجسدها حتى تحتوي وجهها في صدرها بينما هي تتأمل أختها المتكورة إلى جوار الأم، تهمس كرمة:

- سوف نسافر .. أنا وهايدي يا أمي.

Scanned by CamScanner

(٢٦)

«إلهام»

السّر ..

كان المشهد من أغرب المشاهد التي لم يتخيلها عقل إلهام ذات يوم، إنها الآن ترتدي البنطلون الجينز الأدكن والبلوزة الوردية بلا كمَّين وشعرها الأصفر منسدل على جانبي وجهها، نظارة شمسية تغطى عينيها اللتين احمرتا من كثرة البكاء وهي تتوسل إلى ابنها طالبة منه ألا يسافر إلى نزلة شرموخ، لكن ها هي تسير إلى جواره متجهين إلى قطار خط الصعيد، تتأمل مباني محطة السكة الحديد، محطة رمسيس بمبانيها الرائعة التي تُلقي في القلوب رهبةً وروعةً، تحمل في يدها حقيبة صغيرة في اللحظة التي يجرُّ فيها جمال حقيبة ذات عجلات تُحدث صريرًا مع حركتها على بلاط المحطة.

Scanned by CamScanner

حينما فشلت إلهام في إقناع جمال للعدول عن فكرة السفر قررت أن ترافقه إلى نزلة شرموخ، إلى آخر مكان في العالم كانت تتخيل أن تذهب إليه ذات يوم بعدما حاولت، بل اقتربت، من محوه من حياتها.

داخل القطار تجلس بجوار النافذة على مقعد وثير في الدرجة الأولى مكيفة الهواء، يجلس في المقعد المواجه لها ابنها جمال يتابع الحركة على الرصيف دقائق حتى يتحرك القطار بهدوء في البداية، مع حركات عجلات القطار التي تتزايد تدريجيًّا كانت دقات قلب جمال تتزايد أيضًا ولم يكن يعلم أن قلب أمه ينتفض في صدرها وكأنهما يقتربان من حتفهما وهما لا يدركان، إنه الإحساس الداخلي بانتظار سيئ سوف يحدث، إنه انقباض القلب والتوجس.

مع مغادرة القطار للمدينة وكانت الدقائق تمر ثقيلة، يطلب جمال مشروبًا مثلجًا له ولأمه، يتناوله على مهل وهو يتابع أمه تمتص العصير مصًّا وقد أمسكت الشفاط بأسنانها.

تتحدث إلهام بأي كلمات قبل أن تدير دفة حديثها إلى ما هما مقبلان عليه، كانت تودُّ أن تخبر جمال بالكثير حتى يدرك بعض المخفي عنه، لكنها لا تستطيع أن تخبره بالحقيقة كاملة، تبدأ بسرد تفاصيل وفاة جَدِّه الجندي

Scanned by CamScanner

فيخبرها جمال بأنه يعلم كيف مات جده غريقًا في ليلة عَمَّ فيها الظلام، تُحرك رأسها بهدوء علامة أنها تعرف أن جمال يعلم ذلك، ثم تقول:

- لكنك لا تعلم ما حدث في الليلة السابقة على ليلة مقتله والتي كانت سببًا في مقتله، ولا أحد آخر يعلم ما حدث في تلك الليلة إلا أنا.

يندهش جمال من كلماتها، يُعلّق:

- كيف لا يعلمها إلا أنتِ يا إلهام؟

- ما لم أخبر به أحدًا إلا أنت يا جمال .. أخبرتُك بأن الجني الموكل بسلب إرادتي وجعلي دُمية في أيدهم قد رقَّ لحالي وأطلعني على بعض أسرارهم.

- نعم .. علمتُ منكِ هذا.

تضع الكوب من يدها على رفْ صغير في جانب القطار، رف يُسحب للأمام ثم يُضغط للخلف فيصير منضدة صغيرة، ومرة أخرى يُسحب للأمام وللأسفل فيختفي في بيت له في جدار القطار، تضع الكوب وتنظر إلى أشجار الطريق التي تسابق الريح في الاتجاه المعاكس، تملأ صدرها بالهواء، تعود بعينيها إلى داخل القطار، الحركة في الدرجة الأولى خفيفة للغاية، عدد الركاب قليل هذا الصباح، مشغول بعضه بصفحات الفيسبوك وبعضه

Scanned by CamScanner

بقراءة الكتب، بينما يغطُّ آخر في نوم عميق، تتأمل المكان لحظات قبل أن تُواجِه جمال وقد اقتربت بنصف جسدها العلوى كي تقترب منه فيقترب هو أيضًا بنصف جسده العلوى بحركة لا إرادية، تخرج منها الكلمات ضعيفة متحشرجة حروفها، تقول:

– لقد كنتُ في هذه الليلة التي سبقت ليلة مقتل جدك أنام في غرفتي .. لطول بقائي في السرير لم أكن أدرك الليل من النهار .. كنتُ أنام أو أستيقظ وفقًا لحاجة جسدي في أي وقت .. عقلي يتحطم وأنا أشاهد جسدي مسلوب الإرادة بدرجة جعلتني أتمنى أن أُمزقه .. وهنا أدركت لماذا يأتي على البعض أوقات ينهش فيها لحمه وقد يأتي بمُدية يُمزق بها أجزاء هذا الجسد وهؤلاء يُوصفون بالجنون طبعًا، أو حتى يتركون الجسد بلا أي عناية حتى يصل إلى درجة التعفُّن، فمن نراهم في الطرقات .. أو ينامون بجوار الزبالة وأجسادهم عارية مغطاة بأسمال وطين، وشعرهم طويل ملطخ بأوحاول قذرة .. هؤلاء نتاج أحداث عظيمة .. لقد مروا في حياتهم بمآسٍ ألقتهم إلى هذا .. جعلتهم يمقتون هذا الجسد مسلوب الإرادة، فكان أن عاملوه بهذا القدر .. عاملوه مثل جيفة.

تصمت لحظة ويبدو أنها تذكرت بعض آلامها .. حتى إن دمعة انحدرت فوق وجنتها ولم ترفع يدها كي تجففها ، يتأملها جمال وهو يتخيل جسدها قد

Scanned by CamScanner

وصل إلى ذلك الوضع الرهيب .. صور المشردين الذين شاهدهم في حياته الماضية أتت أمامه في لحظة واحدة، عقله الباطن اختزنها على مَرِّ السنون كي تبدو الآن دفعة واحدة، لم ينظر لأحدهم من قبل على أن ما هو فيه نتاج أحداث مؤلمة.

ترتشف إلهام جرعة ألم وتضغط بيدها على قلبها كي يهدأ، ترسم ابتسامة على وجهها فظهرت تعبيرات ألم جديدة، عادت إلى استكمال حديثها، أخبرت جمال بأنها ذهبت في ذلك اليوم في نوم خفيف، دقائق قليلة تمرُّ حتى شعرت بنفسها تستيقظ وتترك السرير .. العجيب أنها تركت جسدها فوق السرير، تأملتْ الوضع لحظة، الغرفة بين ضوء وظلام، جسدها ينام فوق السرير بلا غطاء، فقد كانت درجة الحرارة مرتفعة، تتأمل محتويات الغرفة حتى تتوقف أمام المرآة فلا تشاهد فيها غير انعكاس لتفاصيل الغرفة من سرير ودولاب وقطع أثاث متناثرة .. لم تشاهد لنفسها انعكاسًا في المرآة .. ولا انعكاسًا لذلك الكائن الذي يقف إلى جوارها وقد تغيرت ملامحه عما ظهر به من قبل، أخبرها أنه يستدعيها الآن لأن أمر عظيم على وشك الحدوث .. يهمس لها «الجندي يستيقظ الآن على غير عادته، فليس اليوم من أيام خلوته في غرفته الخاصة، سوف تتبعين خطواتي ولا تتقدمي خطوة واحدة مهما يحدث؛ لأني سوف أخفي وجودك عن خدمه من الجان».

- فجأة يا جمال وجدتني كأنني غير موجودة بالفعل .. حتى روحي التي كنت أشعر بها منذ لحظات لم أعد أشعر بها .. فقط أشاهد ما يحدث .. وجدتني في غرفة جدك .. أشاهده في صمت .. ولا أخفيك .. فقد تملكني رعب حقيقي وأنا أنتظر ما قد يحدث .. مؤكد هو أمر عظيم لأنه أثار خدمه من الجن .. فجأة يعمُّ الظلام، فقد انقطعت الكهرباء عن المنزل أو عن القرية كلها لا أعلم .. فقط كان عليَّ أن أشاهد ..

في تلك الليلة التي يغيب فيها القمر وتنقطع الكهرباء عن نزلة شرموخ ويتوارى الإنسان والحيوان خلف جدران تزيد النزلة كآبة، يقرر «الجندي» أن تكون هي الليلة الرهيبة، الليلة التي سوف تُخلد ذكراه أبد الدهر، يبتغي لاسمه الخلود السرمدي، سوف يفعل ما لم يفعله الأوائل، ألم يفعل من قبل أشياء رهيبة؟ بلى .. فعل .. ألم يخشاه كل أرباب السحر الأسود في طول البلاد و عرضها؟ بلى .. يخشونه.

يود «الجندي» تحقيق تلك الخطوة .. مهما تكن التضحيات التي سيقدمها .. والليلة هي خير ليلة للقيام بذلك. بهدوء يتحسس بقدميه حتى ينتعل حذاءه، يترك السرير وزوجته المتكومة فوقه تغط في نوم عميق، لقد أمر أتباعه بألا يتركوها تستيقظ إلا قرب انتصاف النهار، يتأرجح ثوبه الأسود المصنوع

Scanned by CamScanner

من الكتان حول جسده النحيل الذي برته السنوت حتى ظهر الانحناء باديًا أعلى ظهره، يسحب غطاء الرأس الأسود ليغطي به رأسه فلا تبدو غير عينيه تدوران في تلصص مثل عيني ثعلب، يغلق خلفه الباب ويستقر في الصالة لحظات يتابع فيها أبواب الغرف الآخر، أولاده في نومهم وفق ما أمر به، ابنه البكري مصطفى ينهل شهد إلهام للمرة الثانية في هذه الليلة، ولم يكن يدرك أن أباه يعلم كل تفصيلة في حياته مهما تصْغُر، يدخل غرفته الخاصة ويغلق الباب بأقفاله السبعة محدثًا صوتًا مزعجًا لا يهتم به .. لا أحد اليوم يسمع إلا ما يريد هو أن يسمعوه.

على كرسيه الخاص يجلس .. شبح شعاع نحيف يأتي مرتبكًا من قنديل في ركن الغرفة، يتنفس بهدوء وقد اتخذ سيماء الأباطرة .. هو اليوم الأقوى .. لا بد أن يأمر .. ويُطاع.

يبدأ في الهمس لحظات بتعويذة خاصة لم يكن يستخدمها من قبل غير مرة واحدة، إنها تعويذة «خلاباش» أحد ملوك الجان، استطاع الوصول إلى هذه التعويذة بعد بحث وعناء قدم خلاله الكثير، وكانت ليلة ليلاء يوم أن أتاه خلاباش غاضبًا .. ليس بالأمر الهين أن يستدعيه إنسيٌّ من أجل تلك الأمور التافهة التي يتصارع حولها بنو الإنس من طلاق وزواج وسرقة ومرض و غير ذلك الكثير التافه بالنسبة إلى خلاباش.

Scanned by CamScanner

اليوم يستدعيه الجندي لأمر عظيم .. يصل إلى منتصف التعويذة وقد علا صوته وانتفض جسده وسال عرقه حتى إن فُتات لعابه قد فارقَ فمه بلا حساب، يحمر وجهه وتتلوَّن عيناه بلون الدم. يعلو صوته حتى يختلط بنباح الكلاب التي تهرول في الخارج بشكل مفزع. لقد أمر أحد أتباعه من الجان بإثارة الكلاب حتى يعلو نباحها فلا يظهر صوته لأحد جيرانه إن كان مستيقظًا.

بدأ يشعر باقتراب الراحة مع اقتراب نهاية التعويذة في اللحظة التي كاد فيها أن يفقد الوعي، لحظة أخرى تمر وهو يترقب بعين زائغة أن يأتيه «خلاباش» .. يتصاعد الدخان كثيف من ركن الحجرة الأيسر .. يبتسم الجندي في سعادة مثل طفل، فها هو خلاباش سوف يُولد من العدم بعد لحظة واحدة.

يبدأ الدخان في التلاشي عن ذلك الكائن الناري .. تتحرك قطع الأثاث من مكانها وتنتفض الأقفال السبعة محدثة دوِّيًا رهيبًا، الكلاب في الخارج أنهت نباحها وبدأت معزوفة جديدة من العواء، وقد تكوَّمت أجسادها في رعب حقيقي وهي تشاهد بعين لا تملك الإفصاح كائنات نارية تملأ المنطقة حول منزل الجندي.

Scanned by CamScanner

ينقشع الدخان تمامًا ليظهر جنيٌّ آخر غير خلاباش الذي يعرفه الجندي شرموخ عبر صورة جسدها له واحد ممن يسخرهم، تظهر الدهشة على ملامحه، يتذكر تعويذته التي انتهى منها ويتساءل: هل أخطأ في شيء حتى تأتي له بآخر؟! هو متأكد أنه لم يخطئ .. ماذا حدث إذن؟!

الجني الحاضر علم سبب دهشته فأجابه بكلمات قاسية:

- أنا الابن الأكبر لـ خلاباش .. أتيتُ بدلًا منه .. ولتعلم أنه قد غضب غضبًا شديدًا، ولولا تدخلي لأتى وفعل الكثير.

- لكني أريده في أمر عظيم.

- وما هو؟

- لن أخبر أمري إلا له.

يمتعض الكائن الناري و هو يتأمل الغرفة من حول .. ثم يضحك حتى تتزلزل الأرض من تحتهم، يقول في هدوء:

- أمرك عجيب يا رجل .. أُخبرك أن خلاباش لو أتى لكانت طامة كبرى وتُصمم على طلبك .. عمومًا اسمعني جيدًا.

لم يتحدث الجندي بكلمة واحدة، هو الآن يقاوم الارتباك بداخله، لا بد أن يظهر أمام هذا الجني قويًّا كعادته، يرفع رأسه إلى أعلى ويرسم على وجهه ابتسامة ساخرة، يستمع إليه وهو يقول:

Scanned by CamScanner

– أنا هنا بديل عن والدي الغاضب جدًا .. ولولا خوفنا منه وعليه لتركناه يأتيك .. ولا يعلم أحد عاقبة ذلك، فأخبرني بما تريده لأنجزه لك وأعود .. وإن كنا نرى أنه يكفيك ما طوعناه لك من خدم مملكتنا ..

– لا يكفيني.. أو لن يكفيني في تحقيق ما أرغب.

– وماذا ترغب؟

يبتسم الجندي كي يواري داخله المستعر، حلم البشرية المؤجل، بل حلم البشرية المدفون في الأعماق، يتمناه كل حيٍّ ولا يستطيع النطق به، ماذا يحدث هناك؟ لم يعد أحدٌ ممن ماتوا ليخبرنا بما يحدث هناك .. ولن يعود أحد .. حارت البشرية منذ الأزل في التكهن والتخيل .. تضاربت الأفكار وتصارعت المعتقدات، لكن هناك شيء واحد ثابت .. هناك عالم آخر وهناك ما يحدث فيه .. هناك في الأعلى .. يرفع سبابته لأعلى ثم يتبعها بناظريه لحظة قبل أن يعود ليواجه الجني، يقول وقد نطق كلماته بحماسة وكأنه يستخرج حروفها من بين خلاياه، يقول:

– أريد أن تطلعني على ما يحدث هناك .. أن تطلعني على أخبار الملأ الأعلى.

Scanned by CamScanner

تنطلق أهة تحمل أكثر من معنى من فم ذلك الكائن الناري ترتعد لها أوصال الجان الذين يدورون في المكان وفي الخارج فتنتفض الكلاب من نومها لتنبح بشدة وهي تغادر المكان ولو شاهدت ذلك الإنسي الذي استدعى كل هذه الأشباح لمزقته، يتأمل الكائن الناري الجندي مذهولًا، كيف يجرؤ على أن يطلب هذا .. يعلم الجندي أنه سوف يسمع مثل هذا السؤال، لذا أعد إجابته مسبقًا، يقول:

- هذا مطلبي ولن أتنازل عنه وإلا استخدمتُ التعويذة الأخيرة ..

يشهق الكائن الناري ثم يزفر بشدة فتهتز قطع الأثاث القليلة في الغرفة وتتحرك الأقفال السبعة مرة ثانية محدثة دويًا رهيبًا، ترتعد الكلاب في الخارج أكثر وتقف على قوائمها الخلفية في شكل مرعب وهي تنبح نباحها الأخير قبل أن تهرول تاركة المكان. ينظر نحو الجندي بنظرات نارية ويقول مؤكدًا حروف كلماته:

- التعويذة الأخيرة؟! أتريد أن تستخدم التعويذة الأخيرة كي تُعلن الحرب بين قبائل الجان .. وينتهي عهد الأمان بين الجن والإنس؟!

- يتحقق مطلبي فلا تُعلن حروب.

Scanned by CamScanner

– في التعويذة الأخيرة هلاكك يا هذ.

– في كل الأحوال أنا هالك .. فليكن هلاك مع مجدٍ لا يُمحى.

يتحدث الناري بكلمات بدا منها أنه يكبح غضبة هائلة تعتمل بداخله، كان يعلم أن هناك كائنات نارية أخرى من أعدائه وقد سخرهم الجندي تحيط بالمكان، قد تُعلن الحرب في لحظة واحدة قبل أن يرتد إليه طرفه، يقول:

– طلبتَ كل شيء فأعطيناك .. كنتَ ترى وتسمع ما يحدث في قريتك وفي أقصى الأرض وأنت في مكانك، وإن طلبتَ أن يوَرث ذلك لأولادك وأحفادك من بعدهم لجندنا لك من أتباعنا ما شئت .. ماذا تريد من شيء كهذا؟!

لم يتمالك الابن الأكبر لخلاباش نفسه في نهاية كلامه، ينفعل بشدة ويرفع يده ليهوي بها فوق أقرب شيء إلى جواره فيخرج من يده ما يشبه السيف الناري يصنع شقًّا في الجدار وجزءًا من سقف الحجرة، تسقط زجاجة تحتوي على سائل أحمر من فوق منضدة قريبة فتتهشم، يستقر فتاتها على أرض الحجرة، يعكس لهب القنديل.

يتماسك الجندي مستدعيًا كل خبراته السابقة في التعامل مع الجان، ينتقل إلى مرحلة التهديد حينما يرسم على وجهه ابتسامة أكثر سخرية، ثم

Scanned by CamScanner

ملامح كلها قسوة وشراسة، يهمهم بكلمات مبهمة وهو ينظر بطرف عينه ناحية الكائن الناري الذي يفهم أن الإنسي يبدأ في قراءة التعويذة الأخيرة. هل يذهب بخبره هذا إلى خلاباش ولكن هذا الرجل قد يُتم تعويذته قبل أن يعلم خلاباش ويتخذ ما يتطلبه الأمر من حيطة. عليه أن يتصرف الآن لوقف ما قد يحدث من دمار حقيقي.. يرفع يده مستسلمًا .. يقول في هدوء:

– سوف أحقق لك مطلبك.

– أنت؟!

يتساءل الجندي وداخله يرقص طربًا من نشوة الانتصار، يجيبه الناري بحركة مباغتة، يُمسك به من رقبته حتى يشحب وجهه:

– نعم أنا أيها المدنس .. يا شيطان الإنس .. سوف أذهب الآن لأسترق لك السمع .. لكن لا بد من تغيير تامٍّ في أصول التعامل بيننا.

– أي شيءٍ تطلبه أُحقِّقُه لك إن حققتَ مطلبي.

– من الآن .. إن أنا عدتُ أو اتبعني شهاب فأهلكني .. أنت وكل أهل بيتك حتى الجيل السابع تلتزمون بعهد الولاء.

يشهق الجندي .. يردد في همس «عهد الولاء» .. يفكر في زوجته .. أولاده .. زوجات أولاده .. أحفاده حتى الجيل السابع .. يلتزمون بعهد الولاء ..

Scanned by CamScanner

عبيدٌ لبني الجن .. يباغته الناري وهو يقذف به بعيدًا، لكنه يطير في الهواء ثم يعود إلى مكانه مرة أخرى في هدوء جعله يبتسم في سعادة، فقد تلقفته كائنات غير مرئية ثم حملته وأعادته إلى مكانه، يتحدث الناري:

– نعم .. حتى الجيل السابع .. عبيدٌ لبني الجن مقابل تنفيذ مطلبك هذا.

– موافق.

في لمح البصر يتلاشى الكائن الناري تاركًا مكانه دخان يتراقص، يتنفس الجندي بهدوء مغالبًا سعادته بقرب تحقيق أمنيته وإن كانت الأخيرة.

بعد دقائق يعود إليه بما يريد، يعلم أنه قد لا يعود، لكنه ابن خلاباش ومعه الكثير من الخدم، يعلم أنه لن يعدم الحيلة في تحقيق المطلب والعودة سالمًا، ليضحي بالكثير من خدمه حتى يتحقق المطلوب.

دقائق تمر ثقيلة على الجندي حتى يسمع هسيسًا قبل أن يظهر الدخان في طرف الحجرة ليولد من رحمه الكائن الناري .. على ملامحة عبوس شديد .. يخبره بأنه لم يستطع الوصول فما إن اقترب هو وخدمه حتى تبعتهم الشهب من كل صوب، حُرِق منهم مَن حُرق وهرب هو ومَن تبقَّى . لكنه عرج في طريق

Scanned by CamScanner

عودته إلى والده وكبير مملكتهم «خلاباش» وأخبره بكل ما حدث، فطلب منه أن يخبر الجندي بأنه سوف يأتي في الغد كي يقدم إليه ما لم يحلم به من قبل.

أخبره الكائن الناري بذلك ولم يترك له فرصة التعقيب، فقد تلاشى من المكان في جزء من الثانية تاركًا الجندي يتأرجح بين سعادة وترقُّب، فها هو يقترب من تسخير خلاباش قائد أكبر قبائل الجان، ولكنه يخشى ألا يفلح في تحقيق المطلوب، لا يوجد أمام الجندي غير الانتظار حتى الغد.

تهزُّ إلهام رأسها وكأنها تفيق من حلم .. كانت تحكي لجمال ما شاهدته في تلك الليلة وقد أُخِذَت تمامًا حتى إنها لم تلحظ ردود أفعال جمال التي كانت تظهر على ملامحه عبر شهقات أو كلمات مبهمة .. تنظر إليه فتجده مأخوذًا مما سمع .. يقوم بتركيب الأحداث وكأنه يُعيد ترتيب قطع البازل كي تكتمل الصورة.

في اليوم التالي يأتي «خلاباش» في ظاهر الأمر لتحقيق مطلب الجد وهو الحصول على أخبار الملأ الأعلى، أما في باطنه فقد حضر حاملًا كراهية لا حد لها وبغضًا ناريًّا لن يُهدئ من اشتعاله غير القتل.

يموت الجد هذه الموتة الغريبة التي عَلِمَها جمال منذ زمن، لا يعلم أحد التفاصيل الحقيقية لهذا اليوم إلا أمه، وها هي تخبره بها .. تخبره هو فقط .. تخبره بعد عشرين عامًا!

Scanned by CamScanner

بعد دقائق من الصمت يتأمل كل منهم الآخر ولا يراه .. تظهر في الصورة التي يحاول جمال ترتيب قطعها صورة الجدة التي ماتت بشكل غريب بعد الجد بفترة قصيرة .. ولو كانت قد ماتت بفعل اللعنة .. فهي لعنة عشرية .. كل عشر سنوات .. يبدأ العدُّ من يوم مقتل الجد ثم ولده مصطفى الجندي بعد سنوات عشر والآن هناك شخص من تلك العائلة سوف يُقتل خلال هذه الأيام.

– كيف ماتت الجدة قبل أن تمر الأعوام العشرة ومَن سيكون القتيل التالي؟ وهل يُنفذ «عهد الولاء» الولاء الذي يجعل من أسرة الجندي حتى الجيل السابع عبيد لبنى الجن؟!

يسأل جمال أمه.

تتأمله بفزع .. تجيبه هامسة:

– حينما قُتل الجندي وحلت اللعنة تراجع ابن خلاباش عن مطلبه بعهد الولاء.

لكنها لم تكن تمتلك إجابة لباقي الأسئلة فصمتت وعلى ملامحها علامات خوف جعلت وجهها يحاكي الموتى.

Scanned by CamScanner

(٢٧)

«زين»

تمر ساعة ينتهي خلالها الدكتور ماهر من عمل اللازم لإنقاذ والدة زين من بدايات جلطة كادت تُنهي حياتها، مسيلات الدم من الهيبارين والكلكسان مع الفيتامينات .. ينصح حسن وزين بتغيير الأجواء التي أدت إلى انفعالها فورًا مهما يكن، فحياتها معلقة بتعديل الأوضاع.

خلال ساعة يتابع فيها الطبيب حالة الأم، يختلس حسن النظر نحو شقيقه زين ثم تسقط نظراته نحو الأرض، يبدو أنه يفكر في شيء ما، لم يلحظ زين نظرات أخيه التي تحمل معنى إلا بعد أن تكررت عدة مرات، لكنه لم يكن يمتلك القدرة على السؤال، بالإضافة إلى وجود الطبيب معهم في الحجرة مما شكل عائقًا يمنعه من هذا الحديث.

Scanned by CamScanner

يغادرهم الطبيب بعد الاطمئنان على استقرار حالة الأم، يهم زين بمرافقته حتى الباب لكن حسن يستوقفه بإشارة منه ويتقدم هو الطبيب حتى الباب ولسانه يُمهمهم بكلمات الشكر، يستخرج من حافظة نقوده ورقة مالية يدسها في يد الطبيب وهو يصافحه لحظة خروجه من الباب، كان يجهز جملة ليقنعها بها إن هو رفض تقاضي المبلغ المالي.

يتوقَّعُ حوارًا من قبيل:

يقول الطبيب:

- ما فعلتُ غير الواجب ولا داعي لذلك فنحن أهل..

وهنا يصمم حسن ويقول:

- يكفي أنك وصلت في التوقيت المناسب وإنقاذ أمي.

لكن ما حدث كان غير ذلك تمامًا، فقد تأمل الدكتور الورقة المالية التي دسَّها حسن في يده فإذا هي ورقة مالية كبيرة، لكنه يمط شفتيه ويتصنع الدهشة بشكل كبير وهو يُعقِّب بكلمات خرجت حروفها لزجة، الطبيب يسخر من ضآلة المبلغ الذي لا يعادل نصف أجر كشف خارجي ويتبقى ثمن الأدوية التي استخدمها في إنقاذ المريضة، ينتهي بأن يطلب خمسة أضعاف المبلغ وهو بذلك قد يكون أكرمهم لجيرتهم.

Scanned by CamScanner

يعود حسن إلى الداخل وعلى وجهه علامات الاستياء، كان ينقصه جشع الطبيب، يتوجه كليةً إلى زين، يشير إليه أن يسبقه إلى خارج الحجرة، يتوجه هو نحو والدته وقد رسم على وجهه ابتسامة ويطمئنها بأن الأزمة قد مرت بأمانٍ وما عليها إلا أن تنام بعض الوقت لتسترد عافيتها، يخبرها بأنه سوف يذهب إلى زين كي يساعده في تجهيز وجبة تأكلها بعد صحوها من نومها.

في الصالة يسأل زين عن تفاصيل ما يحدث، لم يخبره بما سمعه في منزل حسين شعلان، لأن السؤال البديهي سيكون: كيف عَلِمَ بذلك؟ ولن يخبره حسن بأنه وصل إلى هناك بشكل لا إرادي خلف فتاة جميلة تركته مسلوب الإرادة أسفل نافذة حسين شعلان وأنه عندما أفاق سمع تفاصيل الكارثة التي يدبرونها، الكارثة التي تحمل في طياتها قتل زين.

يخبره زين بأنه ما فعل أي شيء يستدعي أن تصل أمهما إلى هذه الدرجة من الانفعال ثم السقوط، كل ما في الأمر أنه طلب منها مفتاح المنزل القديم، ولمَّا رفضت قرر أنه سوف يدخل المنزل بأي شكل ولو وصل الأمر لأن يكسر الباب.

– ولماذا تريد الدخول إلى المنزل المهجور وكل أهالي نزلة شرموخ يعلمون أنه منزل ملعون، وإلا كنا هدمناه من سنوات وبنينا مكانه منزلًا جديدًا.

Scanned by CamScanner

- هناك شيء بداخله أريد الحصول عليه.

- كُتب جدك الجندي؟

يندهش زين من تصريح حسن الذي خرج على شكل سؤال، لكنه لم يملك القدرة على النفي وإلا كان عليه أن يجيب بأسباب أخرى لا يستطيع صياغتها الآن، يهز رأسه موافقًا.

- لماذا؟

يسأله حسن مرة ثانية.

بكلمات متناثرة وحروف مبهمة يخبره زين بأن خطيبته شيماء تعرَّضت لمسّ الجانّ وأن شفاءها في كُتب الجدّ، ثم يؤكد أنه لن يفتح هذه الكتب الخبيثة، هو فقط سيحملها إلى مَن يستطيع التعامل معها كي يواجه بها مَن استغلَّ ما هو أحقر منها، فلا يفِلُّ الحديد غير الحديد.

يستمعان إلى همس يأتي من حجرة أمهما .. يهرول حسن إليها و يتبعه زين .. يقفان لمتابعة الأم في صمت .. إنها تتقلب في فراشها، تفتح عينيها ببطء ثم ترنو نحو ولديها، نظراتها تتعلق بحسن لحظات قبل أن تنكسر على جسد زين، تسيل دمعات ساخنة على وجنتيها، كانت تشعر بآلام رهيبة في

Scanned by CamScanner

جسدها.. لكنها الآن قادرة على النظر حولها والكلام أيضًا، قبل قليل لم تكن تمتلك أي قدرة على ذلك.

قبل أن تتحدث يهمس حسن بأنها ما يجب أن تُرهق نفسها بأي حديث وهذا أمر الطبيب، يبتسم لها أكثر مؤكدًا أن زين قد تراجَعَ تمامًا عما قاله وقريبًا سيكون هناك ما يُسعد قلبك يا أمي فيما يخصُّ علاقة زين بشيماء وأسرتها.

لم يكن حسن يمتلك رؤية واضحة حول الموضوع، لقد قال ذلك على سبيل تهدئة الأم، لكنه لم يستبعد أن يتحقق ذلك، تلك العلاقة لا بد أن تنتهي مهما تكن الصعاب.

الآن.. إن كان لا يستطيع أن يذكر أمام زين ما وصل إليه من معلومات، ولا يستطيع أن يقنع زين بالرجوع عن هذه الخطوة، فإنه يطلب منه أن يؤجِّل خطوة دخول المنزل الملعون بضعة أيام حتى تُشفى أمهما ويجدا طريقة ما لتحقيق ما يريد. كان حسن يودُّ الحصول على مدة زمنية كافية يفكر فيها حتى يستطيع أن يتحرك بالشكل المناسب.

لكن زين لم يكن يتحرك برغبته، هو يشعر بدرجة كبيرة أنه مسلوب الإرادة، يسير وفق رغبات خفية لا يدرك أصحابها، يشعر برأسه مثل وعاء يُقذف إليه فجأة بالفكرة أو بالخطوة التالية، ما عليه إلا أن يقوم بتنفيذها،

Scanned by CamScanner

لذا كان يرنو ناحية أخيه بتعبيرات باهتة، لا يمتلك أدنى فكرة عما يجب عليه أن يفعله بعد دقائق غير أمر واحد فقط، الحصول على مفتاح المنزل القديم والدخول إلى غرفة الجد للحصول على ما فيها من كُتب وأوراق وأي أدوات أخرى يستطيع الحصول عليها.

يقف زين ليخرج من الغرفة، يستوقفه حسن متسائلًا عن وجهته، يجيبه زين بنفس الهدوء بأنه ذاهب إلى المطبخ لإعداد الشاي لهما، والحليب المغلي المحلى بعسل النحل لأمهما، يوافقه حسن مبتسمًا، فقد استجاب أخوه.

في المطبخ يقف زين شاردًا، عيناه مركزتان على النار الملتهبة أسفل براد الشاي متراقصة وصوت الماء يغلي، وعين نار أخرى أسفل كنكة صغيرة بها الحليب، لحظات تمر ثقيلة، بعدها يرفع زين يده ليحضر الأكواب من رفٍّ علوي، فجأة يعوي كلب في الخارج وتتعارك قطتان يبدو أنهما أسفل نافذة المطبخ، لا يهتم زين .. يضع الأكواب أمامه، ثلاثة أكواب زجاجية شفافة ينعكس عليها ضوء المصباح، يضع السكر بهدوء في كوبين ثم يأتي بعسل النحل ليضعه في الثالثة، يحمل البراد ليصبَّ الشاي في الأولى والثانية، ثم يحمل الكنكة ليصب الحليب في الثالثة، يستخرج من جيب جانبي ورقة صغيرة مطوية عدة مرات، يفردها فإذا بها تحتوي على عدد من حبوب ملونة، يضع في الكوب الأول حبتين وفي الثالث ثلاثًا بينما لا يضع في الثاني شيئًا،

Scanned by CamScanner

يُقلّب حتى يتأكد من تمام الذوبان، يحمل الصينية ليخرج من المطبخ، لم يدرك أنه ترك عين البوتجاز مشتعلة.

يضع الصينية فوق منضدة صغيرة بجوار السرير ثم يحمل متعمدًا كوب الشاي الذي يحتوي على الحبوب المذابة ويعطيه أخاه ثم يحمل الحليب لأمه قبل أن يعود إلى مكانه حاملًا كوبه ويرتشف بهدوء.

يتذكر وكأنه يشاهد مشهدًا في أحد المسلسلات الصامتة، يشاهد نفسه خارجًا من منزل حسين شعلان ويتبعه الرجل حتى الباب وخلفه تسير زوجته، يُحدثه الرجل بكلمات فيلتفت نحوه وهو يبسط يده .. فيضع فيها حسين تلك الورقة الملفوفة ليضعها زين في جيبه الجانبي ثم يترك المكان.

كان حسن قد بدأ في الدقائق الماضية في فتح أحاديث مع أمه يذهب بها بعيدًا عن تلك الأجواء المشحونة، يتحدث معها فيما يخصُّ الأرض والزرع وجني المحصول ورغبته في التوسع، ينتوي شراء خمسة أفدنة مزروعة عنبًا، وأرض العنب يا أمي عفيّة، ففي فصل الشتاء وأشجار العنب أعواد بلا أوراق يتم زراعة الأرض بالبرسيم، أو البازلاء .. يستمر في الحديث على هذا المنوال وهو يرتشف الشاي على فترات، والأم تتناول الحليب بصعوبة؛ فيشجعها حسن على تناوله فهو مهم لها الآن.

Scanned by CamScanner

تمر الدقائق ثقيلة،.. تذهب الأم فوق سريرها في نوم عميق، حسن يعتقد أنها نامت من شدة الإعياء .. لكنه لم يشعر بنفسه إلا ويداه ثقيلتان، يصارع ثِقل جفونه التي تسقط على الرغم منه، يتابعهما زين في صمت، لحظات أخرى ويذهب حسن في نوم عميق وهو جالس في مكانه فوق مقعد ملتصق بمؤخرة السرير.

يقف زين بهدوء، يضع الكوب من يده فوق المنضدة، يتأمل أخيه وأمه لحظة، قِيل له إن تلك الحبوب سوف تجعل مَن يعترض طريقه يذهب في نوم عميق مدة لا تقل عن ثماني ساعات. يتوجه ناحية الدولاب الذي يعلم أن أمه تحتفظ بداخله على كل أشيائها التي ترغب في الاحتفاظ بها، مؤكد سيجد مفتاح المنزل المهجور في هذا المكان.

Scanned by CamScanner

(٢٨)

«كرمة»

«هايدي»

ترتدي ملابس فضفاضة بيضاء تبدو فيها مثل أميرة من العصور الوسطى، بينما تتبعها شقيقتها هايدي ترتدي بنطلون جينز بلون السماء مع بلوزة سوداء، حركتها على الأرض خفيفة بسبب ذلك الحذاء الرياضي الذي تنتعله وتسحب خلفها حقيبة سوداء مستطيلة تسير على عجلٍ يُصدر تكتكات مع حركته.

تتوجه كرمة وهايدي إلى قطار الإسكندرية أسوان الذي سيتحرك بعد قليل ليشق البلاد جنوبًا نحو صعيد مصر، محطتهم المنيا ومنها يستقلان سيارة إلى نزلة شرموخ.

Scanned by CamScanner

الساعة تقترب من منتصف الليل، خفت الحركة في المحطة، الأصوات متداخلة، أصوات القطارات مع شاشات العرض، النداء على مواعيد تحرك القطارات والاتجاهات، كرمة شاردة في ذلك المجهول الذي ينتظرهما في نزلة شرموخ.

لقد بذلتْ مجهودًا كبيرًا في إقناع هايدي بمرافقتها، والمجهود الأكبر بذلاه معًا حينما أقنعا والديهما بأنهما ذاهبتان في رحلة مع جروب كبير من الأصدقاء إلى شرم الشيخ، لو علمت أمهما بوجهتيهما لمنعتهما من ذلك فهي لا تتحمل ما تشاهده من رعب هنا فكيف لها أن توافقهما على الذهاب إلى هناك وهي تعلم جيدًا أن بذرة الدنس واللعنة قد غُرست في هذه الأرض، الأب سعيد الجندي كان سيعترض على الذهاب إلى نزلة شرموخ لأنه لا يريد أي عودة إلى الماضي الرهيب، إنه يبذل المستحيل كي ينسلخ من تلك الذكريات وما تطرحه من مشاعر ورعب، هو الهارب دائمًا إلى دنياه الخاصة.

لهذا تجلس كرمة مع هايدي وتناقشها في الأمر، يجب أن توافقها على الذهاب إلى نزلة شرموخ .. لا يجب أن تجلسا في انتظار الهلاك، إنها متأكدة أن في استطاعتهما أن يوقفا تلك اللعنة خاصة كرمة التي علمت عَبْرَ أحلامها بالكثير عن العائلة، وتأكيد والدها أن لها ابن عم يُدعى جمال وهو ما شاهدته وحدثته في أحلامها، ذاك يؤكد صدقها، ما لم تخبر به أحدًا أمر هذا الجني العاشق لها المسمى سعدى .. إن صَدَقَ أمرُه ولم تكن مجرد خيالات كوابيس،

Scanned by CamScanner

فهي تعلم أنه لعشقه لها رغم كل ما يمتلك من قدرات خارقة سيكون لها مراقبًا وحاميًا في وسط هذا العالم المجهول. الأهم أنها فكرت في الأمر من زاوية أخرى .. لو لم يحالفها الحظ وتنجح في التصدي للعنة .. وتهلك .. فهذا يتساوى تمامًا مع الانتظار حتى تصلها اللعنة وتهلك.

هي الآن على يقين بإدراك النجاح بنسبة كبيرة، لكن عليها السعي، تحتاج إلى رفيق في الرحلة يخاف عليها ويوجهها إن اختلط عليها الأمر ولن تجد أفضل من هايدي التي اقتنعت أخيرًا ورافقتها. لكن كرمة لم تكن تعلم أنها مسوقة إلى هذا الطريق .. قدرها يحتم عليها وهي في هذه السن أن تتزعم التصدي لهذه اللعنة التي طالت الكثير وتُهدد عددًا أكبر من عائلتها.

تنظر نحو هايدي التي تتبعها فتجدها قد توقفت تتأمل سيدة خمسينية تجلس فوق مقعد بجوار كشك صغير لبيع المشروبات والمسليات، السيدة نائمة في هذا التوقيت من الليل وهو أمر طبيعي، لكن ما لفت نظر هايدي واستوقفها كانت حركة يد السيدة، يبدو أنها تحلم .. لكن لحظات وفَزِعَت هايدي وخلفها فزعت كرمة هي الأخرى .. يد السيدة تتحرك نحوهما .. تشير بحركة استدعاء لهما أن تعاليا.

تقف هايدي وكرمة ذاهلتين وكأن أقدامهما التصقت بالأرض، السيدة نائمة ورأسها مُلقًى ناحية اليسار، وتصدر شخير النائم، عيناها مطبقتان تمامًا .. ذراعها اليسرى فقط هو الممدود إلى الأمام محركة كفَّها تدعو إليها

Scanned by CamScanner

الفتاتين .. غريب الأمر أن أحدًا لم يلحظ حركة السيدة إلا هما، نعم الحركة قليلة في هذا التوقيت من الليل، لكن هناك عددًا يمر يمينًا ويسارًا لكنه لا يلحظ.

أخيرًا تتحرك كرمة ناحية السيدة النائمة .. ترفع هايدي يدها كي تُوقف أختها لكن يدها تظل معلقة في الهواء، فقد شخصت ببصرها أكثر نحو السيدة التي خفضت ذراعها عندما تحركت كرمة نحوها ثم فتحت عينيها فجأة فإذا هما عينان بيضاوان لا سواد فيهما على الإطلاق. تشهق هايدي وقد ارتجفت مكانها، تستمر كرمة في حركتها الثابتة ناحية السيدة.

الحقيقة أن كرمة كانت مرعوبة تمامًا، داخلها كان مثل إناء مغلق على ماء منذ ساعة يغلي فوق النار حتى إنها كانت تخشى أن يستمع أحد لصوت كركرة الغليان بداخلها، قدماها على الأرض ثقيلتان كما الجبال والأرض نفسها لها هسيس أسفلها، و كأنها تسير على نيران مشتعلة، أصرت على اكتشاف أمر تلك السيدة وما تفعله من حركات مريبة .. فهي إن لم تستطع مواجهة هذه الآن أمام هايدي وبين الناس فكيف لها أن تقابل ما ينتظرها في نزلة شرموخ، لم تدرك بعد أن ما يحركها هو قوى خفية.

اقتربت منها حتى أصبحت على بُعد خطوة واحدة ثم وقفت، حاولت ألا تنظر إلى عينيها المخيفة أن تُركز على تفاصيل جسدها، سيدة في الخمسينيات ترتدي عباءة سوداء مفتوحة يظهر أسفلها بنطلون جينز أسود مع بلوزة

Scanned by CamScanner

رمادية قديمة، وفي الأسفل تقع عيناها على حذاء أسود قديم، يداها متسختان بشكل ملحوظ .. لأنفاسها صوتٌ وحشرجة مع الدخول والخروج بشكل لافت للنظر مما يؤكد على أنها تدخن منذ زمن، المقعد خلفها قديم وعليه مخدة بالية متآكلة الأطراف حتى إن القطن الملون يبدو من أطرافها، الكشك خلفها غير منظم، بضاعته مكدسة في إهمال.

تقف السيدة فجأة وتقترب من كرمة التي ترتد إلى الخلف مفزوعة، تمسك بيدها وتجذبها نحوها وعيناها تزدادان جحوظًا، كرمة - وبحركة لا إرادية - تمد يدها الأخرى إلى الخلف نحو هايدي، لكن هايدي تسمرَّت في مكانها أكثر.

تدنو السيدة من أذن كرمة التي تفصد جبينها عرقًا، تهمس بكلمات .. يبدو تأثير وقعها على ملامح كرمة التي يشحب وجهها، فقد هربت الدماء إلى العقل المتحفز تاركة الوجه مثل تمثال شمعي، لحظات تمر ثقيلة على هايدي التي تتابع من بعيد وقلبها الحبيس ينتفض في صدرها، فجأة تسقط السيدة فوق مقعدها مرة أخرى وتعود إلى نومها الهادئ وكأنها لم تفعل أي شيء، أو كأن الزمن عاد إلى الخلف دقائق.

تبتلع كرمة توترها، تتأمل المكان حولها وكأنها تفيق من حلم أو تعود من رحلة عبر الزمان والمكان، تملأ صدرها بالهواء ثم تُخرج زفيرها بهدوء، تلتفت نحو هايدي وتشير لها بهدوء أن تتبعها إلى القطار، تتزايد دهشة هايدي، ماذا

Scanned by CamScanner

يحدث؟! نطقت بهذا وما تزال واقفة في مكانها، لكنها لم تتلقَّ أي إجابة من كرمة أو حتى حركة جسدية، تنتزع قدميها من الأرض لتتبع أختها وقد أقنعت نفسها بأن كرمة أجلت الحديث إلى أن يجلسا في القطار، تُلقي نظرة أخيرة نحو السيدة فتجدها غارقة في نومها مثل سلحفاة مُسنَّة.

تنتهي هايدي من وضع الحقيبة في المكان المخصص للحقائب أعلى المقاعد، تجلس في مواجهة كرمة الشاردة إلى ما لا نهاية، بعد لحظات طالت .. ومع تحرك القطار .. لا تستطيع هايدي الصمت أكثر من ذلك فتسأل أختها بصوت هامس وإن كان قوي النبرة حاد الطبع:

- ماذا يحدث .. وماذا قالت لكِ تلك السيدة غريبة الأطوار؟!

كرمة كانت بالفعل موجودة في المكان بجسدها، لكن روحها كانت هناك .. في مكان بعيد .. لا تعلم كيف يحدث ذلك لكن ها هو يحدث .. إنها الآن تسير برفقة شابٌ يكبرها بعامين أو أكثر مع سيدة جميلة وإن اقتربت من الخمسين، شعرها ذهبي، بشرتها بيضاء في نقاء الحليب، عيناها مملوءتان بسحر غامض، كرمة تسير برفقتيهما .. تراهما و تشعر بهما و بأنفاسهما .. حتى إنها كانت تعلم فيما يفكران .. الغريب أنهما لم يشعرا بها .. لم تتساءل عن كُنيتيهما .. فوجهاهما مألوف بالنسبة لها وإن كانت لا تتذكر أين ومتى .. تعلم من تفاصيل حديثهما قليل الكلمات أن ذلك الشاب هو جمال وتلك الجميلة هي أمه إلهام .. كانا في طريقهما إلى نزلة شرموخ.

Scanned by CamScanner

تفيق كرمة .. وفي لمح البصر تعود روحها إلى جسدها .. فتنتفض مثل شخص تعرض لصعقة كهربائية .. تعود إلى المكان فتجد هايدي وهي تهز جسدها بعنف وتناديها بصوت مرتفع «كرمة .. كرمة».

– نعم يا حبيبتي؟

– سألتك: ماذا يحدث .. وماذا قالت لكِ تلك السيدة غريبة الأطوار؟!

تفكر كرمة لحظة قبل أن تهمس وهي تتابع حركة المباني المضادة لحركة القطار:

– لا شيء.

تغضب هايدي، تتحرك أظفارها مثل مخالب قطة شرسة، ولكنها تضمها وهي تدفن انفعالها بداخلها .. تهمس حانقة مندهشة:

– نعم؟!

تبتسم كرمة في محاولة منها لتخفيف حدة الأمر .. تقول:

– لا تجزعي .. كل ما يحدث خير يا هايدي .. سوف أخبرك بكل التفاصيل في الوقت المناسب .. ما يزال الطريق طويلاً.

Scanned by CamScanner

(٢٩)

«إلهام»

لقد تخطت الساعة الثالثة فجرًا، يعمُّ السكون محطة قطار المنيا، لن يتوقف القطار أكثر من خمس دقائق ليكمل طريقه إلى أقصى جنوب مصر .. لقد بدأ القطار رحلته من الإسكندرية وأمضى دقائق غير قليلة في القاهرة، وها هو الآن يتوقف في المنيا.

من باب أمامي في عربة الدرجة الأولى تهبط كرمة وشقيقتها هايدي .. عدد غير قليل من الركاب بين هبوط وصعود من وإلى القطار حتى نشاهد من باب آخر للدرجة الأولى يهبط كل من جمال وأمه إلهام وقد شغلتهم الحقيبة التي انحشرت إحدى عجلاتها بين بلاط الرصيف المهترئ، فلم يلحظا كرمة وهايدي وهما يُمرَّان من أمامهما، ماذا كان يحدث لو لم تُحشر عجلة الشنطة في ذلك الشق بين بلاط الرصيف وقد واجها كرمة وهايدي وجهًا لوجه؟

Scanned by CamScanner

لم يكن سيحدث أي شيء، فلم يشاهد كلٌّ منهما الآخر من قبل، حتى الصورة الباهتة التي شاهد فيها جمال كرمة في أحلامه لم تكن لتنصفه الآن، أما كرمة فقد كانت مشغولة تمامًا بما ينتظرها ولو كانت شاهدت جمال وأمه إلهام لتوقفت أمامهم قليلًا تحاول التذكر .. متى شاهدت هؤلاء من قبل وأين؟! ثم تنطلق ولن تفارقها الصورة ذلك أن كرمة تستشعر الكثير من التفاصيل بمشاعرها وحدس قلبها.

المكان خانق ورائحة كريهة تنتشر في المكان وكأن هناك شيئًا عطنًا أو متعفنًا بالقرب، عدد غير قليل من رواد المحطة لا يستعملون حمامات المحطة الخربة على الدوام، خلف جدران الجهة الجنوبية للمحطة حيث الرصيف القديم والقضبان الصدئة، تحوَّل هذا الجزء إلى خرابة يفرغ فيها البعض محتويات مثانته، وفي الليل تحولت إلى مأوى لأفعال خارجة، تهبُّ هذه الرائحة مع سكون الهواء وارتفاع درجة الحرارة مثل ما يحدث الآن.

كان الاتفاق المسبق بين كرمة و هايدي أن يبحثا في محطة القطار عن كافتريا أو مطعم تمضيان فيه الوقت حتى الصباح، لكن كان هذا قبل مغادرة الإسكندرية، أما الآن فقد تغيرت الأمور .. تهمس كرمة إلى هايدي:

- أخبرتك في القطار بأننا يجب أن نهبط نزلة شرموخ قبل شروق الشمس، ثم إننا لا نرى أي مطعم أو كافتيريا، هذا غير تلك الرائحة الكريهة التي تثير

Scanned by CamScanner

بداخلي غثيانًا رهيبًا.. هيا .. أسرعي يا أختي لنأخذ تاكسي مخصوصًا يصل بنا إلى النزلة.

تعتدل إلهام لتتقدم جمال بخطوة واحدة وهي تبحث بعينيها في المكان لعلها تجد مأوًى تستقر فيه حتى يأتي الصباح كي ينقشع ذلك الخوف بداخلها، تتذكر تفاصيل المحطة التي تركتها منذ عشرين عامًا، نفس التفاصيل تقريبًا، لم يحدث تغيير يذكر، وإن كانت أي تجديدات قد تمت في المحطة فسرعان ما تتهالك .. لا يتم إنجاز عمل لدينا كي يُعمر طويلًا، الأعمال تتم كي تُشاهد ويتسلمها المسئول وتُصرف أموال التكلفة ولتُهلك بعد ذلك بأيام .. نفس المكان والتفاصيل والرائحة منذ غادرت، كان زوجها مصطفى يتقدمها بخطوات وهي تهرول خلفه وعلى صدرها في حمالة أطفال ينام طفلها جمال، ملامح غضب لا نهائية تُشكّل وجه مصطفى بينما هي ينتابها بعض من سعادة لأنها تغادر تلك الأرض التي ما جنت منها غير ذل وضياع، حتى أسرتها انعزلت عنها تمامًا بعد تلك الأعمال غير الآدمية التي انتهجتها معهم عائلة زوجها.

تعلم أن بالقرب من المحطة توجد لوكاندة قديمة، أشارت إلى جمال بأن يتبعها.. هبطت الدرج القديم المتآكلة حوافه، ينمو على جانبي الدرج

Scanned by CamScanner

وملاصقة للجدار نباتات خضراء مولودة من رحم بذور القمح أو الطماطم التي تناثرت من أحد الأجولة أو تخلفت عن ثمرة طماطم تعفنت وجفَّت ودهستها الأقدام حتى استقرت في تلك المسافة الصغيرة جدًّا بين الدرج والحائط، عمومًا هي نباتات ضعيفة سوف تموت بعد أيام، ليست نتاج بذور قوية، وليست ابنة أرض عفية، وليست مطلوبة لتجد مَن يرعاها.

الإضاءة خافتة والعدد القليل الذي غادر المحطة سريعًا ما ابتلعه الظلام، لولا انبعاث صوت شيخ يبتهل من ميكرفون مسجد قريب لاكتملت وحشة المكان، تتأمل إلهام ناحية اليسار حيث اللوكاندة .. تجدها قابعة في مكانها، لا يميزها عن المساكن المجاورة لها غير لوحة ضوئية مكسورة من جانب وبقايا كلمات يستشفُّ منها مَن يقرؤها «لوكاندة المنيا الحديثة» .. تُشير إلهام إلى اتجاه اللوكاندة وتتحدث إلى جمال بأنهما سوف تمضيان عدة ساعات للراحة ثم تستكملان رحلتهما.

كعادة هذه الأماكن تترك الباب الرئيسي مفتوحًا على مصراعيه، في المواجهة، كما يتوقع جمال، سيجد مكتبًا يجلس خلفه رجل عجوز ينام إما فوق المكتب أو يُلقي جسده في جانب ما ويستيقظ قبل أن يسقط ثم يعاود النوم وهكذا، ويوجد في جانب مكان انتظار عبارة عن صالون قديم مهترئ من الأطراف، وقِطٌّ يقبع على أحد هذه المقاعد القديمة.

Scanned by CamScanner

لكن شيئًا من هذا لم يكن موجودًا، نعم الباب الرئيسي مفتوح لكن بعد طرقة تمتد إلى ما يزيد عن المترين يوجد حاجز خشبي مصنوع على شكل شبكة لا تُخفي مَن بداخلها ولا تمنع متعدٍّ.. خلف الحاجز الخشبي صالة متسعة بها مقعدان ومنضدة صغيرة، وفي جدران هذه الصالة، وهي جدر قديمة باهتة ألوانها، ستة أبواب .. أربعة تخص الحجرات الأربع وباب للحمام والأخير للمطبخ، والمكان خاوٍ .. حتى القط الذي تخيل جمال أن يشاهده لم يكن له أي أثر.

تقف إلهام صامتة وهي تبحث بعينيها عن أي فرد في المكان، لا يتركها جمال تبحث كثيرًا، فقد أسند الحقيبة إلى الجدار المجاور ثم دقَّ بظهر يده على الحاجز الخشبي مناديًا «يا أصحاب اللوكاندة» .. يكررها عدة مرات حتى يُفتح الباب الثالث من جهة اليمين وتخرج إليهما سيدة مسنة ترتدي جلبابًا أسود ضيقًا بشكل ملحوظ أسفل الصدر .. تُعدل من وضع طرحتها السوداء فوق رأسها .. يلحظ جمال شعرها الأبيض المنكوش، عيناها ناعستان بشكل ملحوظ، وكلماتها مبتورة من أثر التثاؤب المستمر .. قالت بعد أن رحبت بهما أنها سهرت حتى سقط رأسها على صدرها من تأثير النعاس الذي غلبها فدخلت حجرتها تستريح.

Scanned by CamScanner

بقدر ما استطاعت إلهام أن تواري قلقها وتستبدله بابتسامة مشجعة للسيدة العجوز صاحبة اللوكاندة، جعلت كلماتها هادئة وهي تسألها عن غرفة تستريح فيها هي وابنها عدة ساعات وسوف يدفعان أجر ليلة كاملة، تنظر العجوز بريبة ناحية إلهام .. تودُّ لو تقول لها: كيف يكون هذا ابنك وأنتِ في عز شبابك؟ الجمال عندها يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالشباب .. لا عجوز جميل .. لكنها لم تجرؤ على أن تتحدث بكلمة .. تلعن داخلها ولدها «دسوقي» الذي تركها تدير اللوكاندة وسافر للعمل في القاهرة .. لم تقل يومًا إنه هاجَرَ ولن يعود .. بل سافر للعمل وسيعود .. ولن يعود مثل مَن سبقوه وزرعوا في مدن بحري بذرتهم كي تُنبت عائلات جديدة.

تقدمت العجوز نحو الباب الرابع من جهة اليمين ودفعته فانفتح ليظهر خلفه سرير واحد عريض ومنضدة في جانب ومرآة في إطار بلاستيكي معلقة في جانب، نافذة الحجرة التي يبدو أنها تطل على الشارع الخلفي مغلقة ومغطاة بستارة بيضاء منثور عليها ورود صغيرة زرقاء اللون، تلحظ إلهام أن الستارة مثبتة في الجدار بمسامير وليست معلقة في حلقات تجري على ماسورة.

تتركهما السيدة بعد أن تتلقى المبلغ الذي طلبته منهما في هدوء، قبل أن تجذب باب الحجرة خلفها تلتفت لتسألهما إن كانا يريدان طعامًا أو شايًا، يطلب جمال الشاي وهو يترك الحقيبة في جانب ويتمدد فوق السرير.

Scanned by CamScanner

تختفي العجوز وتُغلق إلهام الباب بترباس نحاسي صغير، ثم تُلقي جسدها إلى جوار ابنها، بعد لحظات تهمس في هدوء هل يرغب في النوم؟ يتأملها مواريًا حيرته، إنه يراها هذه الأيام إلهام أخرى غير تلك التي تربَّى على صدرها، أحداث عظيمة مرت بها، كيف كانت تعيش وتمارس تفاصيل حياتها بشكل طبيعي وبداخلها كل هذه الحكايات؟! يهزُّ رأسه وهو يعتدل ليجلس مستندًا بجذعه إلى المخدة، الحجرة قديمة والأثاث والفَرْش سيئ للغاية، لكنهما لم يكونا في حالة تسمح لهما بالبحث عن الأفضل، كلها ساعات ويبدأ اليوم الجديد ويرحلان إلى نزلة شرموخ. يتأمل جمال والدته، يسألها بصوت خفيض:

- من أين يأتيني النوم يا إلهام؟ ثم إنني أمامك «يشير ناحية باب الغرفة» طلبتُ الشاي من هذه السيدة الغريبة.

لا تجد إلهام ما تتحدث به غير محاولة رسم ابتسامة على وجهها ثم تمط شفتيها، يُكمل جمال كلماته فيقول:

- كنتُ أفكر منذ لحظة في ذلك الماضي المليء بالأحداث وكيف مررتِ به؟! لكنني سوف أَدَعُ ذلك السؤال الآن وأريد أن أعرف ما تبقى؟

- ماذا تريد أن تعرف يا جمال؟

Scanned by CamScanner

- سبب موت الجدة؟

تتنهَّد إلهام، تقرر أن تخبره بالتفاصيل كافةً، كلما اعترفت تطهرت.. والاعتراف تَطهُّر لو نعلم .. تشعر براحة وكأنها تُلقي من فوق صدرها صخورًا ظلت سنوات تطبق عليها، نامت على جنبها الأيمن لتواجهه، لكنها ما إن تبدأ في الحديث حتى تشرد وتعود إلى النوم على ظهرها شاخصة ببصرها في سقف الحجرة، تبدأ بكلمات بسيطة هادئة ثم تسرد وكأنها تقرأ من صفحات مذكرات كتبتها من قبل.

بعدما مات الجد وهدأت الأمور بدأ بعض أهالي نزلة شرموخ التطاول على عائلة الجندي، لن أقول عائلتنا لأني لم أشعر بأنني أنتمي لهذه العائلة في يوم ما.

زاد التطاول والتعدي عن الحد الذي يتقبله أي فرد، الفلاحون المستأجرون للأرض تقاعسوا عن دفع الإيجار ورفضوا ترك الأرض بمنتهى الشراسة، عدد الأفدنة التي كانت تحت أيدي العائلة ويعمل فيها فلاحون بالأجر اليومي بدأت مساحتها في النقصان بعد تعدي الجيران على تلك المساحة من كل الاتجاهات، حتى زرعها بدأ يذوي لأنها لم تجد أيادي ترعاها .. كان الأجير يذهب إلى الأرض ولا يعمل، يُمضي الوقت في النوم

Scanned by CamScanner

أو شرب الشاي المغلي على نار من أعشاب وغصون أشجار الصفصاف، وما إن ينتصف النهار وهو نهاية يوم العمل لدى الفلاحين، يهرولون إلى المنزل كي ينالوا أجرهم، يطلبون أجرًا مقابل نومهم! لم تكن هناك عين تتابع أو يد تُعاقِب، والدك مصطفى وأخوه سعيد وحتى عمتك هناء .. لم يكن لهم سابق تعامل في تلك الأمور إضافة إلى رغبتهم جميعًا في الهرب من نزلة شرموخ. كانوا يعلمون أن الجد يتعامل مع الشياطين وحجرته الخاصة تحوي أسرار تلك العلاقة، لكن ما دامت كانت الأمور تنطلق ولا عقبات فإنهم يغضون أبصارهم، أما وقد ظهرت المشكلات بوضوح اتخذوا قرار الهرب بشكل نهائي.

والدك مصطفى كان أول من قرَّر بيع الأرض بأي ثمن، وسوف يأخذ كل منهم نصيبه ويستكمل حياته بالطريقة التي يرغبها.

بيعت الأرض وحمل كل منهم مقابل إرثه .. لكن ذلك لم يتم إلا بعد وفاة الجدة، فقد رفضت بيع الأرض وتوزيع الميراث ما دامت تحيا على وجه الأرض، كانت على ضعفها في حياة زوجها أقوى ما يتخيله المرء بعد وفاته، في هذا اليوم وكانت هناك موجة شديدة الحرارة تضرب البلاد بسياطها، لم يعمل فلاح واحد في الأرض، وأتوا في الظهيرة يطلبون الأجر، أذكر أن

Scanned by CamScanner

أحدهم كان شابًا يدعى حسين شعلان هو مَن كان يتزعم المطالبة بالأجر .. يطلب بطريقة غريبة، وقد أوشك على ضرب مَن يقف في طريقه، كان شابًا فظًا .. بخنوع أخرج والدك مصطفى من جيبه المال وألقاه لهم فاجتمعوا حوله مثل كلاب جائعة حول دجاجة تائهة.

الجدة كانت تُتابع من باب الصالة المفتوح على الشرفة الواسعة ما يحدث، طلبت من ابنها ألا يستجيب لأطماعهم، وإلا فلن يتوقفوا عن طلب المزيد، لكنه لم يستمع إليها، كان يرغب في أن يُوقف تلك المهزلة، المارة يشاهدون ويسخرون.. ما يحدث يكون حديث سمر وسخرية القرية بأكملها عدة أيام.

تُقرر الجدة أن تسير على درب زوجها الراحل، سوف تستعين بأصدقائه من الجان الذين كانوا يوفرون له الحماية الدائمة، لم يكن يجرؤ فلاح واحد على أن يرفع عينه أمام الجندي، وسوف تفعل كل ما يأمرونها به حتى تعود تلك الهيبة الضائعة لعائلتها.

كل فرد يغلق بابه خلفه، يسود الهدوء المنزل، تخرج الجدة من حجرتها مع اقتراب زوال الشمس، تغلق باب حجرة زوجها خلفها، الباب لم يُفتح منذ أن وُضع بشكل عشوائي بعد مقتل الجندي شرموخ، تلاحظ الأقفال

Scanned by CamScanner

السبعة، بيد ضعيفة تعيد الباب إلى سيرته محاولة ألا يُصدر صوتًا، يسود الظلام حتى إنها لا ترى أصابع يديها، الحجرة كانت قِبليةً ولا نافذة فيها، لقد كانت في البداية معدة لتكون حجرة خزين، توضع فيها أجولة القمح والذرة وحزم البصل والثوم، لا منفذ فيها غير الباب، ما إن يُغلق هذا الباب حتى تتحول الحجرة إلى مقبرة، تحسَّست يدها الجدار في الظلام حتى عثرت على مفتاح المصباح الكهربائي، تضغطه في ترقُّب وتوتر ولكن الضوء لم ينبعث من المصباح، ما يزال الظلام الكثيف يطبق على المكان .. تستخرج من جيب في جانب ثوبها علبة كبريت، كانت تشاهد زوجها الراحل يحمل علبة كبريت في كثير من الأحيان حال دخوله الحجرة .. وها هي تفعل مثله، بيد مرتعشة تستخرج عود الثقاب، تحكُّه ثلاث مرات حتى يشتعل مُصْدرًا أزيزًا يستمر لحظة .. على ضوء عود الثقاب تشاهد تفاصيل الحجرة التي شاهدتها يوم أن حطموا الباب ليجدوا الرجل غارقًا في طست الماء، ما يزال طست الماء في مكانه، وبالقرب مقعد قديم .. مقعد له ظهر مرتفع .. في الجانب الآخر بقايا شمع .. توجَّهت ناحية الشمع في اللحظة التي تقترب نيران الثقاب من أصابعها فتلهبها، تشهق وهي تلقي بالعود على الأرض فينطفئ ويسود الظلام مرة أخرى، تشعل عود ثقاب آخر ومنه تُشعل بقايا الشموع، تتراقص الإضاءة في الحجرة مع ضوء الشموع، تتأمل المكان في محاولة

Scanned by CamScanner

التعرف على طبيعة ما كان يفعله الجندي في هذه الحجرة، في رفٍّ جانبي وجدت عددًا من الكتب والأوراق القديمة الملفوفة في شكل أسطوانات مرصوص بعضها بجوار بعضٍ على شكل هرم، تُمثل بفتحاتها الظاهرة برج حمام صغير، تتفحص الكتب والأوراق المكتوبة بمداد أحمر وأسود .. كلمات غريبة تقرؤها بصعوبة ولا تجد لها معنى محددًا.

بعد ساعة من البحث ولا تعلم أي شيء عما تبحث عنه أو تراه، تجد ورقة ملفوفة بعناية مربوطة بشريط من قماش أسود، فتحتها بهدوء خشية أن تهترئ الورقة .. قديمة بشكل ملحوظ .. تعود لتجلس فوق المقعد القديم الذي يتوسط الحجرة، تفتح الورقة على ركبتيها تقرأ أعلاها «التعويذة الأخيرة» .. ماذا يعني ذلك؟ أهي التعويذة التي تحلُّ كل المشكلات أم هي آخر تعويذة في طريق العلاقة مع بني الجان؟ لم تصل إلى معنى مقنع لهذا الاسم .. لن تخسر شيئًا إن هي قرأت تلك التعويذة لتشاهد ما يحدث.

الجاهل والعالم يستويان عند مواجهة خطر ما، فالجاهل لا يعلم ما ينتظره فلا يبالي .. والعالم بما ينتظره ويمتلك القدرة على المواجهة لا يبالي أيضًا، وكانت الجدة جاهلة بما تقرأ .. جاهلة بما سيحدث بعد لحظات .. لذا كانت تقرأ وتتطلَّع إلى أركان الحجرة منتظرة أي تغيير يحدث .. اقتربت من نصف

Scanned by CamScanner

التعويذة .. بدأت يدها تهتزُّ .. تشعر بحرارة عظيمة تُغرق الحجرة .. قطع الأثاث القليلة الموجودة في الحجرة تهتز مكانها قبل أن تدور وتتحرك بقوة .. وكأن ريح عاتية ضربت الغرفة، تشهق السيدة بعنف وهي تصل إلى السطر الأخير من التعويذة.

دقات خفيفة على باب الحجرة ثم تعلو بعد لحظات .. تنتفض إلهام مكانها وينظر جمال نحو الباب، في قفزة واحدة يترك السرير ويُفتح الباب فتحة صغيرة فيجد السيدة تحمل صينية عليها كوب شاي وكوب آخر به مشروب أصفر تتصاعد منهم أبخرة رقيقة، فينظر نحوها متسائلًا عن هذا المشروب، تخبره بأنه مشروب الحلبة للسيدة، تومئ بعينها اليمنى نحو الداخل، تشعر أنها في حاجة إليه، يشكرها جمال وهو يحمل الصينية ثم يُغلق الباب ويعود إلى أمه.

يجلس فوق حافة السرير ويتناول كوب الشاي، يحتسيه في هدوء .. ليس في حاجة لأن يسأل أمه عن كيفية موت الجدة، فقد سمع منها تفاصيل ذلك من قبل، كان ينقصه فقط سبب الوفاة وها قد عرفه الآن، ما يجب عليه أن يفكر فيه هو ما ينتظرهم بعد ساعات في نزلة شرموخ.

Scanned by CamScanner

(٣٠)

«شيماء شعلان»

لا تعرف الكثير مما يدور حولها، فقط هي تُعامل معاملة حسنة وكأنها طفلة مُدلَّلة، تشعر في كثير من الأحيان بحالة اختناق لا تعلم سببها، تتلقفها الأم على صدرها وتهمس في أذنها بكلمات لا تتذكر منها غير « اصبري .. كلها أيام .. سوف تسعدين بقية حياتك ..» لا تهتم بما يُقال حولها، لها ما تشعر به فقط، وما تشعر به رهيب، ما تشاهده في أحلامها بشع، ترفض كل شيء ولا تستطيع أن تهرب من واقعها الأليم، تتكور على نفسها وتعود إلى شيماء الطفلة، حتى إنها كانت تنطق بعض الحروف مثل طفلة تتعلم النطق .. فتنطق الشين سينًا و الراء لامًا في بعض الكلمات .. ما سوف تتذكره مستقبلًا أنها ما إن كانت تشعر باختناق رهيب حتى تسقيها أمها مشروبًا ما .. تشعر

Scanned by CamScanner

بعد لحظات بخدر وتذهب خلف أحلامها .. تستيقظ بعد ساعات وهي لا تتذكر شيئًا أكثر من تناولها المشروبَ.

في هذه الليلة تشعر شيماء بحركة غير عادية في المنزل، منذ ساعات قليلة كان زين في زيارة لهم، تجلس معه دقائق قبل أن تُغلق باب الحجرة عليهما وتبدأ في ممارسة الطقس الجديد على حياتها، ولم تعلم أنه طقس جديد .. بل هو طقس من عالم الأحلام بالنسبة لزين .. إنه طقس القُبلات .. يذوبان معًا و هما شخصان آخران غير زين وشيماء .. لو أُتيح لهما فرصة التعبير عن أنفسهما في هذه اللحظات لقالا الكثير .. لاستمعنا منهما إلى حكاية جديدة تُضاف إلى حكايا ألف ليلة وليلة .. وكأن شيطانًا تلبَّسهما وذهب بهما إلى عالم آخر .. كانا يعيشان لحظات وردية ويشاهدان حدائق مترامية الأطراف يرفرف فيها طيور بألوان فيروزية تتغنى بأعذب الألحان .. حتى .. حتى يفرز جسداهما ماء الحياة .. فيهدآن.

تفتح شيماء باب الحجرة وكأنه إذن لأمها بالدخول.

بعد ساعة يرحل زين ويستقر والداها في حجرة تطل على الشارع بينما تستقر هي في حجرتها، لحظات قليلة تشرد فيها ثم تبدأ حالة الاختناق في الاقتراب منها .. تتسارع أنفاسها، جدران الغرفة تقترب لتُطبق عليها، تحاول

الصراخ فلا تستطيع، حشرجة بسيطة وهي ترفع يدها لتفتح طوق ثوبها وكأنه هو الذي يمنع وصول الهواء إلى صدرها، تمد يدها كي تستدعي أمها لتنقذها بذلك المشروب .. لكن الأم هناك في الغرفة الأخرى مشغولة تمامًا مع زوجها حسين شعلان في ترتيب الأمور، فجأة .. ولا تعلم شيماء كيف تم ذلك تنقشع الجدران العازلة وتشاهد والديها في الغرفة المجاورة يتحدثان .. والأغرب أنها شاهدت ما بعد الحجرة التي يجلسان فيها .. بالتحديد أسفل نافذة الحجرة .. شاهدت حسن شقيق زين الأكبر .. شاهدته ينصت لذلك الحديث الذي يدور بين والديها .. رعب حقيقي يسيطر عليها. ماذا يحدث وأين ذهبت جدران المنزل؟! ترى على وجه حسن رعبًا ممزوج بدهشة وهو ينصت .. تُنصت هي الأخرى إلى كلمات والدها:

- زين الآن غير موجود .. لقد تلبَّسته الجان بعد تلك التعويذة التي شرب ماءها .. عقله غائب .. ينفذ المطلوب وإن اعترضته أمه .. فثمة وسائل أخرى يتعامل معها بها وإن لزم الأمر استخدام القوة سوف يستخدمها وإن قتلها.

تشاهد حسن ينتفض مفزوعًا، يرتدُّ إلى الخلف لحظة و عيناه مثبتتان على نافذة الحجرة، جسده ينتفض ويبدو أن تفكيره مشوَّش أو هو في صراع بين دخول المنزل لقتل والديها أو الإسراع إلى والدته كي ينقذها من يد زين،

Scanned by CamScanner

أخيرًا يهرول تاركًا المكان .. فجأة تعود الجدران إلى طبيعتها وتشعر شيماء بالاختناق الرهيب يعود إليها .. تتساءل بلا صوت: ماذا يحدث؟! هل وصلت الأمور إلى حد القتل؟! ثم .. ثم ماذا يقصد بـ (تلبسته) الجان بعد تلك التعويذة التي شرب ماءها! هل ما تسيقه أمها لها يحتوي على تعويذة؟!

لحظة واحدة كانت كافية لأن تدرك شيماء أن ثمة كارثة حقيقية تُحاك وهي عنصر فاعل فيها، تدرك شيئًا من أبعاد تلك الكارثة .. لم تكن خطبتها لزين أمر طبيعي .. ما يفعله والديها مع زين ليس أمر طبيعي .. ما تفعله هي مع زين ليس أمر طبيعي .. ما تفعله في حياتها بشكل عام منذ أن ارتبطت ليس أمرًا طبيعيًا .. ما يحدث لها وما تشاهده في أحلامها بل ما حدث لها الآن وتكشفت لها الصور عبر جدران المنزل ليس أمرًا طبيعيًا .. تشهق وتشهق .. ينتفض صدرها وتجحظ عيناها وتتشنج أطرافها .. تتخشب أطرافها مثل لوح حديدي صلب يستحيل ثنيه .. بعد معاناة رهيبة تستطيع أن تستجمع قوتها وتصرخ.

تصرخ شيماء بقوة حتى إن هزة عنيفة أصابت الأشياء فاهتزت في مكانها .. في لمح البصر تشاهد باب غرفتها ينتفض أمام دفعة قوية ويدخل والدها وخلفه أمها مذعورة، يحاول الرجل أن ينطق لكن الرعب الذي أصابه جعل

Scanned by CamScanner

حلقه مثل صخرة جافة في صحراء، لسانه ملتصق بشكل رهيب لا يستطيع أن يحركه فيحتضن شيماء، يفزع أكثر وهو يشعر بجسدها بارد مثل لوح ثلج ومتشنج مثل لوح صلب .. تصرخ الأم وهي تحتضن وجه ابنتها بين يديها .. تمر الدقائق ثقيلة وشيماء لا تهدأ .. بل صراخها في تزايد .. يتذكر حسين الجيران وما قد يحدث إن استمر صراخها كثيرًا، سوف يجتمعون مستفسرين تحت مسمى المساعدة .. يضع يده على فمها كي يكتم صراخها ثم يأمر زوجته بأن تعد الشراب المهدئ بسرعة .. تهرول الأم وقبل عبورها باب الغرفة تسمعه يطلب منها مضاعفة الكمية.

كانت شيماء تنتفض وعرقها الغزير قد بلّل جسدها كله وكأنها خارجة بملابسها من الترعة التي تمر بجوار القرية، عيناها زاد بياضهما وزاد جحوظهما، لم تكن تشاهد أي شيء مما يحدث حولها .. كانت تشاهد أشكالًا مرعبة وأشباحًا تتحرك على الجدران وسقف الحجرة .. كلما لوت رأسها إلى ناحية شاهدت أكثر وأبشع ..

حينما يكون الفرد وحيدًا في غرفته وقد ذهب معظم الليل وجافاه النوم يشاهد رسومًا متحركة تتحرك حوله في الغرفة وعلى الجدران .. تتشكل هذه الرسومات وفقًا لما يدور بداخل كل فرد .. وما يدور بداخل شيماء الآن

Scanned by CamScanner

كان رهيبًا .. وما يزيد من الصراع بداخلها جهلها بما يحدث و فزعها مما هو منتظر.

تأتي الأم بكوب يحتوي على خليط .. يكبل الأب حركة ابنته بأن يضمَّها إلى جسده .. يلف ساقيه حول ساقيها ويده اليسري تمسك بذراعيها خلف ظهرها، أما يده اليمنى فيساعد بها زوجته في فتح فم شيماء كي تصبَّ المشروب فيه، مع شهقاتها وصراخها يتناثر المشروب ليغرق وجهها ووجه والديها، يسيل خيطٌ منه ليهبط إلى صدرها في ذلك النهير الدقيق بين نهديها .. يكبلها الأب أكثر وتصب الأم في فمها جرعات أخرى تتحول إلى رغاوي بيضاء وهي تسعل بشدة، فقد ذهب السائل محل الهواء وهي تتنفس، تنتفض أكثر ويتزايد صراخها، يكتم صوتها بيد قوية مرة أخرى، الأم ترتد إلى الخلف وقد تخيلت لجزء من الثانية أن ابنتها تموت الآن .. ما يحدث هو خروج الروح .. تُلقي الكوب الزجاجي من يدها فيتهشم على بلاط الأرض إلى ألف قطعة محدثة صوتًا مفزعًا يمتزج بصرخة الأم الطويلة « شيماااااااء» التي خرجت مبحوحة من فرط قوتها .. يفزع حسين شعلان ويشعر بأن عقله قد أُصيب بشلل فجأة .. لكنه يمد يده ليجذب زوجته بعنف من رأسها وكفه تكتم صراخها .. فكان يكبل شيماء بساقيه ويده اليسرى على فمها وزوجته بيده اليمنى وصدره، أما هو فينتفض متنفسًا بصعوبة ..

Scanned by CamScanner

لا يعلمون كم مر من الوقت لكن فجأة تراخت قبضتيه حينما شعر بشيماء تستكين تمامًا .. يتركها فيسقط جسدها فوق السرير بلا حركة .. يرتد إلى الخلف مفزوعًا .. تتأمل الأم جسد ابنتها المسجَّى بلا حركة، تنظر بصعوبة نحو صدرها باحثة عن حركة فلا تجد .. تنظر نحو زوجها وقد شُل لسانها تمامًا .. تحاول النطق فلا تستطيع فيخرج صوتها مثل ضفدع يلتهمه ثعبان، تشير نحو جسد ابنتها المسجى بلا حَراكٍ.

يقف حسين شعلان مثل تمثال حجري .. عيناه مثبتتان على جسد ابنته، أذناه تبحثان عن صوت أنفاسها فلا تجد، نقيق زوجته يصيبه بفزع لا نهائي .. يشعر بماء دافئ يسيل ليغرق فخذيه .. ينتفض .. يدور المكان من حوله بسرعة رهيبة، يدخل في دوامة فيتأرجح جسده، يحاول التعلق بأي شيء قبل أن يسقط جسده أرضًا فلا يجد، يستجمع كل ما يملك من قوة ليصرخ باسم ابنته «شيماااااااااااء»

(٣١)

«كرمة»

أُذِّن لصلاة الفجر منذ نصف ساعة تقريبًا، مرت السيارة الأجرة التي تركبها كرمة وهايدي بأكثر من مسجد في طريقهما من مدينة المنيا إلى نزلة شرموخ، آخر مسجد مروا به كان رواده، - وهم قلة - قد انتهوا من الصلاة ويغادرون، كان ذلك على أطراف آخر قرية تسبق قرية نزلة شرموخ .. تنقشع بقايا الليل بصعوبة، فجأة يتوقف السائق بسيارته.

صمت رهيب لا يكسره صوت السيارة الرتيب الذي تعودته الأذن فنسيته.. طريق أسفلتي متآكل، ضيق يتحمل بصعوبة بالغة مرور سيارتين متجاورتين، الأشجار كثيفة الأغصان تجسد سحابة يعلوها سحابة أخرى تصنعها أشجار النخيل التي تشق طريقها إلى السماء، ضباب مثل أدخنة

Scanned by CamScanner

صناعية يملأ المكان فيجعل الصورة متشابكة، معقدة، مخيفة تضيف إلى النفس اضطرابًا.

تنتظر كرمة لحظات، يلتفت إليهما السائق بوجه عبوس يخبرهم بأن عليهما النزول هنا .. تتعجب كرمة وتسأله:

– أين القرية؟

يشير إليها في اتجاه ما وهو يقول:

– من هذا الطريق .. أنا لا أستطيع الدخول بسيارتي.

بمنتهى العنف يطلب منهما النزول من السيارة، حينما طلبا منه في المنيا توصيلهما إلى نزلة شرموخ كان سيرفض لولا احتياجه للمقابل المادي لهذه التوصيلة خاصة أنهما فتاتان صغيرتان يسهل استغلالهما .. يطلب مبلغًا مضاعفًا ويحصل عليه مقدمًا .. أما لماذا كان سيرفض؟ لأنه يخشى المرور بالساقية المهجورة عند مدخل نزلة شرموخ في هذا التوقيت، ما يقال من حكايات عن هذا المكان يجعله يرفض، لكنه يقرر أن يحصل على المال ويذهب بهما حتى أطراف القرية ويتركهما ويعود.

تنزل كرمة من السيارة وهي تربت على كتف هايدي لتهدئتها حينما استشعرت توترها، تتأملان المكان بصعوبة بالغة، تبدو الأشياء من حولهما

Scanned by CamScanner

مثل أشباح، ترحل السيارة تاركة أزيزيها الكريه في الأُذن وأبخرة من عادمها وكأن شيئًا يحترق، يرحل السائق سريعًا فهو يعلم ما يقال عن المكان فيهرول هاربًا، أما الفتاتان فلا تعلمان شيئًا فيتحركان بهدوء وبينهما الحقيبة التي تحوي ملابسهما، لن تسمح الأرض الترابية بأن تجرها هايدي خلفها على عجلاتها فتحملناها.

بصعوبةٍ يشاهدان أمامهما عدة أمتار، تتحرك كرمة إلى يمين الطريق الترابي الموازي للترعة الضيقة التي تغطيها الأعشاب والطحالب المائية لتخفي ماءها القليل الراكد، جندب ليلي يُصفر بشكل مستمر حتى أضحى من علامات المكان، لن تنسى كرمة تلك الرائحة التي تملأ أنفها وصدرها، رائحة المكان الذي يولد في هذا الصباح الباكر.

هايدي تسير إلى جوارها متوجِّسةً خيفة، تتبع شقيقتها في صمت لا يتناسب مع طبيعتها المتمردة الناقمة الرافضة، لكنها لا تتقبل فكرة الخضوع والانصياع وأنها مجبرة على مواجهة اللعنة كما أقنعتها كرمة، إنما تبرر لنفسها أن بداخلها طفلة صغيرة، شقية، فضولية، تحشر أنفها فيما يخصُّها وفيما لا يخصُّها، تمتلك جرأة لا تتناسب مع عمرها .. تلك الجرأة التي جعلتها ترافق أختها وتنصت لحديثها وتوافقها على تغيير الخطة مؤخرًا، لم يكن من ضمن ما اتفقتا عليه الوصول إلى نزلة شرموخ في هذا الوقت المبكر جدًّا، كان عليهما

Scanned by CamScanner

البقاء في المنيا حتى يبدأ النهار ثم تتحركان فتصلان القرية في الضحى، لكن بعد لقاء السيدة الغريبة في محطة القطار وقد همست إلى كرمة بكلمات جعلتها تغير خطتها، بالطبع تستفسر هايدي عن سبب التغيير وتجيبها كرمة بأن أمرًا عظيمًا في انتظارهما قبل شروق الشمس على أطراف قرية نزلة شرموخ .. لا تعلم ما هو لكن عليهما التحرك وفقًا لذلك الترتيب القدري.

من بعيد .. وفي هذه الظلمة يكون البعيد على مسافة عشرة أمتار تقريبًا .. تشاهد كرمة ظل أسود قاتم على شكل نصف دائرة لها نتوءات مستطيلة تنطبق على الأرض، يعلوها ظلال سوداء لأشجار كثيفة الأغصان، تهمس كرمة «الساقية المهجورة» .. تتوقف هايدي وتسألها عما قالت .. تهمس كرمة مرة أخرى « لا شيء يا أختي» .. تستكمل كرمة كلماتها في داخلها بلا صوت: نعم .. تلك هي الساقية المهجورة التي حدثتني عنها السيدة الغريبة في محطة القطار، كلماتها كانت واضحة تمامًا: على أطراف نزلة شرموخ وبجوار الساقية المهجورة ينتظرك قبل الشروق حدثٌ عظيم. ترى .. أي حدث في انتظارهما؟ وقد وصلتا إلى الساقية المهجورة؟

تقتربان أكثر ويتحول الصمت إلى طنين رهيب يدق آذانهما، خطواتهما على الطريق الترابي المشبع بندى خفيف لا تصدر أي صوت، أصبحت الساقية القابعة على الأرض على بُعد خطوات قليلة .. تتوقف كرمة وتتبعها هايدي ..

Scanned by CamScanner

يدق قلبها بعنف تترك الحقيبة بهدوء لتستقر على الأرض، عينا كرمة مثبتتان على الساقية وعينا هايدي مثبتتان على وجه شقيقتها تقرأ تعبيراته.

تنحشر الأنفاس في صدر كرمة وهي تنتظر .. لا تستطيع تخيل أي شيء .. لو تأملت صدرها لوجدته يعلو ويهبط بعنف، أما يداها فقد تشنجت أصابعها مع برودة رهيبة، والحقيقة أن جسدها كله بارد .. فجأة تنتفض كرمة في مكانها فتشهق ولا تستطيع الصراخ من هول ما تراه .. لكن حالتها تلك كانت سببًا في أن تطلق هايدي صرخة وهي تمد يدها لتتعلق بأختها.

لحظات تمر مثل دهرٍ وكرمة تربت على كتف أختها كي تهدئها بينما عيناها مثبتتان على ذلك الجسد الهائل الذي ظهر من أسفل ظل الساقية المهجورة .. بعد لحظة تتماسك فيها كرمة تجد يدها اليسرى تضغط بعنف على كتف أختها التي ترتعش، تلتفت لتتأمل هايدي فتجدها تنظر نحوها ولا تنظر ناحية الساقية المهجورة، تنقل كرمة نظراتها بينهما وقد أخذتها دهشتها بعيدًا بعض الشيء عن رعبها، حتى تستقر نظراتها على هذا الجسد المُشكل من سواد قاتم، تتحرك كرمة بخطى لا إرادية نحو الساقية المهجورة، تتوقف أمام الجسد تمامًا .. في باطنها تقرأ آيات من القرآن لدفع الأذى المنتظر، لكنها تُفاجأ بصوت أنثوي، تدور برأسها نحو شقيقتها فتجدها واقفة في مكانها تغمرها الدهشة والصمت، تعود برأسها لتسمع مرة أخرى الصوت الأنثوي يقول:

Scanned by CamScanner

- أختك لن تراني يا كرمة.

- مَن أنتِ؟!

- أنا من بني الجن .

تشهق كرمة وترتد خطوة للخلف فتتعثر لتسقط أرضًا، تظل جالسة في مكانها لا تستطيع التحرك، تسمع الصوت يقول:

- لا تخافي يا كرمة .. من جنسي مَن يخشون الله ويعبدونه حق عبادته .. وأنا من هؤلاء والحمد لله.

رغم ما تشعر به من رعب إلا أن قدرًا يسير من الطمأنينة يسري في داخلها، تندهش من تلك الكلمات، تود أن تقول: كل ما نعلمه عن عالم الجان أنه عالم كله شرٌ، وكل مَن يقترب منه هالك . يأتيها الصوت من ذلك الجسد المظلم:

- أسكن هذا المكان منذ سنين طويلة .. قيلت عني آلاف الحكايات .. لكني أعيش حياتي في هدوء .. حتى لحظات ظهوري القليلة جدًا تُلقي الرعب في القلوب، لم أوذِ أحدًا من قبل ولن أُقدِّمَ إلا الخير .. وهذا ما جعلني أطلب منكِ الوصول إلى هذا المكان قبل شروق الشمس.

تهدأ كرمة بشكل ملحوظ ويدور في عقلها سؤال ليس له محل الآن: «لماذا انتشرت فظائع عالم الجان ولم تنتشر فضائلهم إن كان فيهم الخير والشر كما بني البشر؟!» تهز رأسها وتسأل هامسة:

Scanned by CamScanner

- وقد استجبتُ لطلبك.

- استمعي إليَّ جيدًا يا كرمة .. يا نقية القلب.

يتبسم قلب كرمة لحظةً وهي تسمع هذا اللقب ثم تُنصت باهتمام بالغ لذلك الصوت الذي يغمر جسدها، صوتٌ رخيم يتحدث في هدوء وخشوع، صوتٌ وقور يضفي مصداقية على المعاني .. صوتٌ يقول:

- أنتِ وأختك .. ومَن سيرافقونكِ اليوم مقبلون على شيء عظيم، أنتم في مواجهة عدد غير قليل من الجان الأحمر الناري الذين سخَّرهم جدك الجندي شرموخ قبل مقتله وبين خلاباش وقبيلته الذين اتخذوا من الجندي وعائلته أعداء .. وخلاباش هو المسيطر بشكل كامل على هذا العدد من الجان الناري، جنود جدك من قبل .. لكنهم تحت سطوته عنوة وإن استطاعوا الفرار ومحاربته لفعلوا .. هو ينتقم منهم على تعاونهم مع الجندي شرموخ وهم ينتقمون من عائلة الجندي شرموخ للخلاص من سطوة خلاباش .. لقد حلت عليكم لعنتهم التي لا يرويها إلا الدم كل عشر سنوات، وسنوات عشر في عالمنا ليست بالكثيرة كما هي في عالمكم.

كانت كرمة تنصت وقد تدلَّى فكُّها السفلي مذهولة مما تسمعه، ماذا يحدث؟ وكيف تكون هي بما تحمله من محبة لهذا العالم أن تكون حفيدة هذا الرجل الذي ما ترك على الأرض غير الفساد؟!

Scanned by CamScanner

لا تمتلك إجابة ولا تمتلك القدرة على توجيه أي سؤال .. بعد صمت تهمس بكلمة واحدة:

- ولِمَ؟!

- جرم ارتكبه جدك الجندي في حق خلاباش حينما استحضره عنوة لتنفيذ رغبة لم يحلم بها أحد من قبل سواء من بني البشر أو من بني الجان.

- أي رغبة؟!

- نقل خبر الموت وتفاصيل ما بعده ..

تشهق كرمة متعجبة .. خبر الموت وتفاصيل ما بعده من الأمور التي ذُكرت تفاصيلها في كل الأديان وأحاديث الأنبياء والرسل، الشك فيما ذُكر وتسخير الجان، لنقل ما يحدث، معناه عدم تصديق الرسالات السماوية والأنبياء، تقول كرمة في انكسار:

- أستغفر الله العظيم .. إنه ..

يقاطعها الصوت بهدوء:

- نعم هو كذلك .. وكان خلاباش سيفعل أي أمر يطلبه منه جدك لو كان في استطاعته، لكن هذا الأمر عظيم وما اقترب منا أحد من السموات ليسترق السمع إلا واتبعته الشُهب وأحرقته في الحال، وقد احترق في اليوم

Scanned by CamScanner

السابق على مقتل جدك عدد غير قليل من مساعدى خلاباش وأصدقاء مقربين من ابنه كانوا يرافقونه في هذه الرحلة ..

– وهذا ما أغضب خلاباش وأنزل لعنته على الجد؟

– نعم.

– وما ذنب العائلة بجرم ارتكبه الجد؟

– وهذا ما انتظرك من أجله .. كان من اليسير أن يُنهي خلاباش الأمر بعد مقتل الجندي شرموخ لكن هناك شخصًا من العائلة تدخل في الأمر وطالَبَ باستمرار اللعنة انتقامًا.

– شخص من العائلة .. يطالب بالانتقام من عائلته؟! أنا لا أفهم أي شيء.

– لا أعلم تفاصيل هذا الاتفاق، ولا أعلم اسم هذا الشخص .. ما ذكرته معلومات تناثرت في عالمنا .. لكن الأهم الآن أنك سوف تقابلين خلاباش.

– أنا .. أقابله؟!

Scanned by CamScanner

(٣٢)

«زين»

كانت الساعة قد تخطت الثالثة من ليل هذا اليوم، تغرق نزلة شرموخ في ظلام رهيب بسبب انقطاع الكهرباء، يشق زين طريقه نحو منزل جده المهجور، رياح خفيفة لا يعلم مصدرها في هذا التوقيت تصدر صوتًا يزيد من الصورة رعبًا، كلب وحيد في مكان خفي ينبح بأسى على فترات وكأنه رجل مجذوب يسب زوجة هجرته.

يحصل زين على المفتاح بعد بحث طويل وقد أخفته أمه بين ثنايا الملابس المحفوظة في حقيبة قديمة موضوعة أعلى الدولاب في حجرتها، كان يبحث عن المفتاح بهدوء غير عابئ بأمه وأخيه الغارقين في نوم عميق بعد تناولهما تلك الحبوب المذابة في المشروب. إنه مفتاح القفل الجديد الذي وضعته أمه على الباب بعد حادثة خاله مصطفى منذ عشر سنوات.

Scanned by CamScanner

دقائق ويصل إلى المنزل المهجور، يدخل حجرة جده ويحمل ما فيها من كتب وأوراق وأي مواد أخرى يصل إليها ويعود بحمله إلى شيماء وأهلها، تلك كانت الخطة المُسير لتحقيقها، لكنه لم يكن يعلم ما طرأ عليها من تغيير..

فهناك ..

في منزل حسين شعلان .. خطيبته شيماء ممدة فوق سريرها وقد فارقت الحياة بيد أبيها .. أبيها الذي أضافت الصدمة إلى عمره عشرين عامًا .. إنه يجلس يتأمل ابنته في ذهول ويداه إلى جواره مشلولتان .. يتمنى أن يراه عزرائيل ويقبض روحه لترافق روح ابنته.

وهناك ..

في منزل حسين شعلان .. وقد تأكدت الأم من أن زوجها قتل ابنتها .. تصرخ بكل ما أوتيت من قوة حتى انحشر صوتها لحظات ثم انقطع تمامًا .. لم تدرك أن صوتها قد اختفى من الوجود إلى الأبد .. تسمعه يتردد صداه بداخلها، تصرخ وتصرخ وهي تلطم وجهها وتشق ثيابها وتشد شعرها فتنتزع خصلاته لتلقى بها في الهواء ويظل ما يتبقى من شعرها مهوشًا وأظفارها تشق خدودها لتسيل دماء قاتمة.

هناك ..

Scanned by CamScanner

في منزل حسين شعلان .. يفيق حسين لحظة .. يشاهد الصورة حوله ويتأكد أنها حقيقة وليست جنون خيال فيرفع يده إلى السماء وكأنه يستعطف عزرائيل قبل أن يرحل .. في تلك اللحظة التي عاد فيها إلى رشده يتذكر أن عزرائيل لا يأتي بالاستعطاف .. فيقرر أن يستدعيه بالقوة.

لا يعلم زين تلك الأحداث لذا يسير في طريقة بخطوات واثقة.

لكن هناك مَن وصله خبر ما حدث .. كان في بداية الليل يجلس وحيدًا وفي داخله سعادة .. فقد تحرك الكون من حوله ليحمل إليه الإرث الشيطاني الذي تركه الجندي شرموخ، كان من الضعف لدرجة لا تجعل لديه القدرة على اتخاذ خطوة حقيقية للسيطرة على ذلك الإرث، كما أن رفاقه من الجان كانوا أضعف من أن يذهبوا إلى المنزل المهجور والجميع يعلم أن هناك حرسًا دائمًا مكبلًا بتعاويذ قوية للبقاء في المكان.

إنه مسيحة الأعرج .. الوحيد الذي عَلِمَ تفاصيل ما حدث في منزل حسين شعلان، فما لبثت سعادته أن تغيرت إلى توتر وقلق، إن عَلم زين بما حدث قد يعود ولا يكمل طريقه، يظل مسيحة الأعرج حائرًا بين الانتظار أو الذهاب لحثّ زين على استكمال طريقه، بعد وقت ليس بالقليل يقرر الذهاب لمقابلة زين، هو يعلم أنه في طريقه الآن إلى المنزل المهجور، بعد لحظات يسير بسرعة في طرقات القرية فيظهر حَجْلُه كالقفز .. يتذكر ولا يعلم كيف يتذكر شيئًا

Scanned by CamScanner

كهذا في وسط أحداث مشتعلة كالتي يمر بها الآن .. يتذكر حشرة أبي النطيط وكيف يقفز الآن مثلها .. لم يكن يعلم بالطبع أن تلك الحشرة التي يطلقون عليها في الأرياف لقب أبي النطيط هي الجراد آكل كل أخضر.

في حجله السريع ورغبته في تحقيق تلك الخطوة ما جعله يصل بسرعة فيقابل زين بالقرب من المنزل المهجور، كان يخشى الاقتراب من المنزل، لكن الحظ ابتسم له وجعله يقابل زين بعيدًا، يرفع يده بإشارة ذات معنى .. إشارة كانت لرفقائه من الجن بأن يستوقفوه عنوة .. فجأة يشعر زين بأنه مكبل بالفعل .. ثمة قُوًى خفية تُمسك بيديه ورجليه، يلتفت يمينًا ويسارًا فلا يشاهد أحدًا، مسيحة يقف في زاوية مظلمة لا تصل إليها أضواء النجوم التي تُبدد ذلك الظلام الحالك أو تصل إليها أشعة متسللة عبر نوافذ بدأ أصحابها في إشعالها إيذانًا باقتراب أذان الفجر واستعدادهم للصلاة، يعلم مسيحة أن الفجر قد أوشك على الطلوع، لكن عدد مصلي الفجر في نزلة شرموخ قليل كما أن هذا القليل يتفادي المرور عبر طريق المنزل المهجور.

لا يعلم مسيحة لماذا يقف في تلك الزاوية المظلمة ما دامت الظروف كلها تميل ناحيته، لكنها سمت المخطيء، يتوارى حتى يدرك هدفه تمامًا فيظهر كي يتباهى .. يهمس بكلمات تخص تعويذة أعدها خصيصى من أجل السيطرة على زين وتغيير ولائه.

Scanned by CamScanner

بعد لحظات تعود إلى زين قدرته على الحركة، لكن تفكيره الآن تغير .. لم يعد ينتظر تلك اللحظة التي يعود فيها بحمله إلى حسين شعلان وابنته شيماء .. إنما سيعود بحمله إلى هذا المكان وبالتحديد إلى تلك الزاوية المظلمة كي يُسلم ما يحمله إلى مسيحة الأعرج.

يصل زين إلى المنزل .. يعلم على وجه التقريب موقع الباب .. يتحسس في الظلام حتى تصطدم أصابعه بالقفل، يمسكه بيد ويده الأخرى تحمل المفتاح كي يضعه فيه .. لكن المفتاح يتعثر .. فتحة القفل صدئة وقد غطتها أتربة الزمن، يُعمل يده بالمفتاح في ثقب القفل بهدوء، وبعد لحظات يميل وينفخ في الثقب بقوة ثم يعاود تحريك المفتاح ثم النفخ .. كان يعمل بشكل آلي وكأنه مبرمج على تلك الخطوات من قبل .. الغريب أنه لم يشعر بأي ضجر، فالشعور بالضجر أو بالسعادة يخصُّ المشاعر .. هو الآن بلا مشاعر .. هو مسلوب الإرادة تمامًا.

لا يعلم كم من الوقت مَرَّ عليه، حتى إنه لم يستمع إلى صوت المؤذن بأذان الفجر منذ دقائق، حتى يدخل المفتاح كله في ثقب القفل ويدور في يديه يمينًا ويسارًا حتى يشعر بتلك التكة التي تُعلن عن فتح القفل، يستخرج القفل بمفتاحه من الرزة ويضعه على الأرض بجوار الباب، يدفع الباب بهدوء لكنه لا يتحرك .. يدفعه بقوة أكثر لكنه أيضًا لا يستجيب .. بقدمه اليمنى

Scanned by CamScanner

يتحسس أسفل الباب .. يتأكد من شيء يعلمه مسبقًا، الجزء السفلي من الباب يغوص في الأتربة التي تراكمت حوله مع مرور السنوات، بنفس الحركات الهادئة ينحني زين وبأطراف أصابعه وكأنها مخالب قوية يبدأ في رفع الرماد والحصى الملتصقة بالباب .. يجد صعوبة شديدة فيبحث في الجوار عن أي شيء يساعده في الحفر، يعثر في البداية على قطعة خشب يحفر بها لحظات لكنها تنكسر في يده وتغوص سلخة منها في كفِّه ويسيل دمه، لا يتأوَّه رغم ألمه، يستخرج من جيبه منديلًا ورقيًّا يوقف به الدم، يبحث عن شيء آخر للحفر، بعد مدة يعثر بجوار شجرة، أمام منزل يحتل ناصية الشارع، على فأس صغيرة صدئة متآكلة الأطراف، يبدو أن أحدًا كان ينظف بها حول الشجرة وتركها منذ وقت طويل، فأس بلا يد .. يعود بها إلى باب المنزل المهجور وهو سعيد .. سوف يحقق ما يريد.

يستمر في الحفر دقائق حتى تبدأ ضلفة الباب في الحركة .. تتزايد بداخله القوة لتحقيق المطلوب، ومن ثم تتزايد حركته .. يحفر بالفأس لحظات ثم يتركها ليرفع التراب بأصابعه ثم يعود للحفر وهكذا .. لم يشعر بأنفاسه تتسارع ولا بالعرق يسيل منه غزيرًا، ولم يشعر أيضًا بأن الوقت يمر وأن خيط الليل الأسود ينسحب ليترك المكان لخيط النهار الأبيض في الانتشار.

فجأة يأتيه من خلفه صوت أنثوي رقيق يناديه: زين.

Scanned by CamScanner

(٣٣)

«إلهام»

أشرقت شمس هذا اليوم مبكرًا وتسللت أشعتها من فتحات في نافذة الحجرة لتسقط على وجهي النائمين، بحركة لا إرادية يتفاداها جمال بأن رفع يده ليواري بها عينيه ويستكمل نومه، ساعات قليلة تلك التي مرت ولا تكفي جسده المنهك. إلهام كانت مثل فاقدة الوعي .. إرهاق جسدها لم يكن إلا جزءًا يسيرًا مما تشعر به من إرهاق عظيم، كانت مرهقة الذهن بشكل آلَمَ خلايا جسدها .. هذا الإرهاق يكفي سكان مدينة للنوم ساعات طويلة .. لكنه من شدته جعلها لا تستطيع النوم..

مع مرور الساعات ذهبت إلى منطقة بين النوم واللانوم .. بين الوعي واللاوعي .. بصعوبة شديدة تتقلب كي تُبعد وجهها عن أشعة الشمس

Scanned by CamScanner

المتسللة عبر ثقوب النافذة .. تتألم .. تتأوّه بصوت مسموع لا تدركه .. كما أنها لم تدرك كم مَرَّ من الوقت وهي غارقة في هذا البحر الهلامي اللزج من الأفكار المتلاطمة.

تعتدل في مكانها بعد أن تعلو دقات الباب .. تنزل إلهام من فوق السرير وهي تدور بعينيها في المكان لتتذكر أين هي .. لسانها ثقيل وهي تجيب الطارق بأنها آتية فيتوقف عن دقّ الباب.. تنظر نحو جمال فتجده يتقلب في مكانه وقد ثنى المخدة الطويلة كي يغطي بها وجهه. تتساءل بصوت ناعس عمن بالخارج .. ففي اللحظة الأخيرة التي تمدُّ يدها فيها لتفتح الباب تتأمل نفسها .. إنها ترتدي ملابس نومٍ خفيفة، وهي لا تعلم مَن بالخارج .. يأتيها صوت أجش .. إنه رجل .. تطلب منه الانتظار لحظات .. تعود لتوقظ جمال في همس .. تبدأ في ارتداء ملابسها ..

بعد ساعة كانا يستقلان سيارة خاصة تنقلهما من مدينة المنيا إلى قرية نزلة شرموخ، لقد اقترب النهار من الانتصاف والشمس تتعامد أشعتها على الأرض والظلال تتضاءل حتى تتوارى أسفل الأجساد .. تمر السيارة في مدخل القرية بمنطقة كثيفة الأشجار .. النخيل والكافور والصفصاف وأعشاب كثيفة على حافة ترعة صغيرة وساقية مهجورة تعلوها شجرة جميز

Scanned by CamScanner

عتيقة كثيفة الأغصان .. تهبُّ عليهما نسمات رقيقة تحمل مزيج من روائح زهور الحقول ..

جمال شارد في المكان ولو كانت ظروف أخرى لشاهده من أروع الأماكن على الإطلاق .. تمنى لو يمتلك كاميرا كي يلتقط أكثر من صورة رائعة ويحملها للأصدقاء على الفيس بوك.

إلهام لم تنجح في إزالة صورة ذلك الرجل الثقيل الذي كان يدق الباب في اللوكاندة .. حينما شاهدته لحظة أن فتح جمال الباب وقد شعرت بانقباض في صدرها .. نظراته شرسة شهوانية .. في عينيه لمعة الرغبة طافحة .. يعرض عليهما تجهيز الفطور ويأتيهما به .. لكنها ترفض بإصرار وتحمل حقيبتها وتخرج يتبعها جمال، يستوقفهما الرجل بصوته الخشن طالبًا منهما مبلغًا ماليًّا إضافيًا لأنهما دخلا في اليوم الجديد .. نوع من السرقة المقنعة .. لم تكن لدى إلهام أي رغبة في مجادلة هذا الرجل .. لقد شعرت بحقيقته في اللحظة التي وقعت فيها عيناها عليه .. تلقي له ورقةً مالية وترحل، تجذب جمال المعترض على هذا الابتزاز .. تضع يدها على فمه كي لا يُكمل كلماته من أن ذلك سرقة و .. تشير إلى أول سيارة أجرة تقابلهما وتتفق مع سائقها على توصيلهما إلى نزلة شرموخ ولا تناقشه فيما طلبه من مال.

Scanned by CamScanner

تبدو نزلة شرموخ مثل جسد أسطوري ضخم سقط من كوكب بعيد ليستقر في هذه البقعة من الأرض .. كلما اقتربت السيارة ظهرت تفاصيل المكان .. البيوت كتل خرسانية من طابق وحتى خمسة طوابق .. تغيَّرت المعالم عبر السنوات الأخيرة التي هجرت فيها القرية .. هُدِمت بيوت قديمة وحل محلها بنايات جديدة .. الكتل الخرسانية زحفت بشكل كبير على الأرض الزراعية التي كانت تحيط بالقرية .. يبدو أن عددًا سكان النزلة قد تضاعَفَ، ومن ثمَّ تضاعفت الرقعة السكنية رأسيًا وأفقيًا.

تمرُّ السيارة أمام المدرسة .. تشهق إلهام بصوت مسموع .. تتأمل بوابة المدرسة .. هي على حالتها منذ أن فارقتها .. أشجار الحديقة تبدو عبر البوابة وسور المدرسة كثيفة الأغصان .. تشير إلى السائق بأن يتوقف .. تفتح الباب وتهبط أرض الشارع ولا ترى من الوجود غير إلهام التلميذة تسير بين الزميلات و«سامح» ينتظرها على جانب الطريق وعيناه تلمعان ببريق الحب.. تفيق من شرودها على يد جمال يهزُّها برفق .. تتأمله في حنان وسعادة .. هو الآن في سنْ سامح وجسده وقتها .. أمسكت براحة يده في هدوء .. السيارة تبتعد عن المكان .. أعين متلصصة تتبعها في الطريق أو عبر النوافذ.

تتوغل إلى داخل القرية .. هي الآن تعلم الطريق المؤدية إلى منزل عائلة الجندي .. لكنها تعلم أنه مهجور .. منزل هناء الجندي هو قبلتها الآن .. هي

Scanned by CamScanner

الباقية من العائلة في القرية .. إن كانت على قيد الحياة .. تسير وخلفها جمال يحمل حقيبة الملابس الصغيرة.

كان لها أقارب من ناحية والديها .. لكنها تعلم منذ البداية أنهم فروا مثل فئران مذعورة حينما ظهر الجندي فجأة وأوصدوا أبوابهم في وجه أبيها، لا يمتلكون قدرة على مواجهة هذا الرجل .. لن تنسى إلهام كلمات سمعتها بأذنيها وما زال صداها يتردد:

– ليتك يا رجل (يقصدون والد إلهام) لا تذكرنا أبدًا .. إننا نبرأ من صلة القرابة بيننا.

لم تقصد أحدهم يومًا ولن تقصدهم اليوم وإن تغيرت أحوالهم أو نمت بذورهم وتشكّلت أشجار جديدة لها أفكار جديدة .. أيضًا لن تلجأ لأحدهم.

كانت إلهام تتألم تحت تأثير الذكريات .. لم تكن تبالي بنظرات الدهشة أو الشهوة في عيون المارة أو الجالسين في الظل أمام المنازل وتلك عادات تعلمها جيدًا .. الشارع مجلس للسمر .. انتشرت محلات البقالة بشكل ملحوظ تعلوها لافتات حديثة بالألوان والصور .. اسم المحل وبجانبه اسم صاحبه وأكبر أولاده مع صورة أو أكثر لصاحب المحل وولده على نفس اللوحة الكمبيوترية.

Scanned by CamScanner

أيضًا ظهرت المقاهي وترابيزات تنس الطاولة والبلياردو في الطرقات .. الملحوظ بشكل كبير هو عدد المارة في الشوارع، والأطفال بملابسهم ما بين نظيفة ومتسخة أمام البيوت يلعبون في صخب. سيدات ريفيات صغيرات في السن يتحدثن في هواتفهنّ المحمولة بصوت مسموع وضحكات مائعة وأعينهنّ تتابع إلهام وابنها في تساؤل بغيض، حتى إن إحداهن طلبت من محدثتها أن تنتظر وأنزلت يدها التي تحمل تليفونها إلى جوارها وهي تقف من مجلسها أمام منزلها وتعترض طريق إلهام وجمال متسائلة في فضول، أكثر منه رغبة في تطوعها للمساعدة، عن وجهتهما .. سوف تساعدهما في الوصول إن كانوا تائهين؟ ينظر جمال نحو أمه في صمت .. تهز إلهام رأسها بالنفي شاكرة .. لا تعلم إلهام لماذا تولدت بداخلها رغبة في سحق هذه المتطفلة، فنظرت نحوها باستعلاء كي تشعرها بالدونيةوهي تقول:

- نعلم طريقنا جيدًا.

ثم تتحرك في ثقة وخيلاء حتى إنها دفعتها بكتفها لتزيحها عن طريقها، خلفها جمال يخطو يمينا خطوة واحدة كي يبتعد عنها .. لا تبالي الريفية بتلك النظرة أو الطريقة التي نطقت بها إلهام الكلمات وتُكمل حديثها في هاتفها بصوت مسموع قائلة: «خيرًا تعمل شرًّا تجد»، يبدو أن مَن يحدثها على الهاتف سألها عن التفاصيل، تجيب بصوت تتعمد أن يكون مسموعًا: «أنا

عارفة يا أختي! واحدة بشعرها .. مفكره نفسها جميلة»، ويتلاشى صوتها مع ابتعاد إلهام وجمال.

دقائق تمرُّ ثقيلة حتى تتوقف إلهام أمام منزل من طابقين .. أمامه حديقة صغيرة لها بوابة خشبية .. الحديقة على جانبيها شجرتا نخيل مرتفعتان .. وتكعيبة عنب تظلل المساحة المتبقية من الحديقة .. تبدو من فتحات البوابة الخشبية شجيرات الريحان على جانبي ممر يؤدي إلى المنزل .. في الجهة اليمنى من الحديقة مائدة مربعة من خشب زالت عنه الألوان عبر السنين .. حول المائدة يجلس عدة أفراد .. يتحدثون بصوت هادئ لا يصل إلى إلهام وجمال.

حينما يلحظ جمال تباطؤ أمه يتقدم هو ويدق البوابة الخشبية .. من الداخل تتوجه إليهم كل العيون متساءلة .. تقترب إلهام لتقف خلفه مباشرة .. تُخفي جسدها خلف جسده لكن عينيها تتأملان الجالسين ..

كان يجلس حول ترابيزة الحديقة كل من السيدة هناء الجندي .. يبدو عليها الإعياء الشديد .. عن يمينها ابنها حسن وعن اليسار ابنها زين وعليهم علامات تساؤل ودهشة .. أمامهم تجلس كرمة وشقيقتها هايدي .. عبر المسافة القليلة التي تفصل بينهم تتلاقى أعين جمال وكرمة .. في داخل كل منهم سؤال: متى التقينا من قبل؟

لكن هناك عيونًا أخرى تتأمل لحظة قبل أن ينطلق منها شرر .. إنها أعين هناء الجندي تتأمل إلهام.

Scanned by CamScanner

(٣٤)

«العائلة»

يسود صمت رهيب، تنتفض الصدور حتى يُخيَّل إليك أنك تسمع أصوات دقات قلوب تلك المجموعة التي تجلس في حديقة منزل هناء الجندي، هناك أيضًا أصوات العصافير التي أوت إلى ظلال الأشجار هربًا من حرارة الشمس التي توسطت السماء.

المكان في ظل أشجار النخيل والعنب لطيف، رائحة زهر الأقحوان المخلوطة بروائح نبات الريحان تجعل النفوس تهدأ وتحلق الابتسامات فوق الوجوه، لكن هذا مع أفرادًا آخرين، لا تتحكم في عقولهم حفنة من الشياطين، فلم يلحظ أحدهم روعة الظل ولا سحر عطر النباتات .. وجوههم مكفهرة، سوداء من تصاعد دماء الغضب إليها.

Scanned by CamScanner

هناء ..

شاخصة ببصرها إلى الفراغ السحيق الذي يجسده الشارع الممتد من أمام منزلها حتى يتلاشى في الفضاء خارج القرية، تعود بالذاكرة إلى عمق الماضي .. عشرات السنين مرت .. كانت صغيرة حينما تغيرت الأحوال ومات والدها ونبذهم أهل نزلة شرموخ، كل ما تتذكره هو ما ترسَّب بداخلها في ذلك الوقت، فما حدث لأسرتها ما تم إلا مع دخول إلهام، الفتاة الجميلة اللعوب إلى أسرتهم، يموت والدها بطريقة بشعة .. تتغير الأحوال .. تنقلب الأخوة بين أخويها مصطفى وسعيد إلى عداوة حقيقية إلهام سببها .. تموت الأم بطريقة أكثر بشاعة .. يرحل أخواها إلى مناطق مجهولة وتنقطع أخبارهما .. حتى هي .. هناء .. تزوجت أول شخص تقدم لها قبل أن تحتويهم سحابات الحزن والشتات.

سنوات قليلة تمرُّ لم تشعر فيها بطعم الحياة حتى تجد نفسها أمًّا لأطفال وزوجها يُصارع سرطان الكبد شهورًا يذبل فيها جسده وتتحول بشرته السمراء إلى صفراء قاتمة، جلد لزج على عظام بارزة .. عينان جاحظتان بياضهما أضحى أصفر أدكن .. لن تنسى هناء أيامه الأخيرة التي كان يذهب فيها عقله بسبب تسرب السموم إلى دمائه .. فقد فشل الكبد تمامًا .. يموت

زوجها تاركًا لها حياة أكثر إيلامًا مما كانت تتخيل. حياتها قبل دخول إلهام إلى أسرتها كانت غير حياتها بعدها، هي سبب تعاسة هذه الأسرة .. هي الآن آتية بولدها وتجلس أمامها في حديقة منزلها .. آتية وخلفها - بلا شك - مصائب جديدة.

إلهام ..

تجلس وقد نظرت إلى أسفل قدميها، تحاول بكل ما تمتلك من قوة ألا تستدعي تلك الذكريات التي انسلخت منها زمنًا، لم تتخيل من قبل أن تعود إلى هذه القرية مرة أخرى، لم تنتظر قط أن تشاهد أحد أفراد تلك الأسرة التي قتلت بداخلها الحياة وحولتها إلى مسخ شيطاني، منذ أن فارقت نزلة شرموخ تخيّلت أنها بدأت حياة جديدة .. يوم قتل زوجها في ظلام الليل بين المقابر شعرت أن آخر خيط يربطها بالقرية قد زال تمامًا .. لقد تلاشت أسرتها ببساطة شديدة كما يتلاشى النهار، الجندي شرموخ أسرها محظية لولده ومارس أعماله الشيطانية للقضاء على أسرتها، منزل يحترق بكامله وبداخله الأسرة! لا ينجو حتى زوج حمام! لو كانت تستطيع أن تتحدث وقتها لصرخت أمام العالم كله بأن الجندي عبدالحميد شرموخ هو مَن قتل عائلتها ودمَّر إرثها .. لكنها كانت مسلوبة الإرادة والفكر، حتى القدرة على

الكلام كانت بيد هذا الرجل وزوجته وابنهما من بعدهما، الآن .. أجبرتها تفاصيل الحياة على الوجود هنا .. في منزل هناء الجندي! أي سخرية تلك التي تلقينا تفاصيلُ الحياة إليها؟!

كرمة ..

تتابع بهدوء أختها هايدي التي تتأمل المكان والوجوه في صمت وقد ضمت ساقيها إحداهما إلى الأخرى بشدة، سوف تشعر بإرهاق شديد في عضلات فخذيها بعد فترة، تقرأ على ملامحها ندمها الشديد من الوصول إلى هذا المكان ومقابلة هؤلاء القوم، لقد كانت هايدي، في منأى عن هذه التفاصيل الرهيبة، ففي هذا التوقيت كانت تبدأ يومها .. تصحو من نومها في تكاسل .. تطالع صفحتها على فيسبوك وتويتر، ترد على الرسائل بعبارات لاذعة .. بعد دقائق تخرج من أسفل ماء الدش التي تتصاعد أبخرتها لتملأ المكان .. تتأمل جسدها العاري في المرآة وعلى ملامحها ابتسامة .. تلفُّ جزءًا صغيرًا من جسدها بفوطة متوسطة الحجم .. تصنع الكابتشينو وتحمل مجّها إلى غرفتها قبل أن ترتدي ملابسها .. تتناول مشروبها على نغمات موسيقية تنساب من أحد مواقع الإنترنت الموسيقية على هاتفهان بينما تتصفح الجديد على صفحات الأصدقاء .. تفاصيل ما أروعها تفتقدها هايدي اليوم وهي

Scanned by CamScanner

تجلس في قرية في صعيد مصر تُدعى نزلة شرموخ بين أشخاص لم تشعر نحوهم بأُلفةٍ ما.

تبتلع كرمة حزن أختها البادي على ملامحها مع حزنها هي وتحاول أن تتفاعل مع الجمع .. نعم كرمة كانت تشعر في هذه اللحظات بحزن وخوف .. حزن مما اكتشفته عن أسرتها .. دنس، سحر أسود، قتل، فرقة بين أفراد العائلة تتحول مع مرور الوقت إلى عداوات حقيقية .. تشاهد بعينيها تفاصيل هذا العداء متجسدًا عبر نظرات مثل سهام حادة بين عمتها هناء وإلهام زوجة عمها.

تهرب من اللحظة القاسية .. تعود بالذاكرة إلى عدة ساعات مضت، حينما وصلت بصحبة أختها هايدي إلى نزلة شرموخ، ذلك اللقاء الأسطوري مع ساكنة الساقية المهجورة، كلماتها محفورة في ذاكرتها .. سوف تنفذ ما أملته عليها خلال الأيام القادمة ولن تُفصح بتفاصيله لأحد، فجنود خلاباش ينتشرون في كل مكان كما أخبرتها الغولة، تتذكر بيوت القرية الغارقة في صمت يقارب صمت القبور وهي تسير بينها عبر الطرقات وكأنها تحفظها عن ظهر قلب، على الرغم من أنها المرة الأولى في حياتها التي تصل فيه إلى هذه القرية، تتعجب هايدي وهي تسير خلفها لكنها لا تمتلك القدرة على طرح أي سؤال، هي تسير وفقط تعلوها الدهشة.

Scanned by CamScanner

انتشرت خيوط الصباح مثل خيوط العنكبوت، لا حركة في الطرقات على الإطلاق، فجأة تنحرف كرمة إلى شارع جانبي ثم تتوقف لحظة وهي تتأمل ذلك الشاب المنحني أمام باب منزل قديم يحفر في الأرض، تقترب كرمة لتربت على كتفه وهي تناديه بهدوء «زين» يتأملها في صمت وذهول، خلفها شقيقتها صامتة مثل فتاة خلقت بلا لسان، تمدُّ كرمة يدها نحو زين، تجذبه من يده مبتسمة ابتسامة مطمئنة مُقدِّرةً ذهوله، سوف تشرح له وهم في الطريق. لم تكن تعلم .. ولم يكن يعلم زين وهايدي من خلفها .. أن هناك مَن يتبعها للحماية، منذ تركت الساقية المهجورة، وقد بذل جهدًا رهيبًا في إبطال تعويذات مسيحة الأعرج المنتظر في جانب مظلم في انتظار عودة زين، حينما يعلم مسيحة بأن هناك قوًى خفية تقابل سحره الأسود يفر من المكان كأنه دفقة دخان تلاشت في الحال.

للكلمات معانٍ تختلف باختلاف الزمان والمكان .. حُرِمت كرمة استخدامَ مثل هذه الألقاب من قبل، عمتي .. زوجة عمي .. ابن عمي .. أبناء عمتي .. كانت تردد هذه الكلمات داخل عقلها محاولة أن تستشعر بداخلها أي تأثير لها، نعم .. لها تأثير .. مؤكد .. يشعر به من افتقده طوال حياته وعثر عليه أخيرًا .. يشعر به أكثر مما يشعر به فرد آخر وقد ولد فوجده لصيقًا بكلمات

Scanned by CamScanner

البداية .. هناك أيضًا تلك الرجفة الخفيفة التي تسري في جسدها مثل تيار كهربي ضعيف مُتولِّد من عيني جمال ابن عمها الذي لم يرفعهما عنها منذ أن جلس مواجهًا لها.

لكن هذا التأثير كان منقوصًا لأن هناك تفاصيل أخرى أكثر إثارة تسيطر على المشاعر التي كان يجب أن تُوجه إلى هذه العلاقات الأسرية، أيضًا كانت منقوصة لأن هناك كارثة في طريقها إليهم .. هناك قتيل منتظَر .. ترى مَن هو من بين تلك المجموعة التي تجلس داخل هذه الحديقة يتأمل بعضهم البعض في صمت وترقب؟

جمال..

يبحث عن ذاته .. يجب أن يصدر عنه أي رد فعل أو حتى يكوِّن آراء نحو المجموعة الجالسة .. لكنه لا يشعر تجاه هذا اللقاء الغريب بأي شيء .. لأنه ببساطة كان مأخوذًا كلية .. فقد شعر في تلك اللحظة التي تقابلت فيها نظراته بنظرات كرمة برجفة عظيمة في أحشائه .. كأن يدًا عظيمة تعتصرها .. لكنه اعتصار لذيذ .. خَدَرٌ يسري في جسدِه وكأن هناك إفرازات تمسُّ أوتار البهجة فينتفض القلب في مكانه مثل عصفور صغير يرفرف بجناحيه يودُّ لو يحلق في الفضاء، يتأمل عيني كرمة فيجدهما سوداوين يسبحان في بحر ناصع

Scanned by CamScanner

البياض، وجهها المحاط بإيشارب بلون السماء مدوَّر أبيض مثل قمر مكتمل في ليلة صيف .. جسدها متناسق .. أصابع يديها قصيرة ويدها مكتنزة .. هي نفسها التي شاهد طيفها من قبل في أحلامه .. لكنه الآن مأخوذ مسحور إن أردنا الدقة .. في داخله فتى يافع مُحبٌّ للجمال يرفض آلام الواقع على غير إرادة منه، يتعلق بأي لحظة روعة تُشعره بروعة الكون، شاهد خلال الأيام الماضية ما يكفيه من عذابات .. اليوم .. الآن .. ينسى كل ما سبق .. بل يتذكره مثل ومضة كان لا بد منها كي يصل إلى هنا.

لا يدرك جمال، كما لا يدرك غيره لأنها طبيعة بشرية، أن لحظة هناءة تُنسي آلام دهرٍ .. كما أن لحظات الألم تُنسي سعادة عمرٍ مضى.

زين ..

تتداخل مشاعر السعادة والاضطراب في عقله حتى إنه لا يستطيع أن يتحدث لئلا يفشل في التعبير عن ذاته المضطربة، يؤثر الصمت ويتابع في هدوء، يلاحظ نظرات جمال التي يرنو بها نحو كرمة، يشعر بخجل إن اكتشف أحد أنه يتابعهم فيُلقي نظراته بعيدًا .. لتستقر على هايدي .. صغيرة متألقة وإن كانت نظراته منكسرة لكنها مثل قطة ضعيفة تنتظر لحظة يُفتح فيها باب قفصها الصغير كي تنطلق.

Scanned by CamScanner

لأن زين لم يكن صاحب تجربة حتى ولو في خياله فقط .. ولأن زين فتى بِكر لم يلملم وشاح عذريته غير أول فتاة اقتحمته وهي شيماء .. ولأن زين محدود الفكر يتلقى من الكون كل التأثيرات ولا يؤثر فيه أبدًا .. ولأن زين لم يكن يعلم حتى اللحظة ما حدث لشيماء وأسرتها .. كان يجلس وعيناه مثبتتان على هايدي يبتسم لها في صمت ولا يعلم لماذا .. لكن بعد لحظات يلاحظ أن شرودها وتوترها هما ما جعلاه يركز نظراته نحوها على هذا النحو.

حسن ..

الذي ظَلَّ يتأمل الجمع دقائق منتظرًا أن يبدأ أحدهم إلقاء حجر صغير يحرك به الماء الراكد، ولمَّا لم يفعل أحدهم ذلك يقرر أن يحمل مشعل البدء ويتحدث هو .. سوف يتحدث لأنه أكبر الذكور .. ويُعتبر هو الآن كبير العائلة وتلك مسئولية يجب أن يكون على قَدْرِها. يواري هزة ورجفة كانت قد تسربت عبر خلايا جسده وهو يتذكر والده قبيل وفاته بساعات وقد نحل جسده وتحولت بشرته إلى اللون البني ونفرت عظامه .. الأب سند يشعر بعده الأبناء بخواء رهيب.. يزدرد لعابه فيجد حلقه جافًّا بشكل كبير حتى إن الكلمات الأولى خرجت غير واضحة فاضطر حسن إلى تكرارها:

- قبل أي حديث وأي خطوة .. يجب أن نجتمع نحن أبناء عائلة الجندي حول مائدة .. نأكل من نفس الطبق ونشرب من نفس الكوب.

Scanned by CamScanner

يفهم الجميع ما يرمي إليه حسن، بعضهم يسعد بذلك فهي بادرة لطيفة يبدؤون بها علاقاتهم الجديدة، لكن هناء الجندي كانت على النقيض حيث احتقن وجهها حتى أوشك على أن تتفجر منه الدماء، نظرات بغيضة ما تزال توجهها ناحية إلهام.

إلهام أومأت بالموافقة على دعوة حسن إلى الطعام .. كنوع من استهلاك الوقت حتى يتم تفريغ الشحنة الانفعالية لدى ولدها وترحل به عن المكان .. وإن كانت قد لاحظت نظراته نحو كرمة فداخلها مزيج بين الراحة لأنه وجد ما يشغله عما أتى به إلى هذا المكان الموبوء، وبين القلق من نظراته نحو ابنة سعيد الجندي .. وإن كانت ملامحها تُنبئ عن اختلاف عن طبيعة تلك العائلة فإنها تظل حتى النهاية حفيدة الجندي شرموخ.

يُجري حسن اتصالًا بزوجته طالبًا منها أن تحمل إليهم الطعام .. ينصت إليها لحظات وتتغير ملامحه .. ينظر الجمع نحوه في انتظار ردّ فعله على ما يستمع إليه .. مؤكد أن زوجته قد أجابته بشيء خطير مثل هزة أرضية أسفل الماء تُخرج كل ما يرسو في القاع إلى السطح فيتعكر الماء .. يُنهي حسن المهاتفة ويتوجه بنظراته إلى أمه تارة وزين تارة أخرى، بعد لحظات صمت طالت حتى آلمت أمه .. يخبرهم حسن بأن زوجته قد أخبرته الآن بتفاصيل رهيبة .. رجال الشرطة قد أتوا بكثافة وهم الآن في منزل حسين شعلان .. أو بالأحرى في منزل أسرة مقتول أفرادها بشكل غامض حسين شعلان وزوجته وابنتهما شيماء .. ومؤكد هناك قاتل .. يبحثون عنه الآن .

(٣٥)

«كرمة»

قبيل الغروب .. على أطراف قرية نزلة شرموخ .. تغرد العصافير التي تلهو في أسراب على شكل رأس سهم قبل أن تهبط بشوق كي تستقر بين أغصان أشجار متناثرة على جانب طريق ضيق ينحدر ملتويًا بجوار ترعة ضيقة مثل شقٍّ عشوائي في الأرض، ماؤها قليل يغطيه نبات ياقوتية الماء مع طحالب بنية تتزايد كثافتها في اتجاه الشاطئين، يغطي سطح الماء حبيبات خضراء في حجم حبة العدس .. تتساءل كرمة عن كينونته؟

ترتدي كرمة ملابس رياضية عبارة عن ترنزج سوت وحذاء رياضي خفيف، ملابسها لا تبرز ثنايا جسدها مثل ما ترتديه أختها كرمة التي تسير خلفها بجوار زين .. كرمة كانت تتحدث مع جمال بصوت خفيض .. أحاديث التعارف الأولى .. يحدثها عن نفسه وتُحدِّثه عن نفسها:

Scanned by CamScanner

– أحب طريقة ...... في الملابس ..

تجيبه:

– أما أنا فأحب ...... وفي الطعام أتناول .....

فيجيبها قائلًا:

– أما أنا فأحب .....

وهكذا حتى لفت نظرها هذه الأشياء الخضراء الصغيرة المنتشرة على سطح الماء، تسأل عن كنهها.. يلتفت جمال إلى الخلف وهو يشير نحو سطح الماء وكرر السؤال على مسامع زين، يقترب زين منهم ورأسه يدور بينهم وبين هايدي التي كانت تشعر مع نسمات الهواء التي تتخلل جسدها بانتعاشة لذيذة جعلتها تهدأ قليلًا، يقترب وعلى محياه ابتسامة خجلى دلَّت على نوعية ما سيتحدث به، يخبرهم وهو يشير نحو الحبيبات الخضراء بأنها لا تشبه العدس إنما هي بالفعل عدس الماء، نبات ينمو على سطح الماء، في طفولته كانت هناك عادة قديمة اندثرت مع ما اندثر من عادات، كان يشاهد بعض نساء النزلة في الصباح يخرجن لجمع «عدس الماء» فهو غذاء مُفضَّل لدى الدجاج والبط والإوز، تحمل كل واحدة منهن طبقًا واسعًا ثم تهبط إلى حافة

Scanned by CamScanner

الترعة، وكانت الترعة من قبل أكثر اتساعًا، فلم تكن طالتها يد الطمع حيث أضاف الفلاحون جزءًا من جانبها الأيسر إلى أراضيهم، تجلس السيدة وإلى جوارها الطبق وفي يدها عرجون جاف تمشط به سطح الماء فيتجمع عدس الماء أمامها في كومات صغيرة تتلقفه بيديها وتنقله إلى طبقها وتكرر مرات قبل أن تنتقل إلى مكان آخر حتى يمتلئ طبقها فتحمله فوق رأسها وتعود به إلى دواجنها التي تنتظرها في شغف.

بعد أن انتشر خبر ما حدث في منزل حسين شعلان في نزلة شرموخ والقرى المجاورة انتشار النار في حقل قمح جاف في شهر أغسطس، يشعر زين بارتباك وإن كان لا يتناسب مع حجم الموقف، لكن المتأمل في حال زين يعلم أنه لم يَكِنَّ عاطفة حقيقية نحو شيماء أو أسرتها، إنما كان مسلوب الإرادة، يتعامل معهم عبر حركات يبدو أنها صادرة عن أحد آخر غيره، والدته ويؤيدها شقيقه الأكبر حسن يقررون أنه لن يخرج من المنزل وأن يبتعدوا قدر الإمكان عن هذه الأحداث، لم تمر دقائق حتى تنتشر أخبار جديدة تؤكد أن حسين شعلان قتل ابنته وزوجته ثم انتحر .. كان هذا هو التفسير الوحيد الذي توصل إليه رجال البحث الجنائي واستراح له رجال الشرطة في سعادة، فلن يعانوا البحث عن قاتل هارب.

Scanned by CamScanner

تخرج هناء الجندي دقائق متحاملة على قدميها .. تسير بوهن أمام المنزل وكأنها تتوجه إلى مكان ما، تجد نساء القرية على اختلاف أعمارهن يقفن في جماعات جماعات على شكل دوائر، كل دائرة مكونة من أربع إلى ست سيدات، حديثهنَّ جريمة حسين شعلان البشعة، تلقي هناء كلمات إلى إحداهن وقد جعلت كلماتها هشة تلقائية وهي تقول «كانت زوجته زبونة دائمة عند مسيحة الأعرج .. تعمل السحر لابنها زين .. ربنا أنزل من عنده الخلاص». ثم ترحل بعد دقائق .. تعلم أن تلك الكلمات سوف تتحول إلى خبر ويقين بعد دقائق وسوف تنتشر في نزلة شرموخ، وقد كان .. فأبعدت دوائر الثرثرة عن ابنها إلى أرض مسيحة الأعرج.

مالت شمس هذا اليوم الطويل إلى الزوال، تأتي زوجة حسن بصينية واسعة فوق رأسها وعليها أصناف مختلفة من الطعام، تفوح رائحته لتملأ المكان، إناء يتوسط الصينية، تنتشر منه رائحة مميزة يعلمها أبناء المكان، يجهلها جمال وكرمة وهايدي، تحاول إلهام تذكرها فتجد صعوبة، مَن يجهل تلك الرائحة، إنها الويكا، تلك الأكلة الشهيرة في هذه المنطقة.

بعد أن أتت زوجة حسن بالطعام وقد هدأت الأجواء بعض الشيء، تحدثت كرمة، ولا تعلم لماذا بدأت الحديث رغم وجود مَن هم أكبر منها،

Scanned by CamScanner

عمتها هناء، إلهام زوجة عمها، حسن إبن خالها. شَعُرتْ بأن عليها البدء لأنها تحمل قوة غير عادية تملكتها منذ أن قابلت الغولة ساكنة الساقية المهجورة بعد فجر هذا اليوم، تشعر أيضًا بأنه لا يجب أن يجتمعوا حول مائدة طعام وهناك ضغائن تستقر في القلوب .. لن يشعروا بطعام وقلوبهم وجلة بهذا القدر، يجب أن تُطمئنهم بأن هناك حلًّا وإن كان بالغ الصعوبة.

في داخل كرمة صراع ورعب حقيقي من المنتظر، لكنها في المقابل كانت تشعر .. بل تؤمن بأنها سوف تنجح في تحقيق الهدف، هذا اليقين يضيف إلى داخلها المستعر شيء من الطمأنينة التي حاولت نثرها حولها، حتى إن إلهام ومن خلفها هناء ينظرون نحوها بريبة، نظرة الكبار إلى الصغار، دائمًا يتشككون في قدرتهم على تحقيق النجاح، دائمًا ينتظرون منهم الفشل .. تلك النظرة التي زُرِعت في ثقافتنا وباتت إحدى أهم علاماتها البارزة .. الصغير في نظر الكبير فاشل .. إلا بعد صراعات مريرة حتى يثبت هذا الصغير ذاته .. وقتها يكون قد مَرَّ من عمره الكثير .. فيبدأ الاعتراف به وإعطاءه ما يستحقه في العقد الخامس أو السادس من عمره، بعد أن أفنى شبابه في صراعات لا معنى لها على الإطلاق غير استنزاف طاقاته.

عليهم فقط أن يهدؤوا وينصتوا إليها، لن يضاروا لو انتظروا .. لو يترك كبار السن الفرصة للصغار لشاهدوا نتائج رائعة .. لكن يجب أن يكون ترك

Scanned by CamScanner

الفرصة نابع من رغبة حقيقية صادقة في أن يحقق هؤلاء ذاتهم، وليس انتظارًا للسقوط وإعلان حرب شامتة ضدهم.

تحدثت كرمة كثيرًا عن أن الشباب يمتلك العقل والقوة والجرأة للخوض في أرض المستقبل الوعرة وتحقيق انتصارات رائعة .. فقط لو ينال الفرصة والدعم .. في بعض الدول يتقاعد الناس مبكرًا كي يستمتعوا بتفاصيل الحياة ويتركوا ساحة العمل في مختلف المجالات للشباب .. لدينا يحدث العكس تمامًا وكأن أصحاب المناصب آلهة .. كأنهم قديسون لا يتركون أماكنهم إلا بسبب يخرج عن إرادة البشر .. الوفاة .. ويعلمون أن الوفاة قادمة لكنهم لا يعملون لها إلا في جزئية واحدة وهي تثبيت أقدام مَن يخلفهم من ذويهم أو صنيعتهم من حملة الحقائب وماسحي النعال .. كانت كرمة تتحدث بحماسة حقيقية نابع من رغبة صادقة في الانتصار .. في أن يتغير تفكير المجتمع أسوة بما يحدث من تغيرات في العالم كله، أضافت أنها توقعت أن تتغير طرق تفكير المنطقة بأكملها بعدما حدث فيها من توترات وتغيرات في أشكال الحكم، لكنها وغيرها الكثير صُدِم لأن التغيير الذي حدث هو تغيير وجوه فقط. بالطبع وافقها جمال وعلى وجهه ابتسامة عريضة وهو يستمع إلى كلمات صادقة تعبر عن ذاته.

Scanned by CamScanner

لم يشعر جمال بتفاصيل حركات جسده وهي تجسد «العلامات السبع» الدالة على الإعجاب أو بدايات الحب .. فقد لمعت عيناه وهو يرنو باستمرار ناحية كرمة وزادت ابتسامته وفُتحت الشفتان قليلًا، وحينما كان يتحدث مؤيدًا بكلمات كان يتحدث بهدوء وببطء ولم يشعر بأنه اختار المقعد الأقرب لكرمة، وكانت يده تتحرك بشكل لا إرادى إلى الأمام وساقاه أيضًا، ثم تتحرك يده لتمس وجهه وتمر على شعره.

لكن كرمة شعرت بهذه العلامات، لأنها قرأت عنها من قبل، بدون أن تُبدي أي رد فعل، مثل هذه الأمور مؤجلة الآن، كل ما تفكر فيه الآن كيف تسيطر على خوفها وألا ينتقل إليهم، كانت تشك في قدراتها ولا تعلم كيف ستواجه ذلك الجحيم المنتظر.

بالفعل استمعوا إليها .. حتى هناء التي كانت تنظر نحوها في ريبة في أول الأمر .. هدأت نظراتها وطاف شبح ابتسامة بالقرب من وجهها.

تناولوا الطعام في هدوء، يتبادلون كلمات قليلة، أرادت هايدي أن تشارك في الحديث .. يجب أن تستجيب لرغبة القدر الذي وضعها بينهم اليوم، لو تأملت لحظة لنهرتهم وحملت حقيبتها وغادرت، لكنها ولا تعلم لماذا، رفضت التأمل في الوضع الحالي، بل أرادت أن تشارك بكلمات كي تكون داخل النسيج .. قالت وهي تلوك قطعة صغيرة من صدور الدجاج في فمها:

Scanned by CamScanner

- هل تؤمنون بالأبراج؟ (نظروا نحوها ثم تبادلوا النظرات في صمت)، فأكملت: هل تأمل أحدكم يومًا أن شهادة التوحيد « لا إله إلا الله» عددها اثنا عشر حرفًا وتعادل الأبراج التي يبلغ عددها اثني عشر برجًا وهي: الميزان، القوس، الأسد، العقرب، الحوت، السرطان، الدلو، العذراء، الحمل، الجدي، الثور، الجوزاء.

أثارت المعلومة انتباه الجميع حتى إن زين ابتسم في إعجاب وهو يتأمل ملامح هايدي وحركة شفتيها حينما تتحدث. ينتهون من تناول الطعام وشربوا جميعًا الشاي.

تتذكر كرمة الطريق التي اجتازته في الصباح والأشجار وجداول الماء، وقتها لم تكن تمتلك رفاهية التفكير في الاستمتاع بجمال هذا المنظر .. الآن وقد هدأت .. تطلب أن تتمشى قليلًا .. يوافقها جمال وتتبعها هايدي فيتبعها زين بسعادة.

ها هم الآن يسيرون على مهلٍ بين الحقول بجوار جدول يتلوى يطلقون عليه اسم «ترعة» وتتساءل كرمة عن طبيعة المكان وأسماء الأشياء .. لكنها كانت تسأل في هدوء الشارد .. لقد كان داخلها ما يزال يُقلِّب تفاصيل الأمر بحثًا عن مخرج، تتذكر ما أمرته لها غولة ساكنة الساقية المهجورة والوعد الذي قطعته بحفظ السّر خوفًا من أن يُفتضح أمرها بين بني جنسها فتهلك.

Scanned by CamScanner

(٣٦)

«إلهام»

منذ اللحظة الأولى التي استمعت فيها إلهام إلى اسم «كرمة» وهي تشعر بتوتر وارتباك .. حتى تأكد لها صدق حدسها من أن كرمة في طريقها لمواجهة اللعنة وبطريقة ما تحاول الوصول إلى مَن يساعدها على تحقيق ذلك عبر وسائل غير معروفة.

كان اضطرابها عظيماً حينما تواصلت كرمة مع جمال عبر تخاطُر غريب، ثم كان توتُّرها أعظم حتى بلغ درجة الهيستيريا حينما أخبرها ابنها بأنه في طريقه إلى نزلة شرموخ، وقد علمت أن كرمة وشقيقتها في طريقهما إلى نزلة شرموخ، لذا قررت مصاحبته .. كانت تودُّ لو تذهب وحدها لمواجهة كرمة .. لا بد من وأد رغبتها في مواجهة اللعنة العشرية في مهدها.

Scanned by CamScanner

لم تُفصح إلهام، ولن تفصح – بطبيعة الحال – عما تخبئه من أسرار .. أسرار مَرَّ عليها سنوات جعلتها من أصول وبديهيات حياتها، لن تسطيع العيش بدونها .. لن ترضى بأن يتغير جزءٌ منها.

في هذا اليوم الذي وصلت فيه إلهام إلى نزلة شرموخ .. وبعد لقاء التعارف وتناول الطعام تخرج كرمة بصحبة جمال ويرافقهما هايدي وزين للتجول بين الحقول .. تجلس إلهام وحيدة في حديقة المنزل بعد أن استأذنت هناء في الدخول إلى حجرتها كي تستريح قليلاً .. لم تعد قادرة على الانتصاب فترة طويلة.

تتكسر أشعة الشمس الذهبية المغادرة فوق الأغصان .. تبدأ العصافير في العودة إلى أعشاشها وترتفع أصواتها فيما يبدو بأحاديث حول تفاصيل اليوم .. كلب ينبح خلف دراجة بخارية تمرُّ مُسرعة بصوتها المزعج .. من منزل مجاور أمٌّ تسبُّ ابنتها الصغيرة التي تبكي بلا سبب واضح .. رائحة قلي سمكٍ يحملها الهواء عبر نافذة مطبخ منزل مجاور .. رنين تليفون محمول لا يُعلم مصدره .. تنطلق الحياة بتفاصيلها حول إلهام الشاردة التي لا تدرك منها القليل، كانت تفكر بعمق فيما آلت إليه الأمور.

كانت – وحتى شهور قليلة مضت – تعيش في هدوء وقد تحولت حياتها إلى الأفضل الذي كانت ترجوه بعد سنوات العذاب .. ما الذي حدث حتى تعود إلى هذه الأرض التي كرهتها؟! لماذا تعود إلى نزلة شرموخ مرة أخرى

Scanned by CamScanner

وكانت عنها أبعد ما يكون! لو سُئلت يومًا عن عودتها إلى نزلة شرموخ أو ذهابها إلى القبر .. لقالت إن ذهابها إلى القبر أقرب.

إنها كرمة .. نعم هي كرمة .. هذ ما يدور بداخل إلهام في هذه اللحظات .. كرمة هي السبب .. و لقضاء على السبب هو أيسر الطرق حتى لا تحدث النتائج المروعة التي تنتظر إلهام حدوثها.

سوف تعود بالزمن سنوات .. تنتقل من لحظتها الحالية إلى تلك اللحظة التي قدمت فيها الوعد الملعون، ينتفض جسدها وتعود إلى اللحظة الحالية .. تتأمل المكان فتجد نفسها في حديقة منزل هناء جالسة وحيدة شاردة وقد أشعلت سيجارتها ويبدو أنها لم ترفعها إلى شفتيها منذ أن أشعلتها .. رماد سيجارتها ما يزال متعلقًا بها مع انحناء بسيط، وصلت جمرة السيجارة إلى أصابع إلهام فألقتها إلى الأرض ودهستها بحذائها قبل أن تحمل حقيبة يدها وتخرج من باب الحديقة الصغيرة إلى الشارع .. بدأ الظلام يهبط بجناحيه معطيًا المصابيح الفرصة في إظهار قدراتها، تتسلل إلهام بخطى رشيقة عبر شوارع القرية الضيقة .. تنطلق في حركة تدل على تعجلها ومعرفتها بطريقها، لم تلتفت إلى عيون يقتلها الفضول وهي تتابعها، ففي الأرياف الغريب عن المكان تلحظه العيون وإن كانت ناعسة، لم تكن تشعر بتلك التفاصيل المحيطة بها، البيوت، الأشخاص، الأشجار، السيارات، الدراجات، دكاكين البقالة، فرش الخضر والفاكهة، فقط تشعر بشيء واحد .. داخلها الذي ينتفض

Scanned by CamScanner

وكأن داخله نارًا مشتعلة، لم تشعر حتى بأنها استخرجت علبة سجائرها من حقيبتها المتعلقة في كتفها وسحبت منها واحدة أشعلتها، وظلت تسحب وتطرد دخانها بشراهة فتحوَّلت إلى صورة أكثر لفتًا للأنظار من حولها.

وصلت إلهام إلى منزل الجندي شرموخ .. المنزل القديم المهجور .. ذكريات رهيبة تتصارع بداخلها وصور متداخله لآلاف الأحداث مرت عليها في هذا المنزل، شعرت بدوار خفيف مع اضطراب في أحشائها، ينتفض صدرها وتتنفس بصعوبة، لولا ما أتت من أجله لسقطت مغشيًا عليها من أثر نار الذكريات الأليمة.

تنظر يمينًا ويسارًا حتى تتأكد من خلو المكان، تمدُّ يدها نحو القفل الضخم الصدأ الذي يقبع فوق صدر الباب والذي أعادته كرمة إلى مكانه في الصباح وهي تجذب زين ليبتعدوا عن المكان وخلفهم هايدي. لا تلحظ إلهام أثر الحفر أسفل الباب وهي ترسم بيدها علامات بعينها وتحرك شفتيها بكلمات يصعب على أحد أن يستشفها، بعد دقيقة واحدة تصدر عن قفل الباب تكة تدلُّ على فتح القفل، تمد يدها وتسحب القفل وترفع طرف الرزة ثم تنتظر .. وكأن قوة رهيبة تدفع الباب المتصلب مكانه منذ سنوات، يتحرك الباب بصعوبة مصدرًا أنينًا يشقُّ الصدور .. من داخل المنزل تهبُّ رائحة عفنة تستخرج إلهام منديلًا ورقيًا تضعه فوق أنفها، فجأة تسمع صرخة تشقُّ صمت المكان وحركة تشق فضاءه، طائر أسود غريب الشكل يخرج من المنزل

Scanned by CamScanner

.. يَعْبُر فتحة الباب من فوقها .. ترتعد وهي تتحرك بسرعة إلى جانب الباب .. يعمُّ الصمت .. يجب أن تدخل إلى المنزل .. تخطو بهدوء .. تترك الشارع، تجرُّ قدميها الملتصقتين بالأرض وتتوسط صالة المنزل .. يُغلق الباب خلفها فجأة محدثًا دويًّا يجعلها تنتفض في مكانها أكثر ..

تمر اللّحظات ثقيلة على إلهام بأنفاسها المبهورة وهي تتأمل المكان من حولها، الظلام كثيف والصمت له دويٌّ يكاد يمزق طبلتي أذنيها، لكن أملها في استمرار اللعنة ورغبتها في التصدي لكرمة تغلبت على ذلك الرعب الذي يهاجمها من كل مكان حتى رائحة المكان الخانقة تتغلغل إلى رئتيها فتنفران أكثر وأكثر.

بمجرد أن تألف عيناها الظلام وتكتم أنفاسها المتسارعة لحظات حتى تتمالك أعصابها، تعود إليها قُدرتها على التفكير وتتذكر أنها ما أتت إلى هذا المكان إلا لمقابلته، لكن المقابلة لا تتم هكذا .. عليها أن تستدعيه عبر تعويذة .. منذ سنوات لم تستدعِه، بل كادت تنسى التعويذة .. مع قليل من الهدوء استعادت التعويذة كاملة وبدأت تهمس بها ثم تدريجيًّا يرتفع صوتها .. لم تشعر بحقيبة يدها تنزلق عن كتفها إلى الأرض .. تتأمل الظلام ولم تشعر بعينيها تتحولان إلى لون الدم، ترفع يديها كمن ينتظر شيئًا يهبط من أعلى.

لحظات تمرُّ حتى تسمع أصوات متداخلة تأتيها من الجوار .. نباح كلاب .. نهيق متأزم لحمار .. صراخ لطيور ليلية .. رجل يسب زوجته وتجيبه بصراخ

Scanned by CamScanner

هيستيري يهزُّ المكان .. يرافق ذلك رياح خفيفة تعلو شيئًا فشيئًا وتكوِّن دوامة في صالة المنزل المهجور، دوامة مركزها إلهام التي تستمر في تلاوة تعويذتها بالرغم مما يحدث حولها .. ما إن تنتهي حتى تطبق شفتيها بقوة وتتأمل المكان وقد تشابكت أصابع يديها تستمدُّ منها القوة.

فجأة يتجسَّد أمامها من دخان في البداية ثم على صورة بشرية .. إنه «سعدى» يأتيها على صورة «سامح» يعلم أن قلبها يطمئن حينما يراه، وكأن سعدى هذا يطلب وُدَّها عبر تجسده في صورة مَن عشقته يومًا .. ولِمَ لا وهو حبها الأول .. والحب الأول يخط كلماته على خلايا الروح بمداد لا يُمحى أبد الدهر! يبتسم لها سعدي وهو ينشر يديه في الهواء مستفسرًا عن سبب الاستدعاء.

لقد مرت سنوات طويلة منذ أن قُتل زوجها مصطفى الجندي وتخلصت إلهام من تأثير التعويذة الشيطانية التي فعلها أبوه ليربطها به عبدة ذليلة تحت قدميه. في هذا اليوم يرحل عنها الجني سعدى وقد أخبرها بتعويذة استدعائه إن أرادت ذات يوم .. كانت لا ترغب في العودة إلى هذا العالم .. عالم الجندي شرموخ وعالم الجان وحتى سعدى .. الذي أشفق عليها كثيرًا في الفترة التي سبقت مقتل مصطفى الجندي، بل تعاون معها كثيرًا من أجل الخلاص .. لم تكن تريد أن تلقاه مهما قست عليها الظروف .. فكانت، على مدار السنوات الماضية، تردد التعويذة بداخلها، ولكن فقرات قصيرة غير مكتملة .. رغبة في ألا تنسى التعويذة وألا تستدعي سعدى .. الآن فقط تستدعيه .. وها هو

Scanned by CamScanner

يقف أمامها مبتسمًا متسائلًا عن سبب الاستدعاء .. وكأنها تحمل حملًا ثقيلًا تحدثت بكلمات قليلة وحروف متناثرة، تشهق بين الفينة والأخرى كمن تحارب مفارقة الروح للجسد، تقول:

– عقدنا اتفاقًا من قبل .. لِمَ العودة فيه؟

تبدو على ملامحه الدهشة وهو يتساءل:

– لقد نفذتُ كل تفاصيل الاتفاق يا إلهام .. قُتِلَت أم مصطفى الجندي بطريقة غريبة أبعدت عنكِ كل الظنون، حتى مردة الجان أنفسهم لم يعلموا بأن تلك رغبتك، وأظنُّ كل فريق، أتباع خلاباش وأعوان الجندي شرموخ، بأن الآخر هو المتسبب في موتها .. ثم أشعلنا الصراع بين أبناء الجندي شرموخ حتى انفرط العقد وحمل كل منهم ميراثه ورحل بكِ مصطفى الجندي عن نزلة شرموخ كلها بما فيها من تعويذات وحراس .. حتى وصلنا إلى آخر مرحلة في الاتفاق بيننا .. وتم تنفيذها بالضبط كما طلبتِ أنتِ .. أن يقتل ويُمزق جسده إلى فتات يحار في جمعها الناس وألا يُقام له عزاء، وكأنه كلب صدمته سيارة على الطريق ثم هرسته عشرات السيارات من بعدها .. ألم يكن هذا اتفاقنا يا إلهام؟

ابتلعت ريقها بصعوبة .. لاحظت جفاف حلقها، تمنَّت لو تجد في حقيبتها زجاجة ماء، تأملت سعدى في ظلام الليل وما تزال رائحة المكان تكتم أنفها،

Scanned by CamScanner

تهاوت على ركبتيها مثل طالب صفحٍ ونظرت بعينيها إلى أعلى نحو سعدى وهي تقول:

– هذا حقيقي .. و لو كان الأمر بيدي لأعدته إلى الحياة كي أعذبه حتى الموت ثم يعود ثم أعذبه حتى الموت ألف مرة .. لكنني أحدثك الآن عن كرمة .. كيف أتت إلى هنا؟! ولماذا استدعت ولدي جمال؟ وكيف ستقاوم اللعنة العشرية التي ستقضي على آل الجندي شرموخ لا تدع منهم أحدًا؟!

يجلس سعدى ليواجه إلهام، ما يزال يشعر نحوها بعاطفة ما، منذ أن تركها وقد اعترف لنفسه بذلك فكان يراها من حيث لا تراه .. يأتيها في أحلامها بصور مختلفة وعلى فترات متباعدة .. عشقه لها من البداية جعله هو أسيرًا لها لا العكس، فكان أداتها في التخلص من مصطفى الجندي وأمه من قبله، وكان يدها الفاعلة في استمرار اللعنة العشرية التي كادت تسقط مع مرور الزمن أو تسقط إن تم اللجوء إلى أحد المتعاملين مع الجان لعَقْد اتفاقٍ جديد يقضي بحل تلك اللعنة عن آل الجندي خاصة أن خلاباش لم يكن ذلك المارد العنيد، فقد اكتفى بمقتل الجندي شرموخ وما آلت إليه أحوال أسرته من بعده من دمار وتشتُّت، لولا إصرار إلهام على استمرار اللعنة لتقضي على الأسرة. هي في مأمن من اللعنة لأن دماءها ليست من دماء بني الجندي شرموخ، أما وقد أنجبت جمال بعد رغبتها تلك فلم يعد في مأمن من تلك اللعنة، فأكملت الاتفاق بأن تفعل ما يرغبه سعدى مقابل خروج جمال

Scanned by CamScanner

من إطار تلك اللعنة التي يجب أن تسحقهم ولا تُبقي منهم أحدًا، ويوافقها سعدى حينها، هناك سعيد الجندي، الصامت أبدًا، ما يزال حيًا .. هناك هناء الجندي، تلك الأفعى الناعمة التي كانت تشاهد انكسارات إلهام وعذاباتها، ولم تُحرك ساكنًا وكان الأولى بها وهي فتاة في مثل عمرها تشعر بما تشعر به الفتيات أن تُقدِّم لها يد العون .. أن تستنكر ما تفعله بها أسرتها .. لكنها انزوت جانبًا بنعومة الأفاعي وصمتها .. هؤلاء ما يزالون أحياء، وأبناؤهم كرمة وهايدي وحسن وزين .. لماذا يأتي جمال إلى هنا؟! أليس بينهم عهدٌ على نجاته؟

يتحدث سعدى الذي لم ولن يخبرها بتغير عاطفته نحو كرمة وأنه لم يعد يُشفق على إلهام، يقول بهدوء:

– ما أعلمه أن كرمة أتت لتحاول مواجهة اللعنة، وقد استعانت بأبناء جيلها لمواجهة سقوط الأسرة .. يواجه الجيل الجديد ما تركه لهم الأباء من أسباب الانهيار والسقوط .. هو حقُّهم في الحياة يا إلهام ..

– لكن ذلك لن يتم في يسر و تعلم ذلك يا سعدى .. لا بد من دماء كثيرة كقرابين.

قالت ذلك بانفعال حتى إن دموعها هربت منها بعد طول تحكم فيها وهي تتخيل ابنها جمال قتيلًا وجسده ممزقًا و الدماء أسفله تصنع بركة قاتمة.

Scanned by CamScanner

– لا أعلم ما يخبئه الغد يا إلهام .. ولا يعلمه أي أحد .. لكن ما ينتشر بين بني قومي أن كرمة آتية تحمل سلامًا، والأمر كله في يد خلاباش .. هل يرضى بما تحمله كرمة .. أم يطلب دماءً أخرى كقرابين لينهي اللعنة وترحل جنوده.

– اسمعني جيدًا يا سعدي .. يجب أن تستمر اللعنة لتأكل آل الجندي كلهم إلا ولدي جمال .. يجب أن أرحل أنا وهو عن نزلة شرموخ الآن.

Scanned by CamScanner

(٣٧)

«هناء الجندي»

بعد نزهة بين الحقول بجوار ماء يترقرق في ترعة نحيلة، الظِلُّ الوافر وأشعة الشمس الذهبية المتسللة عبر أغصان أشجار التوت والنخيل، أصوات الطيور .. روائح النباتات وعدد غير قليل من الزهور البرية التي تنمو على ضفتي الترعة وبجوار الأشجار المعمرة .. عادت المجموعة إلى المنزل، في المقدمة حسن الذي كان يتبعهم من بعيد وتقدَّمهم عند العودة، وخلفه مباشرة أخوه زين، زما يزال يتحدث بكلمات مرتبكة إلى هايدي، وفي النهاية تأتي كرمة في صحبة جمال وعلى ملامحهم سعادة كتلك التي تصاحب الأطفال حينما يعلمون أن هناك هديةً آتية في الغد.

حَلَّ الظلام وانتشر الضوء الأصفر والأبيض من مصابيح منتشرة على واجهات البيوت أو من النوافذ، لكن حديقة منزل هناء الجندي كانت مظلمة والمقاعد خالية، ينصت حسن قليلًا منتظرًا أن يأتيه صوت من الداخل لكن

Scanned by CamScanner

الصمت كان مجيبه، بيد متوترة يبحث عن مفتاح مصباح الحديقة، ينتشر الضوء وتظهر بوضوح المقاعد خالية تتوسطها المنضدة، يشير حسن إلى زين وهايدي بالجلوس في الحديقة وتتحرك يده في إشارة إلى أن يجلس معهم جمال وكرمة حينما يصلون، بينما يدلف هو إلى الداخل مناديًا أمّه، يودُّ أن يودعها قبل أن يعود إلى منزله،أيضًا كان يرفع صوته ويسعل بصوت مرتفع لأنه يعلم أن إلهام زوجة خاله موجودة معها بالداخل ويخشى أن تكون قد تحررت من ملابسها بعض الشيء .. لكن لا يأتيه أي صوت فيتوغل أكثر محاذرًا.

تمر دقيقة حتى يعود حسن مسرعًا إلى الحديقة وعلى ملامحه علامات ذعر، ينتبه إليه زين ثم كرمة وجمال وهايدي بالترتيب وقد صدمتهم ملامحه، تركوا أماكنهم وتحلقوا حوله متسائلين بلا كلمات إلا زين الذي يهتف: «ماذا يا حسن؟» ونظراته مسلطة نحو الداخل .. أخيرًا يتحدث حسن وهو يشير نحو الداخل قائلًا: ليسوا بالداخل. يضطرب جمال وقد توقَّع أن أمه قد غادرت .. لكنه يعود عن توقعه هذا لأنها لن ترحل بدونه.

أليس من الطبيعي أن يذهبوا لزيارة أحد؟ تتساءل كرمة في محاولة منها لتهدئة الموقف، توافقها هايدي، ويهزُّ جمال رأسه بالموافقة المترددة، فيعلق زين بكلمة ممكن» أما حسن كان يشعر باضطراب عظيم لأنه يعلم حالة أمه الصحية، وأنها لا تستطيع الخروج بسبب ما تعانيه من آلام.

لحظات .. وقبل أن يتخذوا قرارهم بالبحث أو بالانتظار .. تظهر هناء الجندي في فتحة باب الحديقة ترتدي عباءة سوداء وغطاء رأس أسود .. مع

Scanned by CamScanner

ظلام الليل و الأشعة الشحيحة التي تصل من المصابيح إلى مكانها، جعلها تبدو مثل مخلوق أسطوري .. يزيد من رعب المشهد أنها أطلقت صرخة مدوية قبل أن تخونها ساقاها فتسقط على ركبتيها، قالت وهي تشير إلى فراغ الشارع من خلفها:

- هي .. هي سبب كل المصائب.

هرولوا جميعًا نحوها .. كان حسن الأسرع وتَبِعَه زين .. يحتضنها حسن ليرفعها عن الأرض .. كانت تهذي بكلمات مبهمة بينما ينتفض جسدها، عيناها دارتا نحو الجميع ثم استقرت مشمئزة فوق جمال. وصلوا بها إلى أقرب مقعد، احتوت كرمة رأسها تدلك عنقها في هدوء وتطلب من زين كوب ماء بسرعة.

هناء كانت تتحدث بكلمات غير متناسقة وجمل غير مترابطة لكنها في الإجمال توحي بأن هناك أمرًا عظيم، بعد فترة ليست بالقصيرة استطاعوا بثّ شيء من الهدوء بداخلها وحسن يطلب منها التركيز والحديث بما تريد، بالفعل تهدأ قليلًا وما تزال ناظرة نحو جمال بنظرات نارية، تأخذ من الهواء قدر ما تستطيع لتملأ صدرها ثم تقول:

- بعدما خرجتم جميعًا جلسنا بعض الوقت في صمت .. لم نتبادل كلمة .. ثم تركتها هنا ودخلتُ لأرتاح قليلًا .. قبل أن أتمدد على سريري تأملتُها من خلف نافذة حجرتي .. كنت أتأملها وبداخلي سؤال .. كيف مرت عليكِ يا إلهام كل هذه السنوات وهذه الهموم وما تزالين على هذه الدرجة من الجمال؟

Scanned by CamScanner

(تتأمل الجميع حولها ثم تقول مؤكدة في دهشة) بل .. لقد زاد جمالها عن ذي قبل، ذلك أفعال الشياطين! وبينما أنا كذلك فإذا بها تحمل حقيبتها وتخرج .. اندهشتُ! إلى أين .. وفي هذا التوقيت؟! لم أشعر بنفسي إلا وقد وضعتُ عباءتي على جسدي وحملتُ طرحتي وتبعتُها من بعيد، لا أعلم كيف أتتني القوة على ذلك .. لكني فعلتُ، كانت تسير أمامى مضطربة، وبدا ذلك واضحًا حينما أشعلت سيجارة وأرادت أن تُعيد علبة سجائرها إلى حقيبتها فسقطت منها على الأرض ولم تشعر بها .. حملتها أنا حينما وصلتُ إليها (تخرج من صدرها علبة السجائر وهي تنظر نحو الجميع ثم تشير بها نحو جمال وكأنها تسأله: أليست هذه سجائر أمك يا فتى؟) كنت أشكُّ في وجهتها .. لكن مع الوقت تأكدتُ أنها في طريقها إلى منزلنا القديم .. منزلنا المهجور .. هدأتُ قليلًا وأنا أقول في داخلي: يبدو أنها تودُّ استرجاع بعض ذكريات الماضي .. لكن ما كنت أفكر فيه تلاشى سريعًا حينما شاهدتها تقف أمام باب المنزل وتزوم بكلمات ثم فجأة تنزع القفل ويُفتح الباب.

كانت هناء الجندي تحكي ما شاهدته وما سمعته بعد ذلك وهي لا تصدق ولا تتوقع أن يصدقها أحد، لذا كانت تقسم كل هنيهة .. وكلما زادت كلماتها زادت آلام الجمع أمامها حتى وصل الأمر بجمال الذي يحمرُّ وجهه في البداية إلى سرعة في التنفس وارتعاش خفيف في يديه وهو يزمُّ شفتيه بقوة تدميها إن طالت المدة.

Scanned by CamScanner

حينما انتهت هناء الجندي من سرد تفاصيل كل ما سمعته وما علمته من اتفاق بين إلهام ووسطاء من عالم الجن كي تقضي اللعنة على عائلة الجندي حتى ينتفض جمال بشكل جعل الغضب الذي اعتلى الجميع يبدو لهوًا.

لو لَمْ يحدث ذلك لجمال لتوجهوا جميعًا نحوه باللوم وطالبوه بمواجهة أمه .. لكن انهياره الدال على جهله وإنكاره جعلهم يرغبون في تهدئته .. على الأقل كرمة وهايدي وزين .. أما هناء فكانت تنظر نحوه بنفس النظرات النارية ولم تمسّ الشفقة داخلها وتَبِعَها في ذلك حسن الذي كان يدرك الكثير من تفاصيل اللعنة التي كانت في طريقها إلى شقيقه وأمه منذ ساعات.

كرمة جلست فوق مقعد في جانب وجعلت من راحتيها مثل قارب وضعت فيه وجهها وظلت تهمس بكلمات غير مفهومة، لم يلحظها أحد في البداية حتى استطاع جمال الوقوف متوجهًا إلى الخارج وهو يشير نحو زين ليرافقه إلى هذا البيت الملعون، لكن حسن يستبقي زين ويُقرِّر مرافقته، تتوجه هايدي مسرعة نحو كرمة فتجدها على هذا الوضع، تحاول رفع رأسها عن راحتيها لكنها تفشل فتحتويها في صدرها، يأتي إليها زين بمقعد كي تجلس بجوار شقيقتها.

لم يكد جمال وحسن يصلان إلى باب الحديقة حتى يرتدا إلى الخلف وكأن أمامهم أحد مردة الجان، من بين رأسيهما يظهر وجه إلهام شاحبًا.

أسئلة كثيرة تتصارع على وجهي جمال وحسن، كانت أسئلة قاسية تحمل اتهامات تستشعرها هناء وإن لم ينطق بها أحد، لكنها اندهشت في البداية

Scanned by CamScanner

وزادت دهشتها حينما اقترب زين وهايدي وخلفهما هناء تتمتم بكلمة واحدة «ملعونة .. ملعونة ... » بصوت خفيض عبر عن ضعف بل رعب يمتلكها .. كرمة ما تزال باقية في مكانها وقد رفعت رأسها لتشاهد تفاصيل الصورة بجوارها وإن كانت شفتاها تلهجان بكلمات غير واضحة.

إلهام ما تزال ثابتة في مكانها، مثل شجرة، تحاول معرفة ما يحدث .. عمَّ يتساءلون؟! قالت في داخلها ذلك .. لم تمهلها هناء وقتًا طويلًا للتساؤل .. قالت بكلمات كلها غيظ ونقمة:

- ظهرت الحقيقة .. يا .. ملعونة.

وكأن طاسات موسيقية ودق عظيم على طبل ضخم يملأ فراغ الصمت الذي تلا جملة هناء، لم تستوعب إلهام الأمر بعد، لم تتخيل أن سرها الذي دام هذا العمر قد انكشف، يتساءل جمال الذي يقترب من أمه أكثر:

- أحقيقي هذا يا إلهام؟!

- ماذا؟

تتساءل إلهام .. إنها تجهل ما يسألون عنه، تُباغتها هناء الجندي بشكل مباشر، تصرخ في صوت خفيض، تخشى أن يصل صوتها إلى الجيران، تخبر إلهام بأنها تبعتها إلى المنزل المهجور وقد استمعت إلى كلماتها وعلمت بشأن علاقتها بالجان.

Scanned by CamScanner

تتداعى قُوى إلهام مثل منزل يسقط مرة واحدة بعد شموخ استمر ستين عامًا، كادت تسقط أرضًا لولا أن تلقفها جمال وسار بها إلى أقرب مقعد، يلحظ بطرف عينه كرمة في مكانها تُحرك شفتيها بكلمات.

تنخرط إلهام في بكاء وتنهمر دموعها غزيرة، تتحدث إلى جمال بكلمات متقطعة: «لا تصدقها .. كاذبة .. إنهم أصحاب السحر الأسود .. » جمال فقط الذي يخصُّها من هؤلاء، تنظر نحوهم بنظرات نيرانية حتى تستقر نظراتها على هناء، تصرخ فيها قائلة:

– كذب ..كل ما تحدثتِ عنه كذب يا هناء .. منذ اليوم الأول وأنتِ تكرهينني .. عائلتك كلها كانت تكرهني .. حتى أخوك الذي تزوجني غصبًا .. لم يكن زواجًا .. كان اغتصابًا بموافقة الشهود .. لأنني لم أكن موجودة حتى أوافق على هذا الزواج .. مسلوبة الإرادة بسحر أسود .. كلكم تكرهونني وتأسرونني في نفس الوقت .. أبوكِ المدنَّس يسخر الجان لسرقة فتاة في بداية حياتها .. لم أكن أعلم أن على الأرض شياطين .. كنتُ أحسبها جنة وما عليها غير الملائكة .. لي حبيب يثُني أشواقه حتى التهمتني عيون الشيطان الأصغر .. أخيكِ مصطفى .. وسُرقت أنا من الكون لأكون أسيرتهم .. ورغم كل ذلك تكرهونني وأنتم أولى بالكراهية من كل سكان الأرض .. أبوكِ يكرهني لأنني رفضتُ ابنه الذي اختارني، فاستخدم قُدراته في السحر الأسود .. وكانت فعلته تلك من ضمن أسباب هلاكه.

Scanned by CamScanner

تصمت لحظة تنظر فيها نحو الجميع ودموعها الممزوجة بالكحل الأسود تغرق وجهها، ثم تواجه هناء مرة أخرى وتقول:

- أمك يا هناء .. كانت تكرهني رغم أنها كانت تحبسني في غرفتي.. كانت تكرهني لأن ابنها البِكر تَرَكَ أحضانها وارتمى في أحضاني .. وكأنني مَن نسجت شباك الغرام حتى أوقعت به! أخوكِ مصطفى نفسه كان يلتهمني كل ليلة ثم يضربني بكل ما أوتي من قوة لأنه يعلم أني أكرهه .. رغم أنني مسلوبة الإرادة ولم أنطق بكلمة كراهية واحدة .. كلما كان يريد إثبات رجولته يزيد في تعذيبي.

كانت قوة إلهام تنفد مع كلماتها وكأنها آلة تعمل بالوقود لفترة زمنية محددة، احتاجت إلى وقود جديد فمدت يدها ناحية جمال الذي كان يواجهها في تلك اللحظات، اقترب منها فاحتضنته بقوة .. يهدأ داخل زين قليلًا .. هناء وحسن ما يزلان ينظران نحوها بقسوة .. هايدي تقف مرتبكة متطلعة إلى كل الوجوه ولا تعلم كيف تحولت حياتها إلى هذا المنعطف فآثرت الصمت والانتظار .. أما كرمة فكانت تشاهد في هدوء وقد شغلها همسها المبهم عن كل مل يدور حولها، ورغم سخونة الأحداث وتوتر الأجواء فإنها لم تنقطع عن الهمس بكلماتها .. حتى إن هايدي نظرت نحوها أكثر من مرة متسائلة عما يحدث ولكنها لم تُجِبها حتى بالنظرات.

Scanned by CamScanner

تشعر هناء بأن إلهام اقتربت من اكتساب هذه الجولة فتحاملت على ساقيها المكلومتين فجأة وأشاحت بيدها في الهواء موجهة كيل الاتهامات إلى إلهام .. تصرخ وقد استندت بذراعها اليسرى على كتف حسن ابنها وهي تقول:

- أنا الكاذبة؟! وماذا عما سمعته بأذني منذ دقائق في المنزل المهجور؟! ماذا عن اتفاق سريان اللعنة حتى تقضي على عائلة الجندي .. (تهدأ لحظة) نعم كان أبي يفعل ذلك .. نعم سحركِ بسحره حتى توافقي على الزواج بمصطفى .. لكن اللعنة ما كانت تستمر لولا طلبكِ أنتِ يا إلهام .. اكتفوا بمعاقبة أبي بتلك الموتة البشعة، وبموته انقطع حبل الوصل بين العائلة وبين ذلك العالم الخفي .. كانوا سينصرفون بهدوء ولا أحد منا يعلم طريقة التعامل معهم .. لكن هناك مَن طلب منهم الاستمرار والانتقام حتى القضاء على كل أفراد العائلة .. أنتِ يا إلهام .. (تنظر نحوهم) هي السبب يا شباب العائلة .. هي التي قتلت أمي وقتلت أخي مصطفى .. والدك يا جمال .. ولم تقنع بذلك .. كانت تجادلهم اليوم، وقد سمعتها بأذني، من أجل استمرار اللعنة للقضاء على ما تبقى من العائلة. ملعونة .. ملعونة.

أنهت هناء كلماتها صارخة بكلمة اللعنة .. أما إلهام التي لم تجد ما تقوله فقد بدأت تهمس بكلمات وقد دفنت وجهها بين راحتيها .. يعتقد الحضور

Scanned by CamScanner

أنها تستغفر أو تهذي بكلمات ما حتى تهدأ .. لكنها ما كانت تفعل ذلك .. كانت تتلو تعويذة استدعاء الجني سعدى ..

لحظات وتقف إلهام وعلى وجهها ابتسامة انتصار وهي تنظر إلى ناحية ما في الظلام .. لقد حضر سعدى وسوف تأمره بالقضاء على هناء الجندي الآن .. لكنها ما لبثت تطوي لحظة الانتصار والشماتة وهي تتجول بنظراتها على الوجوه حتى سمعت صوتًا يأتي من خلفها يقول:

- أهلا بك يا سعدى .. أيها الجني المسالم أنت بين قوم مسالمين لا يبتغون غير السلام ..

تدلت الفكوك السفلية للجميع من فرط الذهول وهم ينظرون ناحية مصدر الصوت .. إنها كرمة .. تركت مقعدها ووقفت في مواجهة البؤرة المظلمة التي كانت تنظر نحوها إلهام منذ لحظة .. لم يكونوا على دراية بما فعلته إلهام .. الآن يظنون أن كرمة هي الساحرة .. لكن ذلك تبدد حينما تُكمل كرمة حديثها:

- أتيت لأن إلهام استدعتك .. ولا أحد غيرها يعلم بذلك .. لكنها لا تعلم مَن أكون وماذا أملك من قدرات .. اذهب يا سعدى في سلام، وأخبر أميركم خلاباش أني أرغب في مقابلته في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم لحظة اكتمال القمر.

Scanned by CamScanner

يُطيعها سعدى لما بداخله من عشقٍ لها، ولما يعلمه من جنود حولها يقومون على حراستها، يعلم أنهم مسالمون وعن السلام يبحثون، وتلك رسائل سوف يتحدث بها إلى خلاباش قبل أن يلتقي كرمة بعد أسبوع من الآن.

إلهام كانت تتابع مشدوهة .. تهمس باسم «سعدى» و كأنها تستدعيه، زادت دهشتها حينما سمعته يجيب كرمة بالموافقة ويرحل في هدوء، تنظر نحو كرمة وقد تملّكها خوف قاتل .. ليست بالفتاة الصغيرة الحالمة .. إنها تمتلك قدراتٍ كبيرة .. تنكمش إلهام وقد أحسّت بضعف شديد، ترتعش أطرافها .. تصرخ صرخة مدوية .. تسقط على الأرض فاقدة الوعي.

Scanned by CamScanner

(٣٨)

الحصن

في الغرفة التي تضمُّ كرمة وهايدي يعمُّ صمت قاتل، تجلس كرمة القرفصاء على السرير الوحيد في الغرفة، تتحرك شفتاها بكلمات غير واضحة، يلحظ المتأمل لحركة شفتيها أنها نفس الحركات تتكرر بشكل منتظم، نعم هي تكرر كلمات بعينها، تتأملها هايدي منذ دقائق، ولكنها لم تلحظ هذا التكرار .. لكنها تلحظ شرودها وأن هناك ما تهمس به، تمر الدقائق ثقيلة كما مرت الأيام الماضية منذ أن غادر جمال بصحبة والدته.

حينما سقطت إلهام فاقدة الوعي يحتضنها جمال صارخًا في زين طالبًا منه إحضار طبيب .. لم يكن يمتلك القدرة على التفكير أو هو قد نسي أنهم في قرية في أعماق ريف مصر والليل قد اقترب من نصف وأن الحصول على

Scanned by CamScanner

طبيب في مثل هذا التوقيت وهذا المكان شيء أشبه بالمعجزات .. المصادفة وحدها هي التي تُحدث مثل هذه المعجزة .. ومثل هذه المصادفة لن تأتي الآن .. لأن زين يقف وقد تدلَّى فكُّه السفلي منذ أن أدرك أن كرمة تمتلك قدراتٍ خاصة في التعامل مع سكنى الظلام، الآن وهو على نفس الوضع لا يعلم بماذا يجيب جمال .. لا طبيب هنا .. بعد لحظات يهمس بأنه يستطيع فقط بأن يأتي بسيارة ليحملوها إلى أقرب مدينة، وهناك يستطيعون دخول المستشفى أو عيادة طبيب خاص.

يستخرج جمال تليفونه المحمول بيده الحرة، يده الأخرى يحتضن بها أمه، يكتب الرقم المختصر لخدمة الإسعاف، رنين الهاتف الآخر في أذنه مثل أجراس الموت، لا أحد يجيب .. يحاول مرة ثانية وثالثة .. لا مجيب .. يتمنى في داخله أن يحمله أحد مردة الجان لينقله في غمضة عين إلى ذلك المكان الذي يرن فيه الهاتف الآخر ويبحث عن الموظف المسئول في هذه اللحظات ويشاهد ماذا يفعل ويترك خدمته بهذا الشكل الذي قد يؤدي إلى وفاة حالات لا مُسعف لها.

ييأس من مرفق الإسعاف فيطلب من زين أن يأتيه بالسيارة .. يُسرع زين كي يستدعي سيارة خاصة يعلم أن صاحبها يخرج في مهمات مثل هذه مقابل

Scanned by CamScanner

مبلغ مالي يتخطى ضعف المتعارف عليه، لكنه يعلم أن جمال كان سيُوبِّخه إن هو ذكر مثل هذا الاستغلال.

جمال ينظر نحو كرمة وإن كان ما يزال بداخله حاجز نبت منذ قليل حينما شاهدها في ثوبها الجديد، لكنه في موقف الآن هو أقرب إلى غريق يبحث عن طوق نجاة .. نظراته نحو كرمة كانت تحمل أكثر من معنى، يطلب المساعدة، يطلب أن تعاونه كي تتخطى أمه هذا الموقف الذي سقطت إليه ومستقبلاً هو قادر على مواجهتها ومحاسبتها إن لزم الأمر، لكن عليه إنقاذها الآن .. نظراته كانت حاملة لتوسلات بأن تأتي بكوب ماء وزخَّات من عطر ينعش جهازها العصبي. تمدُّ كرمة يدها إلى حقيبتها في هدوء،شاردة تستخرج زجاجة صغيرة.

تتأملها عمَّتُها هناء من بين غيظ ودهشة، كيف تساعد كرمة تلك السيدة المجرمة؟! لو تتركينها تموت يا كرمة مثلما ماتت جدتكِ وعمك مصطفى! لو تتركينها تفنى قبل أن يتحقق ما كانت تحلم به لنا نحن عائلة الجنديِ من فناء! لكن يد جمال تمتدُّ كي تلتقط الزجاجة من كرمة وفي لحظة واحدة ينثر منها في الهواء أمام أنف أمه .. ما إن يتسلل إليها الرائحة النفاذة حتى تُنعش جهازها العصبي فيُحفز باقي أجهزتها .. تفتح عيناها الثقيلتان بصعوبة .. لم

Scanned by CamScanner

تدرك في اللحظة الأولى أين هي أو ماذا حدث! تدور عيناها في المكان حتى تستقر على وجه ابنها .. تدرك أنه يحتضنها .. تتشبث به وهي تنشج .. كلمات هامسة تخرج من فمها القريب من أذن جمال .. تطلب منه الرحيل الآن عن نزلة شرموخ .. لا بد من العودة إلى منزلهم بأسرع ما يكون وأن يغلقوا عليهم بابهم .. لن تشعر بالأمان إلا هناك .. يطمئنها جمال بأن زين ذهب كي يأتي بسيارة وبها يرحلوا إلى أقرب طبيب ومن هناك يتحركوا إلى ما تشاء.

في اليوم التالي لرحيلهم تحركت تفاصيل الحياة ببطء شديد، لم يكن أحد يمتلك ما يقوله .. كرمة الوحيدة التي تمتلك ما تقول .. كل الأنظار نحوها مستفسرة .. هي مَن طلبت من سعدى الانصراف وهي مَن طلبت منه موعدًا ولقاء مع خلاباش وهي التي تتحرك وتهمس بكلمات غير مفهومة وبداخلها ثقة تبدو كبيرة لا توافق ما بداخلهم من رعب عظيم.

لكن هايدي الآن لم تعد تحتمل الانتظار .. كرهت كل شيء، وتتمنى لو يحملها البساط السحري إلى شقتهم في الإسكندرية، اتصالات تليفونية منها ومن كرمة مع والديهما يخبرانه فيها بتفاصيل زائفة عن رحلتهما الرائعة.

زين يخفف عن هايدي ويؤكد لها ضرورة الصبر حتى الانتهاء من تلك اللعنة كي تستمر حياتهم، وهذا ما تدبر له كرمهة فيما يبدو، وعليهم الانتظار حتى موعد اللقاء الذي حددته مع خلاباش.

Scanned by CamScanner

يمر الأسبوع المتفق عليه .. تقترب هايدي من شقيقتها .. تهمس:

- ماذا سيحدث عند منتصف الليل وهو موعد اللقاء يا كرمة؟!

تنزلق كرمة من فوق السرير لتقف في مواجهة هايدي تتأملها لحظات، تواجهها هايدي وعلى ملامحها ترتسم نفس التساؤلات الحائرة .. تبتسم كرمة وهي تضع يديها على كتفي أختها وتضغط بهدوء كي تُجلسها في مكانها، تطيع هايدي الأمر وتجلس في هدوء، تجلس كرمة فوق حافة السرير ، تواجه أختها وقد أمسكت براحتيها كي تبث بداخلها شيئًا من الطمأنينة، يد هايدي باردة ترفض تلقي أي شيء، تبتسم كرمة .. تُقرّر أن تخبرها بكل ما لديها مرة واحدة، فما هناك غير ساعات وسوف يكون اللقاء.

تتحدث كرمة بهدوء وبصوت هامس بعدما تأكدت من أن باب الغرفة محكم الغلق وأن المسافة بينهما وبينه كبيرة بشكل يجعل من المستحيل تسرب كلماتها إلى خارجه، قالت:

- اعلمي يا حبيبتي أنني حينما آتينا، أنا وأنتِ إلى نزلة شرموخ، قد أتيتُ مُسيَّرة ولا أعلم لماذا .. كنتُ مدفوعة بقوى خفية، رسالات تأتيني فجأة تُوجّهني إلى هذا المكان .. في أحلامي وفي يقظتي .. في محطة القطار .. وآخرها بجوار الساقية المهجورة عند مدخل القرية حينما توقفتُ دقائق فجر

Scanned by CamScanner

هذا اليوم الذي أتينا فيه .. حينها قابلتُ سيدة من عالم الجان، هي مسالمة وإن كانت تثير الرعب في هذه المنطقة، لقد دلّتني على أول طريق الخلاص من هذه اللعنة، لا أعلم لماذا تم اختياري.

تلاحظ كرمة علامات الدهشة المرتسمة على ملامح أختها فتكمل قائلة: إنها قد تعجبت حينها، وتساءلت بدهشة: كيف تستطيع تحقيق ذلك؟ فأجابتها السيدة التي يطلقون عليها الغولة، قبل أن تشرق الشمس وقبل أن تخرج العصافير من أعشاشها لتنطلق، قائلة:

– نعم يا كرمة .. أنتِ الوحيدة القادرة على وقف هذه اللعنة .. ولكن قبل البدء عليكِ بحصن منيع من أجل سلامتك.

– حصن منيع؟!

– نعم .. إنه حصن .. بسم الله الرحمن الرحيم.

تتأمل كرمة في صمت، تندهش مما تسمعه .. لقد توقعت منذ لحظة وهي تسمع كلمة الحصن المنيع أنها سوف تأتي بتركيبات معينة وتعاويذ كثيرة وتتعامل مع مُستحضِري الجان .. لكن ها هي تسمع أن الحصن المنيع هو: بسم الله الرحمن الرحيم. فقط ... تقرأ ساكنة الساقية المهجورة التي

أطلق عليها سكان نزلة شرموخ لقب «الغولة» وأطلقوا على كل مَن يُصاب بالرعب إذا شاهدها وصمت عدة أيام بأنه قد أصابه «خرس الغولة» .. تقرأ الغولة تلك التعبيرات على وجه كرمة فتقول في هدوء:

- بسم الله الرحمن الرحيم .. لها شأن عظيم لو تعلمين .. لقد فرح بها أهل السموات من الملائكة لمّا نزلت، واهتزّ لنزولها العرش .. ونزل معها من الملائكة ما لا يُحصى عددُه.

تتعجب كرمة .. ولكنها ترهف السمع أكثر، يصلها الصوت قائلًا:

- كانت بسم الله الرحمن الرحيم مكتوبة على جبهة آدم عليه السلام قبل أن يُخلق، وكانت بسم الله الرحمن الرحيم مكتوبة على جناح جبريل عليه السلام يوم نزوله على سيدنا إبراهيم فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم ، وأن بسم الله الرحمن الرحيم كانت مكتوبة على عصا موسى عليه السلام، وكانت مكتوبة بالسريانية، ولولاها ما انفلق له البحر، وكانت على لسان عيسى عليه السلام حين تكلّم في المهد، وكان يتلوها على الموتى فيَحْيَوْنَ بإذن الله، وبسم الله الرحمن الرحيم كانت مكتوبة على خاتم سليمان عليه السلام، وبسم الله الرحمن الرحيم تبدأ بها كل سورة في القرآن الكريم. وعدد حروف بسم الله الرحمن الرحيم..

تسعة عشر حرفًا، وعدد خزنة النار تسعة عشر خازنًا كما قال عز وجل في كتابه: «وما أدراك ما سقر لا تُبقي ولا تذر لواحة للبشر عليها تسعة عشر» * (قرآن كريم) فمن أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ بسم الله الرحمن الرحيم.

– وكيف يكون التحصين؟

– التحصن بها يا كرمة يكون بقراءتها ٧٨٦ مرة .. على مدار سبعة أيام متتالية .. على نية أي أمر: من جَلْبِ خير أو دفع شَرٍّ .. سيتحقق بإذن الله أمرُه.

فجأة يختفي ذلك الجسد المصنوع من ظلام .. تشدُّ كرمة على يد هايدي وما تزال تحكي لها، تقول:

– وقتها بحثتُ عن هذا الجسد في كل مكان فلم أجد له أي أثر، حينها ألفيتُكِ تتابعين في صمت يوحي بأنك لم تشاهدي شيئًا، فقط تتابعين ما أفعل في دهشة، آثرتُ ألا أخبرك بأي تفاصيل، بل دعوتكِ لو تذكرين لملء صدرك بهواء الصبح الندى.. و همستُ لكِ: اطمئني يا أختي .. سوف ينتهي كل شيء عما قريب. وقد أمضيتُ الأسبوع الماضي كله في قراءة كلمات الحصن حتى بلغتُ العدد المطلوب وزدتُ عليه الكثير .. فلتطمئني يا حبيبتي.

Scanned by CamScanner

(٣٩)

«القتيل الأخير»

في هذه الليلة الأخيرة .. كانت إلهام تعلم أن الباقي من الزمن ساعة حتى تلتقي كرمة بـ خلاباش كي تتفاوض معه من أجل رفع اللعنة عن عائلة الجندي شرموخ، ولكنها كانت تدرك في داخلها بأن هذا الأمر لن يتم بدون تقديم ضحايا، منذ اليوم الأول الذي تفاوضت هي فيه على استمرار اللعنة تعلم أن لا نهاية لهذه اللعنة إلا بتقديم قربانٍ عظيم، ما دامت اللعنة العشرية قائمة وتحصد روحًا كل عقد زمني .. وما دامت هي وابنها في منأى عنها .. فليكن ما يكون .. كانت تضمن باستمرار أنها في مأمن .. اليوم تغيرت الأمور وظهر من رحم الوجود فتاة جديدة تحمل قياد الأمر .. كادت إلهام تُجنُّ .. كيف تأتي لكرمة الولوج إلى هذه المكانة العظيمة وهي في هذه السّنّ الصغيرة؟ ومن أين لها بالوصول إلى سعدى؟!

Scanned by CamScanner

لا بد أن تتحرك إلهام الآن وحتى الصباح .. هو الوقت الذي قد تحدث فيه أمور عظيمة .. سوف تقرأ تعويذة عظيمة .. ثم تخرج هي وابنها للسهر في الخارج .. في مكان غير معلوم .. في أكثر من مكان .. حتى تشرق شمس اليوم التالي.

لم تكن كرمة على علم بتفاصيل اللقاء المنتظر من حيث المكان أو الوعد بالدقة اللازمة، كانت تنتظر وفقط وعلى لسانها تردد البسملة بشكل مستمر، عقلها كان يتحرك في أكثر من اتجاه .. تفكر في التفاصيل المنتظرة والنتائج التي قد تحدث، عقلها ينتظر كارثة .. قلبها يشعر براحة لا تعرف مصدرها .. تمزج ما بين عقلها وقلبها فلا تجد غير الانتظار .. الوقت يمر ببطء رهيب .. تعود إلى طبيعتها .. سوف تلقي كل ما في جعبتها إلى جعبة القدر ليفعل ما يشاء .. ومهما كانت النتائج فعلينا تقبُّلها .. تفعل ذلك باستمرار حينما تصل إلى عدم القدرة على التفكير واتخاذ قرار أو بالأدق مرحلة اليأس.

تغرق كرمة في دوامة أفكارها .. كل فكرة تنقلها إلى فكرة .. كل موضوع تنتقل عَبْرَه إلى موضوع آخر .. كانت تتمدد فوق السرير وما تزال هايدي تجلس فوق مقعد في جانب الحجرة تتجول وتتواصل عبر الفيسبوك وتويتر .. الحجرة تغرق في الظلام إلا القليل المنبعث عبر شاشة موبايل هايدي.

تشعر كرمة بالخدر يسري في أطرافها .. ثم تدور بها الحجرة .. قبل أن تجد نفسها فجأة تجلس فوق كرسي ذهبي مثل ما تشاهده في حكايات ألف ليلة وليلة .. شعلات النار تنتشر في المكان .. يظهر لها سعدى في جانب وعلى

وجهه ابتسامة عريضة وهو يشير نحو مقعد كبير على شكل سرير، تنتهي قوائمه بمجسمات لرأسي أفعى، في نهاية الغرفة .. قبل لحظة لم يكن هذا السرير موجودًا .. توقعت كرمة الكثير .. لذا لم تندهش حينما ظهر السرير، ولم تندهش أكثر حينما ظهر هذا الرجل المهيب، الدماء تفور من وجهه .. له عينان كحيلتان .. ذي ملابس بألوان زاهية وسلاسل وذهبيات وأحجار كريمة في أكثر من مكان، تبحث كرمة عن الهواء لتملأ به صدرها .. تبحث عن لعابها كي ترطب به حلقها الجاف .. يسري حديث الرجل المهيب إلى عقلها .. إنه خلاباش .. يبتسم لها .. يتحرك عن سريره .. يسألها:

- ماذا يا كرمة؟

تستجمع قواها .. تُبسمل وتُحوقِل .. تتذكر كل ما فعلته خلال الأيام الماضية كي تكون على قَدْرِ تلك المواجهة، تستنطق من داخلها اليقين بالنجاح، تقول:

- إنهاء اللعنة.

لم تعلم كرمة بأن خلاباش يعلم كل التفاصيل عن طريق سعدى الذي بذل الكثير إرضاء لرغبات كرمة .. يوحي لها بأن عشقه لها قد انتهى، لأنها لو علمت أنه يتفانى عشقًا لرفضت .. تتعجب كرمة من ثباتها وجرأتها للجلوس في هذا المكان ومواجهة كبير عائلة شرسة من عالم الجان مثل خلاباش .. الوصول إلى مرحلة اليأس النهائية يجعل الفرد يمتلك قوة لا يمتلكها المفكر والمُقدِّر لعواقب الأمور والمتمسك بالغد.

Scanned by CamScanner

يضحك خلاباش لحظات قبل أن يقول:

- إنهاء اللعنة أمر ليس بالعظيم لدينا .. مجرد كلمة مني أو إشارة تنتهي اللعنة.

- هي أمر عظيم لدينا ولا سبيل أمامنا غير ذلك يا سيدي.

يفكر خلاباش لحظة وهو يتأمل كرمة، ما كانت تقرؤه خلال الأيام الماضية خلق حولها قوة عظيمة تستطيع عبرها مواجهة أصعب اللعنات، يعلم أن حولها عشرات وعشرات من جنود لا تراهم يحرسونها وقد يتدخلون لصالحها إن تطلّب الأمر .. وهو أمر بالنسبة إليه لا يستحقّ كل هذا العناء .. لقد تم استدعاؤه قديماً بالرغم منه، ولولا غضبه على الجندي ما ترك اللعنة تحلُّ عليه وعلى أسرته من بعده .. ثم إن إصرار إلهام على الانتقام ما جعله يترك تلك اللعنة مستمرة ولا يبالي، ينظر نحو سعدى الذي يقف في جانب وعيناه مثبتتان على الأرض بين قدميه، يقول:

- لكن .. لا بد من قربانٍ أخير .

تفزع كرمة وهي تقول:

- قربان أخير؟! دماء مرة أخرى؟!

- وعليكِ الاختيار يا كرمة.

- أنا!

Scanned by CamScanner

قالتها كرمة مفزوعة وهي تتكوَّر في مقعدها .. يدها ترتفع أمام وجهها علامة الرفض .. تقول:

– مستحيل .. مستحيل أن أختار .. أقصد مستحيل أن أوافق على الدماء مرة جديدة .. كفى دماءً بلا ذنب، العالم كل يوم يَفْقِدُ آلاف بلا ذنبٍ .. تكاثروا علينا .. قتلوا مَن قتلوا وشرَّدوا مَن شرَّدوا بلا ذنب.

– لا .. لا يا كرمة .. الذنب موجود .. والصمت ذنب.

يخطو خطوات قبل أن يعود إلى سريره .. تعبث يده في شعر لحيته .. يقول:

– إن لم تختاري .. فسوف أختار أنا .. لا بد من القربان الأخير .. وأنا أعلم مَن سيكون.

– لا .. أرجوك .. لا.

تصرخ كرمة بكلمات الرفض ويدها تتحرك أمام وجهها بعنف .. تترك هايدي تليفونها وتُهرول ناحية كرمة لتحتويها في صدرها وتربت عليها قائلة:

– كرمة .. حبيبتي .. خير يا كرمة .. اهدئي يا حبيبتي.

تُفيق كرمة .. تتأمل المكان حولها .. تتنفس بصعوبة .. تتناول كوب الماء من يد شقيقتها وهي تعتدل فوق السرير، تسألها هايدي عما حدث .. لكن كرمة تبتسم في هدوء .. تربت على يديها .. تخرج كلمة «اطمئني» شاحبة مثل وجه كرمة.

Scanned by CamScanner

يقود جمال السيارة بضيق .. فها هما ينتقلان للمكان الثالث بدون أسباب .. مرة تخبره بعد نصف ساعة بأن المكان غير ظريف .. ومرة ثانية بأنها تشعر باختناق من أدخنة الشيشة المنتشرة في المكان بالرغم من أنها تمسك في يدها لَي الشيشة .. جمال يستجيب لها منذ أن غادرا نزلة شرموخ ولم يسألها عمّا حدث .. يشاهد توترها الشديد .. يؤجل أي استفسار حتى تمُرّ الأزمة وتعود إلى طبيعتها.

فجأة .. والسيارة منطلقة في طريق مظلم، وضوؤها الشاحب يحاول اختراق هذا الظلام، تصرخ إلهام وهي تُشير بيدها اليمنى إلى الطريق أمامها .. لقد شاهدت فتاة تعبر الطريق أمام السيارة، بيدها اليسري تحرك عجلة القيادة من أمام جمال كي لا يصدم الفتاة .. يرتبك جمال بشدة وهو يتأمل الطريق الخاوى أمامه ويتشتت بين صراخ أمه ويدها التي تُحرك عجلة القيادة إلى اليمين بعنف.

لحظة واحدة بها ألف فكرة وألف حركة وألف صوت .. لحظة كانت مليئة بالتوتر الرهيب .. كان في نهايتها أن اصطدمت السيارة بشجرة ضخمة على جانب الطريق قبل أن تطير في الهواء .. تسقط السيارة على أسفلت الطريق مُحدثة دويًا رهيبًا، يتناثر زجاجها في كل مكان .. يعمُّ صمتٌ رهيب .. صمت يحمل ألف معنى.

من جانب السيارة تسيل دماء قاتمة .. ومن جانب السيارة الآخر .. تظهر أطراف أصابع تتحرك بوهنٍ شديد.

(تمت)

Scanned by CamScanner

المؤلف

رضا سُليمان

كاتب مصري، وُلد عام ١٩٧٢ حصل على ليسانس الآداب قسم الإعلام جامعة الزقازيق، يعمل حاليًا مخرجًا بالإذاعة المصرية، شبكة البرنامج العام، له العديد من المسلسلات والبرامج الدرامية الإذاعية تأليفًا وإخراجًا، أشهرها أوراق البردي، قطوف الأدب من كلام العرب، همسة عتاب. محاضر مادة فن الكتابة والإخراج الإذاعي بكليات الإعلام وأقسامها. حصل على العديد من الجوائز الأدبية والفنية، منها: جائزة كتاب اليوم الأدبي، جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة، جائزة زايد الذهبية للإبداع، جائزة الإبداع الذهبية في مهرجان تونس للإعلام العربي، جائزة (الإذاعيون يبدعون).

صدر له:

- المسرحية الكوميدية: آدم تو.

Scanned by CamScanner

روايات:

- عمدة عزبة المغفلين.

- مطلب كفر الغلابة.

- ماريونت.

- وحي العشق.

- ظلال الموتى.

- شبه عارية.

- ما قبل اليوم الأخير.

- المُدنَّس.

Scanned by CamScanner

المدنس

تختفي الصورة التي تراها منذ أن بدأ العشق، جسد ناري.. جلدٍ وكأنه طبقات صخرية حمراء دامية، مُغطى بشعر أسود طويل مثل أسلاك شائكة، عيناه واسَتعان وكأنهم فوهتا بركانٍ يقذف بحُممه الدمويّة راحتاه ككفّي جملٍ، لكن أصابعه تنتهي، بأظفار مثل مخالبَ صقر، تتحرّك شفتاه لتكشفَ عن فم هو أقربُ إلى بئر سحيقة مظلمة، لسانه مثل لسان أفعى يخرج من بين أسنانه الحادة المُدبّبة. ترتدُّ إلى الخلف مفزوعة، تفيق من نشوتها دفعة واحدة، تشهق تجلس في مكانها قبل أن تسقط من فوق حافة سريرها، تتأمله غير مصدقة ما تراه، تصرخ، لكن صراخها لا يخرج يعتدل في جلسته أمامها وعلى ملامحه بداياتُ غضب، جسدُه هائل يحجب المكان، هي بجواره مثل دمية.

تصميم الغلاف: مروة صلاح

ISBN 978-977-786-149-6
9 789777 861496
دار غراب للنشر والتوزيع

Scanned by CamScanner